

جامعة البحرين

قسم اللغة العربية
والدراسات الإسلامية



كلية الآداب

خطابُ الشكوى والعتابِ في شعرِ أبي فراسِ الحَمْدانيّ

في ضوءِ نظريّاتِ التَأدُّبِ

رسالةٌ أعدتْ لاستكمالِ متطلّباتِ الحصولِ على درجةِ الماجستيرِ في اللغةِ العربيّةِ وآدابِها

إعداد الطالب

محمد جاسم محمد حسن

الرقم الجامعي: ٢٠١٤٠١٠٠

إشراف

أ.د. أحمد محمد ويس

أستاذ نظرية الأدب وعلم الأسلوب

جامعة البحرين

مملكة البحرين

٢٠٢٤-٢٠٢٥ م

نموذج رقم (٢)
صفحة الاعتماد من قبل لجنة التحكيم



جامعة البحرين

كلية الآداب

قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

برنامج الدبلوم العالي والماجستير في اللغة العربية

ناقش الطالب محمد جاسم محمد حسن الرقم الجامعي 20140100 الأطروحة التي استكمل بها متطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها. والموسومة " خطابُ الشكوى والعتاب في شعر أبي فراس الحمداني في ضوء نظريات التأدب"، وذلك يوم الأربعاء الموافق ٢٦ مارس ٢٠٢٥

وتوصي اللجنة بمنحه درجة الماجستير بتقدير: pass

(لجنة المناقشة)

التوقيع

الاسم

مشرفاً

أ.د. أحمد محمد ويس

ممتحناً خارجياً

أ.د. عادل حسني يوسف

ممتحناً داخلياً

أ.د. عبد الفتاح أحمد يوسف

ملخص البحث

تتعدد الجوانب التداولية التي يتم تناولها عند تحليل الخطاب الأدبي، ولكن جانب التأدب من الجوانب التي لم يسلط الضوء عليها بصورة كافية عند دراسة النصوص الأدبية العربية. ويمثل خطاب الشكوى والعتاب في شعر أبي فراس الحمداني مدونة مناسبة لدراسة جانب تأدب الخطاب فيه؛ ذلك أنّ الحالة الفريدة لهذا الخطاب تكمن في محاولة الموازنة بين التأدب والملا تأدب في ذات الوقت؛ لذلك فإنّ هذا البحث يسلط الضوء على هذه الظاهرة التداولية من خلال تطبيق عدة نظريات اختصت بجانب التأدب في الخطاب، كنظرية التواجه لغوفمان، ومبدأ التعاون لغرايس، ومبدأ التأدب للايكوف، ونظرية التأدب الإيجابي والسلبي لبراون ولفنسن، وقواعد التأدب لليتشن.

فإنّ المنهج المتبع في البحث يقوم على تطبيق هذه النظريات على خطاب الشكوى والعتاب في شعر أبي فراس الحمداني؛ بغية أن يسهم هذا الأمر في رصد الظواهر التأدبية في المدونة المدروسة وفهمها وتحليلها على نحو أعمق، كما يقوم البحث بمحاولة تفسير هذه الظواهر وتحديد أسبابها التي أدت لنشئها في الخطاب المدروس. وقد نتج عن هذه المنهجية أربعة فصول يسبقها مهاد نظري يستعرض الباحث فيه ما يتعلق بنظريات التأدب ونشأتها، بالإضافة إلى بيان مفهومي الشكوى والعتاب وعلاقتهما بالتأدب، يتناول الفصل الأول عوامل التأدب التي تؤثر في تأدبية الخطاب بصورة عامة، ثم ينتقل الفصل الثاني لدراسة وتصنيف وتحليل الأفعال المهددة لوجه المخاطب في المدونة المدروسة، وسيختصّ الفصل الثالث بدراسة خطاب الشكوى والعتاب في ضوء القواعد التي أتت بها نظرية روبين لايكوف، وفي الفصل الأخير يتم رصد ودراسة الاستراتيجيات التأدبية المختلفة التي استعملها أبو فراس في خطاب الشكوى والعتاب بالاستعانة باستراتيجيات التأدب التي صنفها براون ولفنسن، ويكون ذلك بعد تقسيمها إلى ثلاث مجموعات تمثل مباحث هذا الفصل.

يقدم البحث بفصوله الأربعة تحليلاً متكاملاً لحالة التأدب في خطاب الشكوى والعتاب في المدونة المدروسة، ويعطي نظرةً عامةً على الآليات التي أدت لحضور التأدب وغيابه في خطاب الشكوى والعتاب. كما يبيّن البحث أساليب وطرق تخفيف تهديد خطاب الشكوى والعتاب لوجه المخاطب للوصول للحالة التأدبية الفريدة التي ظهر عليها الخطاب عند أبي فراس الحمداني. وقد أسهم البحث في الكشف عن آليات التأدب في الخطاب وإظهار مدى التزامه العالي بقواعد التأدب.

الإهداء:

إلى من وصّاني الله تعالى بهما في كتابه الكريم،
إلى والديّ العزيزين.

فهرس المحتويات

الصفحة	العنوان
٢	اعتماد لجنة المناقشة
٣	ملخص البحث
٤	الإهداء
٥	فهرس المحتويات
٧	المقدمة
١٣	المِهَادُ النَّظَرِي
١٤	أولاً: مفهوم التأدب ونظريّاته
٣٢	ثانياً: الشكوى والعتاب من منظار التأدب
٤٣	الفصل الأول: عوامل التأدب في خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس
٤٤	تمهيد
٤٥	المبحث الأول: مكانة المخاطب
٥٣	المبحث الثاني: علاقة المتكلم بالمخاطب
٥٧	المبحث الثالث: غايات الخطاب
٦٢	المبحث الرابع: صفات المتكلم
٦٩	خاتمة
٧٢	الفصل الثاني: خطاب الشكوى والعتاب مهدداً للوجه
٧٣	تمهيد
٧٥	المبحث الأول: الأفعال المهددة للوجه الإيجابي في خطاب الشكوى والعتاب
٨٩	المبحث الثاني: الأفعال المهددة للوجه السلبي في خطاب الشكوى والعتاب
١٠٨	خاتمة: التهديد للوجه بين الإيجابي والسلبي
١١٢	الفصل الثالث: خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس في ضوء قواعد مبدأ التأدب

١١٣	تمهيد	
١١٥	المبحث الأول: تجليات قاعدة التعفف في خطاب الشكوى والعتاب	
١٢٣	المبحث الثاني: تجليات قاعدة التشكك في خطاب الشكوى والعتاب	
١٣١	المبحث الثالث: تجليات قاعدة التودد في خطاب الشكوى والعتاب	
١٤٤	خاتمة: في درجة امتثال خطاب الشكوى والعتاب لقواعد مبدأ التأدب	
١٤٦	الفصل الرابع: استراتيجيات التأدب في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس	
١٤٧	تمهيد	
١٥٠	المبحث الأول: استراتيجيات التأدب الإيجابي في خطاب الشكوى والعتاب	
١٧٠	المبحث الثاني: استراتيجيات التأدب السلبي في خطاب الشكوى والعتاب	
١٨٥	المبحث الثالث: الاستراتيجيات لا قطعية القصد في خطاب الشكوى والعتاب	
١٩٥	الخاتمة	
١٩٨	المصادر والمراجع	

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

يحمل تراثنا الأدبي العديد من مقومات الأدبية التي تثير اهتمام الباحث، بدايةً من الشعر الجاهلي الذي امتاز بخصائص أدبية مميّزة، مروراً بعصور الأدب العربي المختلفة التي نقلت لنا كتب الأدب أبرز وأهم نتاجاتها، ويرى الكثيرون أنّ الأدب في العصر العباسي كان الأكثر نضوجاً وثراءً بين العصور المختلفة؛ لاحتوائه على تجربة أدبية خاصة تمتاز بعمق المعنى والتجديد في الأفكار وتطور الأسلوب، فلا يمكن إنكار حقيقة بروز شعراء ذلك العصر كرموز للشعر العربي على مدى العصور، فشعر المتنبي الذي يراه الكثيرون أشعر العرب يعد أبرز شاهد على تميّز الشعر العربي في ذلك العصر، حتى عدّوه ذروة عصور الشعر العربي. ومن أبرز تلك الأسماء التي لمعت في العصر العباسي اسمُ أبي فراس الحمداني، الذي يدل شعره على ثراء تجربته الشعرية؛ مما يدفع الباحث لسبر أغوار هذه التجربة الفريدة.

فأبو فراس الحمدانيّ شاعرٌ من أبرز الشعراء في تاريخ أدبنا العربي؛ ذلك أنّ شعره كان يمتاز بقوة التعبير عن المشاعر التي تختلج في نفس الشاعر، وما يميز نفس أبي فراس أنها نفس كانت تحمل المشاعر المتناقضة، وهذا التناقض في المشاعر ربما نشأ بعد أن أُسر لدى الروم، فخرج لنا بقصائده التي كتبها في حال أسره تلك التي عُرفت بالروميات، وهي قصائد ومقطّعات تحمل خطاباً ملؤه الألم والأسى، الألم الذي يُنتجُ الشكوى والعتاب، فأبو فراس يشكو حاله لابن عمّه سيف الدولة الحمداني ويُعاتبه على التقاعس عن افتدائه وتخليصه من الأسر، ولكنّه في المقابل كان حريصاً ألاّ يقطع خيط صلته بابن عمه أملاً منه في نجدة قد تأتيه، وإجلالاً له بوصفه الملك الحاكم، فكان خطابه متأرجحاً بين التآدّب واللا تآدّب، وهذه الحالة المتناقضة في شعر أبي فراس الحمداني والروميات خاصة بدت لنا جديرة بأن تُدرّس في ضوء نظريات التآدّب التي يمكن لها أن تكشف عن سمات هذا الخطاب الذي ينطوي على الشيء ونقيضه والذي تتولد عنه مفارقات تلهب الشعر.

والحقّ أنّ الروميات تعد من أبرز وأشهر شعر أبي فراس الحمداني، وهذه القصائد تحمل خطاباً شعرياً مهماً، ذلك الخطاب هو خطاب الشكوى والعتاب الذي يحاول أبو فراس إظهاره وتوجيهه لسيف الدولة الحمداني، وقد اتسمت هذه العملية التواصلية الشعرية بقدر عالٍ من التآرجح بين التآدّب

واللاتأدب، وهذا الأمر يمثل ظاهرة أدبيةً فريدة تستحق الدراسة، فقررت دراستها وفق منهجية حديثة تعتمد على نظريات التأدب واللاتأدب، بغية الكشف عن سمات هذا الخطاب في المدونة المدروسة.

كما أنّ المنهج التداولي الذي نسير وفقه يُعنى بالكشف عن الدلالات السياقية للكلام، وهذا المنهج الحديث كان ثورة في حقل التحليل اللغوي، حيث لم تكن المقاربات اللغوية تراعي ظروف إنتاج الكلام، بل كانت تقارب النص بوصفه شيئاً منعزلاً عن سياقه، وهذا ما جعل المنهج التداولي الحديث يرقى بالتحليل اللغوي إلى مستويات أخرى لم تكن مكشوفة، ولهذا اخترت أن أقارب النصوص وفق هذا المنهج، إلا أنني أردت أن أطبق آخر ما توصلت إليه الدراسات التداولية في هذا المجال، فوجدت أنّ نظريات التأدب تعد من أكثر المقاربات التداولية نجاعة وحدثة، كما رأيت أنّ المدونة المختارة صالحة أن تدرس من خلال تطبيق هذه النظريات التأدبية عليها، وهذا ما جعلني أستقر على ذلك.

وفي الحقيقة فإنّ نظريات التأدب هي من النظريات الحديثة التي تنتمي للتداولية، وهذه النظريات تلقي الضوء على جانبٍ مهمٍّ من جوانب الأدب واستعمالات اللغة، فالمستوى التداولي التي تنتمي إليه هذه النظريات ينظر إلى اللغة في سياقها الاستعمالي، وهي نظرة تعدُّ ضرورية لفهم النصوص والخطابات المختلفة، ونظريات التأدب التي ظهرت في الآونة الأخيرة تدرس اللغة وسياقاتها التواصلية من جهة تأثيرها على المتواصلين، فقد بدأت هذه النظريات من غرايس وغيره من الباحثين التداوليين الذين نظروا إلى اللغة في سياقاتها.

وهكذا فإنّ نظريات التأدب تنظر إلى العملية التواصلية بوصفها ساحة لتهديد الوجوه حسب نظرية غوفمان، وكل عملية تواصلية هي بيئة خصبة لحدوث التهديدات القولية، ومن هنا ظهرت استراتيجيات وأساليب تواصلية لمهاجمة الخصوم في الخطابات المختلفة، وفي المقابل ابتكرت استراتيجيات وطقوس خاصة للحماية من هذه التهديدات التي يقوم بها المتخاطبون أثناء التواصل، ولذا انشغل علماء التأدب بهذه الظاهرة القولية ودرسوها دراسة معمّقة في النصوص المختلفة.

ونحن في هذا البحث نهدف إلى دراسة خطاب الشكوى والعتاب في شعر أبي فراس الحمداني ولاسيما روميّاته وفق هذه النظريات؛ لكي نحاول أن نكشف جوانب هذا الشعر التداولية ونبيّن قيمته التواصلية، وهذا ما سيقودنا إلى فهم ظاهرة التناقض بين التأدب واللاتأدب في هذا الشعر، وبيان الدور الذي يؤديه التأدب في خطاب الشكوى والعتاب.

وتكمن أهمية البحث في كون الموضوع المدروس ذا مركزية في النظرية التداولية الحديثة؛ حيث ينبغي لنا تطبيق النموذج التداولي التواصلي الحديث على الأدب العربي القديم كي نكشف عن التقنيات التواصلية التي استعملت فيه، فهذا الجانب لم يبحث كثيرًا في دراساتها العربية، وخصوصًا أن شعر الرومات يمثل حالة تواصلية فريدة، تعبّر عن حالة أبي فراس في محاولته أن يوازن بين احترام مكانة سيف الدولة من جهة ولومه وعتابه من جهة أخرى، وهو ما يجعلنا تلقاء موضوع جاذب للبحث والدراسة والتفسير.

والمأمول أن يكشف البحث عن الخصائص التداولية لشعر الشكوى والعتاب عند أبي فراس، من خلال دراسة شعر أبي فراس الحمداني وفق نظريات التأدب الحديثة، فمن خلال نظرية الوجه سنكشف القيمة الأدبية لهذا الشعر، والتأثير الكبير لهذا النمط من الأدب في العملية التواصلية، فكيف يقوم المعاتب بالعتاب دون أن يكون ذلك مهددًا ومريقًا لماء وجه المعاتب؟ فالحفاظ على ماء الوجه من التهديد هو هدف مهم لكل طرف في العملية التواصلية، فما هي الأمور التي يجب مراعاتها لإحداث توازن في الخطاب بين التأدب واللا تأدب؟ وكيف يمكن للمرسل أن يحافظ على هذه العملية التوازنية بطول خطابه؟ وما هي التقنيات المستعملة في الحفاظ على وجه المخاطب في خطاب مهدد بطبعه كخطاب الشكوى والعتاب؟ في هذا البحث سنحاول الكشف عن كل هذه الخصائص والإجابة عن هذه الأسئلة.

ذلك من خلال تطبيق نظريات تأدب مختلفة، كنظريات غوفمان وغرايس ولايكوف وبراون ولفنسن وليتش التأدبية؛ بغية الكشف عن مميزات شعر أبي فراس من خلال تطبيق الآليات التي جاءت بها هذه النظريات للتعامل مع الخطابات المختلفة، وتطبيق هذه النظريات يسهم في الكشف عن اتساق العملية التواصلية وتوازنها، فمدى التزام المرسل بالقواعد التي تأتي بها نظريات التأدب في العملية التواصلية يسهم في الحفاظ على العملية التواصلية من التهديدات المهددة للوجه، وهذا ما سيدرس في البحث أيضًا.

وسيكشف البحث أيضًا عن مدى تأثير شخصية المتلقي وعلاقته بالمرسل في نجاح العملية التواصلية، فالمتلقي ليس جهة مفصولة عن السياق والظروف المحيطة، فكل متلقي يمكنه أن يفرض عن المرسل عدة قواعد وتعريفات وتواضعات يخضع لها المرسل أثناء العملية التواصلية، ثم الأمر يعتمد كذلك على هوية المرسل، حيث يمكنه الالتزام بهذه التعريفات التواصلية التي يفرضها المتلقي

عليه ويمكنه الخروج عنها، وهذا الأمر يظهر لنا التأثير الذي يمكن أن يفرضه كل طرف من أطراف العملية التواصلية. وهذا ما سيسهم في التعرف على الاستراتيجيات التواصلية المستعملة في خطاب الشكوى والعتاب، من خلال استنتاج واستخراج استراتيجيات التأدب الإيجابي والسلبي التي ذكرها بروان لفنسن من المدونة المدروسة، كما سنكشف عما يميز أدبنا العربي من استراتيجيات فريدة من نوعها في مجال التأدب، فالتأدب كمنهجية للدراسة تكشف لنا عن الكثير من جوانب خطاب أبي فراس في شعره.

ينطلق بحثنا من دراسة تداولية للتفاعلات القولية في خطاب الشكوى والعتاب الموجود في المدونة المختارة بغية الوصول إلى الأساليب والاستراتيجيات التواصلية التي يمكن استعمالها في المقام، مما يسهم في الكشف عن الدلالات الخفية للنص الأدبي المدروس، وذلك من خلال معالجة النص تأدبياً على المستوى التداولي والمقامي بالاستعانة بنظريات التأدب الحديثة كنظرية الوجوه لغوفمان ومبدأ التعاون لغرايس ومبدأ التأدب للايكوف ونظرية التأدب الإيجابي والسلبي لفنسن، مع التركيز على نظرية براون ولفنسن وكتابهما (نظرية التأدب)؛ كونها النظرية الأحدث والأكثر اكتمالاً بين نظريات التأدب المذكورة.

فبالاستعانة بالعدة النظرية المذكورة يمكننا النظر للمدونة المدروسة (خطاب الشكوى والعتاب في شعر أبي فراس الحمداني) في سياقها التواصلية والمقامية للكشف عن سمات الإبداع في خطاب أبي فراس الشعري، والكشف عن أسباب وآليات تأثر هذا الخطاب من جهة اللغة والأسلوب، كما سيكشف مدى تحقيق خطاب الشكوى والعتاب لمعايير التأدب وفق نظريات التأدب الأنفة الذكر.

فإننا نهدف من خلال هذا تطبيق هذا المنهج إلى الكشف عن آليات التأدب في خطاب الشكوى والعتاب لدى أبي فراس الحمداني، ودراسة العلاقة بين الشكوى والعتاب من جهة والتأدب واللا تأدب من جهة أخرى، ونسعى لتبيين مدى تأثير أطراف العملية التواصلية في تأدبية خطاب الشكوى والعتاب، ونهدف لدراسة الاستراتيجيات التأدبية في شعر أبي فراس الحمداني للكشف عن الأساليب المختلفة للتواصل المتأدب في خطابه، وذلك من خلال نظريات التأدب الحديثة كنظريات غرايس ولايكوف وليفنسن وليتش، وبذلك نتمكن من دراسة التهديدات القولية للوجوه في خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس وكيفية تجنبها أو تعويضها.

وعند الحديث عن الإشكالية الأساسية التي يحاول هذا البحث أن يدرسها ويحلّها، تكمن إشكالية البحث في الكشف عن خصائص وآليات واستراتيجيات التأدب في خطاب الشكوى والعتاب في شعر أبي فراس الحمداني، وخصوصاً في روميّاته؛ حيث يتطلب هذا الخطاب دراسة تداولية أدبية تكشف عن تأثير السياق التواصل في أسلوب الخطاب وآلياته من خلال نظريات التأدب الحديثة، كما يجب دراسة سمات التواصل في خطاب الشكوى والعتاب ومدى تأثير أطراف العملية التواصلية في تأدية هذا الخطاب، وكيف تؤثر العلاقة بين المخاطب والمخاطب في أسلوب الخطاب وآلياته التواصلية المختلفة.

ولمناقشة هذه الإشكالية ساعتمد في هذا البحث على تطبيق نظريات التأدب التي تعد تطوراً للمنهج التداولي من خلال تطبيق نظرية الوجوه لغريس وقواعد مبدأ التأدب للايكوف ونظرية التأدب الإيجابي والسلبي لبراون ولغنس على شعر أبي فراس الحمداني، ثم المقارنة بين خصائص التأدب واللا تأدب في المدونة، لاستخلاص سمات خطاب الشكوى والعتاب فيها، ثم الخلوصل إلى النتائج النهائية للبحث.

وقبل الشروع في البحث ينبغي لي تحديد المدونة المدروسة بدقة من خلال شرح عنوان البحث؛ حتى يتمكن القارئ من بناء تصوّر سليم لما سيتم دراسته، وفي هذا الصدد يمكننا القول إنّ مدونة البحث تتمثل في شعر أبي فراس الحمداني في الشكوى والعتاب، وبالأخص ذلك الشعر الذي قاله في الأسر والمسمى بـ(الروميّات)، وستكون زاوية النظر التي على ضوءها سيتحدد اختصاص الدراسة هو (خطاب الشكوى والعتاب)، وبهذا يظهر لنا عنوان الدراسة (خطاب الشكوى والعتاب في شعر أبي فراس الحمداني)، وقد وجدت أنّ هذه المدونة المدروسة وافية. وسأعتمد على نسخة محققة من ديوان أبي فراس الحمداني بتحقيق الدكتور سامي الدهان لاستخراج الأبيات الخاصة بهذه المدونة ودراستها.

وقد قسّمت هذا البحث إلى أربعة فصول يسبقها مهاده نظري أعرض فيه ما يتعلق بنظريات التأدب ونشأتها، بالإضافة إلى بيان مفهومي الشكوى والعتاب وعلاقتهما بالتأدب، وبعده يبتدئ البحث بالفصل الأول الذي يتناول عوامل التأدب التي تؤثر في تأدية الخطاب، ثم ينتقل الفصل الثاني لدراسة وتصنيف وتحليل الأفعال المهددة لوجه المخاطب في المدونة المدروسة، وسيختصّ الفصل الثالث بدراسة خطاب الشكوى والعتاب في ضوء القواعد التي أتت بها نظرية روبين لايكوف، وفي الفصل الأخير يتم رصد ودراسة الاستراتيجيات الأدبية المختلفة التي استعملها أبو فراس في خطاب الشكوى والعتاب، وهذا هو أكبر فصول الدراسة.

وبذلك أكون قد تناولت هذا الموضوع بصورته المتصورة، وأرجو أن تكون هذه الدراسة محققة لأهدافها المطلوبة، وأن تكون وافية في تناول جميع أبعاد الموضوع المدروس.

ولا يسعني في ختام هذه المقدمة إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي العزيز الدكتور/ أحمد محمد ويس على إشرافه على هذا البحث، وعلى الاهتمام الكبير الذي وجدته منه منذ أن وطأت قدمي أعتاب الجامعة، وعلى ما أفادني به من علمٍ لم يبخل به عليّ، فقد كان لي نعم الأستاذ الناصح ونعم الأخ المعين. وأشكر أساتذتي في قسم اللغة العربية بجامعة البحرين على كلّ ما قدّموه لي طيلة فترة دراستي وإعدادي للبحث، وأخصّ منهم أستاذي الدكتور عبد الله البهلول الذي مهّد لي بمحاضراته وإفاداته القيّمة طريق الدخول لحقل اللسانيات التّأدّبية. كما ومن الواجب في النهاية أن أعترف بالفضل الكبير لوالديّ العزيزين لدعمهما وتشجيعهما المتواصلين. والله تعالى الموفق لكل خير.

المِهَادُ النَّظَرِي

- أولاً: مفهوم التأدب ونظرياته
- ثانياً: الشكوى والعتاب من منظار التأدب

أولاً: مفهوم التأدب ونظرياته

يجب أولاً البدء ببيان الجانب النظري المتعلق بالمنهج الذي سنتخذه في التحليل والدراسة، حيث إننا قد اخترنا المقاربة التداولية، ثم خصصنا منهجنا بتحديد أكبر عندما قلنا بأننا سندرس خطاب الشكوى والعتاب في ضوء نظريات التأدب؛ فحُتّم علينا أن نشرح ماهية التأدب ونظرياته التي قررنا مقارنة النصوص من خلالها.

ما التأدب؟

التأدب لغةً من الأدب، والأدب هو "الذي يتأدّب به الأديب من الناس؛ سُمّي أدباً لأنه يَأدّب الناس إلى المحامد، ويُنهاهم عن المقابح"^١، وقيل هو "أدب النفس والدّرس"^٢ و "الظرف وحسن التناول"^٣، وفي الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: (أدبني ربّي فأحسن تأديبي)^٤ أي علّمني^٥، ويقال أيضاً للبعير إذا تم ترويضه "أديب مؤدّب"^٦. فالمعنى اللغوي الجامع للتأدب يدور حول التعلم والحسن في التصرف والفعل.

أمّا في الاصطلاح، فيعرّف التأدب على أنه "كفاءة لغوية أخلاقية تمكن صاحبها من القدرة على التفاعل الناجح مع المتلقي في مختلف المواقف"^٧، وعرّف بأنه "الطرائق التي تستخدم بها اللغة في التحوّل لبيان الاهتمام بمشاعر المحاورين الآخرين ورغباتهم"^٨، وأيضاً "أن يأتي المتكلّم بفعل القول على الوجه الذي يبرز دلالاته القريبة، ويقوي أسباب الانتفاع العاجل به"^٩، أمّا جورج يول فيحاول توضيح مفهوم التأدب بقوله: "يمكن اعتبار التهذيب مبدأً ثابتاً في ثقافة واحدة... ويمكن أيضاً تحديد عدد من المبادئ العامة لتعريف (المهذّب) في تفاعل اجتماعي ضمن ثقافة معينة قد تشمل بعض هذه

^١ ابن منظور: لسان العرب، ط١، دار صادر، بيروت، ج١، دت، ص٢٠٦.

^٢ المصدر نفسه، ج١ ص٢٠٦.

^٣ المصدر نفسه، ج١ ص٢٠٦.

^٤ السيوطي، جلال الدين بن أبي بكر: الجامع الصحيح، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م، ١٤٢٥هـ، ص٢٥ رقم الحديث ٣١٠.

^٥ ابن منظور: لسان العرب، ج١ ص٢٠٦.

^٦ المصدر نفسه، ج١ ص٢٠٦.

^٧ بن عيسى، عبد الحليم: تداولية مبدأ التأدب في إنجازية الفعل الكلامي، المجلة الجزائرية للدراسات الإنسانية، العدد ١، ٢٠١٩م، ص١٩٨.

^٨ براون ولفنسن: نظرية التأدب، ط١، ترجمة: هشام الخليفة، دار كنوز المعرفة، عمان، ٢٠٢٣م، ص٢٦.

^٩ عبد الرحمن، طه: اللسان والميزان، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، دت، ص٢٢٣.

المبادئ أن يكون (المهذب) لبقاً، كريماً، متواضعاً، ومتعاطفاً مع الآخرين^١، كما أنه يمكن لنا أن نعرفه بطريقة أكثر بساطة بقولنا "أن تكون مهذباً يعني أن تتصرف بشكل مناسب".

تميل التعريفات التي عرضناها للتأدب إلى تقرير حقيقة أن التأدب ظاهرة تواصلية اجتماعية، تتعلق بشكل أساس بطريقة التواصل وكيفية، حيث تشير إلى قواعد وضوابط ومعايير تحكم طريقة أو أسلوب التواصل وتوجههما؛ والهدف من ذلك هو تسيير التواصل بصورة سلسة وسليمة وتجنب الصراع والخلاف فيه، وهذا ما اختصرناه في التعريف الأخير بعبارة (أن تتصرف بشكل مناسب)؛ فالتناسب في التصرف يعني التواصل بصورته المثلى.

وهذه التعريفات تأخذنا إلى جانب مهم من جوانب اللغة، هذا الجانب يتعلق بكون اللغة المنطوقة والمكتوبة عبارة عن عملية تواصلية بين أطراف مختلفة، هؤلاء الأطراف يحاول كل واحد منهم أن يوصل رسائله للآخرين من خلال اللغة، وهنا تظهر أهمية التصرف المناسب مع الآخر؛ لأنّ هذا الأمر يحتاج عدة أمور عرفية واجتماعية يسير وفقها أطراف العملية التواصلية للوصول لأفضل طريقة تواصل تؤدي غرضها؛ ومن هنا كان من الجدير دراسة هذا الجانب والنظريات المتعلقة به بعد بيان موجز لنشأة هذا النوع من الدراسة.

نشأة نظريات التأدب (اللسانيات التداولية)

تعد التداولية الفرع اللساني الذي يدرس اللغة في سياقاتها، حيث كانت المدارس اللسانية التقليدية - كالبنوية مثلاً - تركز على دراسة بنية المنجز اللغوي دون الاهتمام بالظروف والسياقات المحيطة به، وإنّ هذا النوع من الدراسة اللغوية أفاد كثيراً في الكشف عن آليات بنية النصوص الداخلية، فالمناهج التقليدية قدمت تحليلاً داخلياً للنصوص المختلفة، لكنها مع ذلك أحدثت قطيعة مع ما هو خارج النص؛ فلم تتعرض للظروف المحيطة بالمنجز اللغوي؛ وبذلك ظلت جوانب واسعة من هذه النصوص غائبة ومخفية، إلى أن جاءت المدرسة التداولية التي خرجت على يد فلاسفة اللغة؛ فسلطت الضوء على ما أغفلته المدارس اللسانية التقليدية، فكان الاهتمام منصباً في هذه المدرسة على دراسة الظروف المحيطة بالنص وسياقاته، هذا ما عدّ مكملاً للدراسة البنوية والأسلوبية، فحينما يؤثر السياق

^١ يول، جورج: التداولية، ترجمة: قصي العتاي، ط١، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٠م، ص٩٨.

في تحليل النص نجد بأننا نخرج بنتائج جديدة وقيمة، فكل نص نجد أنه مربوط بسياقه؛ وهنا تبرز أهمية دراسة السياق.

السياق في الدراسة التداولية

للسياق دورٌ مركزيٌّ في العملية التواصلية؛ فهو الذي يميز الخطاب التواصلية عن غيره، فالتواصل هو عملية سياقية بامتياز؛ لأن التواصل يكون معتمدًا على السياق في أداء وظيفته، فكل عملية تواصلية تحتاج إلى سياق خاص فيها حتى تكتمل، وبما أنَّ الدراسة التداولية تدرس اللغة في الاستعمال، فهي تدرس اللغة التواصلية؛ ومن ثمَّ تدرس السياق، وإنَّ النظر في سياقات النصوص والخطابات يكشف لنا الكثير من دلالات هذه النصوص والخطابات وآلياتها؛ لأنَّ السياق هو أداة مهمة في إنتاج المعنى النهائي المراد إفهامه للمتلقي، كما أنَّ السياق يحمل في ذاته قدرة تعبيرية و تواصلية يمكن توظيفها في الخطاب؛ وهذا مما يبرر الاهتمام الكبير بدراسة السياق في أي عملية تواصلية.

كما إنَّ للسياق أنواعًا مختلفة، وكل نوع من أنواعه يؤثر بشكل ما في إيصال المعنى في الخطاب، ويمكننا تقسيم السياقات في النصوص الأدبية إلى سياقات داخلية وأخرى خارجية، فالسياقات الداخلية تمثل السياقات اللغوية في ذات النص^١، ولكي نفسر جملة من نص ما، نحتاج في كثير من الأحيان أن نحدد موقعية هذه الجمل في النص، كذلك لكي تعطي هذه الفقرة دلالتها الكاملة، عليها أن تتموقع في مكان خاص لها في النص، وحتى أصغر وحدة لغوية ذات معنى وهي الكلمة تتأثر بسياقها اللغوي في النص، وهذا المستوى من السياق يدرس بشكل خاص في كل من علم المعاني ولسانيات النص والأسلوبية.

أما السياقات الخارجية فهي التي تؤثر من خارج الخطاب، والتي منها^٢:

أ- السياق الاجتماعي

للسياق الاجتماعي أهمية كبيرة في تحديد دلالات الخطاب، فالخطاب لكونه عملية تواصلية؛ فهو بالتالي عملية اجتماعية بامتياز، فكل معطى اجتماعي لا بد أن يؤثر بشكل ما على هذه العملية

^١ انظر أولمان، ستيفن: دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال محمد، د.ط، مكتبة الشباب، د.ت، ص ١٤٥.

^٢ انظر مختار، أحمد: علم الدلالة، ط ٥، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٦٩.

الاجتماعية^١. فالمكانة الاجتماعية لصاحب الخطاب والجو الاجتماعي الذي انطلق من خلاله والطبقة الاجتماعية التي ينتمي لها وغيرها من المعطيات الاجتماعية يمكن أن تضيف على أي خطاب جانباً من الدلالة الاجتماعية الخاصة.

ب- السياق التاريخي

إن دراسة الظروف التاريخية المحيطة بإنتاج الخطاب لها أثر كبير في تحليله وكشف دلالاته الخاصة^٢، فكل حقبة تاريخية لها مميزات خطابية خاصة تختلف بها عن غيرها، فكل حقبة تاريخية معجمها الخاص وأساليبها الخاصة ومستواها الثقافي الخاص وحالتها الاجتماعية الخاصة، كل هذه الجوانب جديرة بأن يؤخذ بعين الاعتبار أثناء النظر إلى أي خطاب؛ لأنه لا يمكن أن يخرج أي خطاب عن الإطار التاريخي الذي أنتج فيه.

ج- السياق العاطفي

كما أنّ دراسة الانفعالات البشرية التي يمر بها منتج الخطاب يمكن أن تدلنا على الكثير من دلالات ذلك الخطاب، فالانفعال حالة بشرية تؤثر في نظرة الإنسان وأفعاله^٣، وعملية إنتاج الخطاب هو فعل إنساني خاضع للمعطيات النفسية والعاطفية والانفعالية كما غيره من أفعال الإنسان الأخرى، فما يقوله الإنسان في حالة الغضب يختلف عما يقوله في حالة العشق مثلاً؛ فبالطبع تكون هذه الجوانب مؤثرة في شكل الخطاب ودلالاته وأسلوبه.

د- السياق الثقافي

تعد الثقافة التي ينتمي لها الخطاب من أشد المؤثرات في الخطاب، فالثقافات البشرية المختلفة التي تشمل الاعتقادات والأيدولوجيات والديانات والأفكار التي تعتنقها الشعوب وتؤمن بها هي من أبرز ما يحدد دلالات وأسلوب ووجهة أي خطاب، فالخطاب الذي ينتمي لثقافة إسلامية مثلاً نجده يختلف في كثير من جوانبه عن الخطاب ذي الخلفية الثقافية الغربية أو الشيوعية أو الهندوسية أو غيرها، فالثقافة عامل مهم في تحديد دلالات كل خطاب^٤.

^١ انظر أولمان، ستيقن: دور الكلمة في اللغة، ص ١٥٦.

^٢ انظر المصدر نفسه، ص ١٥٥.

^٣ انظر مختار، أحمد: علم الدلالة، ص ٧٠.

^٤ انظر المصدر نفسه، ص ٧١.

هـ- السياق الحالي

ويمكن أن نعبر عنه بـسياق الموقف أيضًا، وهو السياق القريب والضيق الذي يحيط بالخطاب، وهو يشير إلى الظروف الخاصة التي أحاطت بهذا الخطاب دون غيره^١، فكل خطاب هو وليد زمانه ومكانه الخاص، فالأحداث التي تحيط مباشرة بزمن إنتاج الخطاب لها أثر في تشكيله، فالخطاب الصادر في ظرف زمني ومكاني محدد كإحدى معارك الحرب العالمية الأولى على الحدود الألمانية مثلًا يختلف عن الخطاب الصادر في ظرف آخر كموعده غرامي بين رجل ومحبوبته على ضفاف أحد أنهار سويسرا، وهذا ما نشير إليه بتأثير السياق الحالي^٢.

من السياق إلى التأدب

برز مؤخرًا منهج في الدراسات النقدية يعرف بالمنهج التداولي، يقوم هذا المنهج على دراسة السياق في الخطابات المختلفة، فهو يهتم بدراسة هذا الجانب من الخطاب، ولقد تطوّر هذا المنهج إلى أن أخذ يتعمق في السياقات الخاصة بكل منجز لغوي، فكان التركيز على خاصية التواصلية التي يحملها أي خطاب، ذلك بناءً على أنّ هذا الخطاب هو ممارسة اجتماعية، فإنّه يُنظر إلى الممارسات الخطابية -التي من خلالها تنتج النصوص (تنشأ) وتستهلك (تتقبل وتتأول) على أنّها شكل مهم من أشكال الممارسة الاجتماعية التي تساهم في تكوين العالم الاجتماعي الذي يتضمن الهويات الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية^٣. ولأنّ التأدب من الجوانب الاجتماعية المهمة التي تظهر في الخطاب؛ برزت دراسات تداولية اتجهت اتجاه دراسة الجانب التأدبي في عمليات التواصل، هذا الجانب الذي يهتم بدراسة العلاقة بين أطراف العملية التواصلية في الخطاب التواصلية، وسعى المشتغلون بهذا النوع من الدراسة إلى وضع نظريات تضبط وتؤطر دراسة عملية التأدب في الخطاب. وهذه النظريات أعطت زاوية نظر جديدة للنصوص الأدبية القديمة منها والحديثة؛ حيث لم يكن يُنظر لهذا الجانب من قبل في الدراسات النقدية التقليدية، ومن هنا يمكننا أن نقول أنّ نظريات التأدب أضحت تمثل منهجًا نقديًا حديثًا

^١ انظر مختار، أحمد: علم الدلالة، ص ٧١.

^٢ انظر السعران، محمود، علم اللغة، ط ٢، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٣١١.

^٣ يورغنسن وفيليبس: تحليل الخطاب: النظرية والتطبيق، ترجمة: شوقي بوعناني، ط ١، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، ٢٠١٩م، ص ١٢٤-١٢٥.

يساعد على تحليل النصوص الأدبية بشكل جديد ومن زاوية جديدة. وهناك خمس نظريات تمثل تطور هذا المجال في الدراسات اللسانية والنقدية الحديثة، هذه النظريات يمكننا أن نلخصها بالتالي:

١- مبدأ التعاون

إن من أهم المبادئ النظرية التي عالجت مسألة المحادثة والتواصل وأقامت المعايير لكل منهما هو مبدأ التعاون الذي جاء به فيلسوف اللغة الكبير بول غرايس، والذي مفاده "اجعل إسهامك التخاطبي كما يتطلبه - عند المرحلة التي يحدث فيها - الغرض أو الاتجاه المقبول لتبادل الكلام الذي تشارك فيه"^١، فوضع غرايس لهذا المبدأ قواعد تخاطبية يقيس بها مدى التوافق في العملية التواصلية، وهي مجموعة من القواعد التي يجب مراعاتها عند التواصل لغرض الوصول إلى أقصى درجات التوافق والترابط والتفاهم بين المتخاطبين، فهو يرى أن المحادثة لها قواعدها التي تضبطها وتوجه دلالتها^٢، وهذه القواعد إن أهملت من قبل أحد أطراف العملية التواصلية سيكون ذلك مؤثرًا بشكل كبير في دلالات الخطابات.

لكي نعرف كيف يسير الخطاب كما ينبغي يجب أولاً تحديد الأهداف من الخطاب، ثم علينا أن نراعي هذه الأهداف في التخاطب، فيبني كل طرف من أطراف التخاطب توقعاته بناءً على الهدف المشترك الذي يسيرون لأجله، وهذا من شأنه أن يضبط الكلام ويولد دلالات لا تظهر في الخطاب لو غاب هذا الأمر.

تتدرج تحت مبدأ التعاون أربع مقولات، وتحت هذه الأربع مقولات تتدرج القواعد التخاطبية التي يجب مراعاتها، والمقولات هي^٣:

أ- مقولة الكم:

وهي المقولة التي تهتم بكمية المعلومات التي ينبغي توفيرها في التخاطب، وتتفرع إلى قاعدتين:

^١ إسماعيل، صلاح: نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، ط١، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٨٧.

^٢ انظر ختام، جواد: التداولية أصولها واتجاهاتها، ط١، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ٢٠١٦م، ص١٠١.

^٣ انظر إسماعيل، صلاح: النظرية القصدية في المعنى عند غرايس، حويلات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الخامسة والعشرون، ٢٠٠٥م، الرسالة ٢٣٠، ص٨٨.

- اجعل مساهمتك في الخطاب متوفرة على القدر المطلوب من المعلومات.
- لا تجعل مساهمتك في الخطاب تتوفر على أكثر مما هو مطلوب من المعلومات.

ب- مقولة الكيف:

القاعدة الرئيسية في هذه المقولة هو أن تكون مساهمتك صادقة، وتتفرع من هذه القاعدة قاعدتان:

- لا تقل ما تعتقد أنه كاذب.
- لا تقل ما لا تملك دليلاً كافياً عليه.

ج- مقولة الإضافة أو النسبة:

هذه المقولة تحتوي على قاعدة واحدة مهمة وهي (قل ما له صلة بالموضوع)، فيجب أن تكون مساهمة الفرد ملائمة للموضوع المتحدث عنه.

د- مقولة الجهة أو الطريقة:

هذه المقولة تختلف عما قبلها بأنها لا تهتم بالمقول نفسه، بل يكون الاهتمام فيها منصباً على الطريقة أو الكيفية التي ينبغي بها قول ذلك القول، وقاعدتها العامة هي (كن واضحاً)، وتتفرع منها قواعد أخرى:

- تجنب غموض العبارة.
- تجنب اللبس.
- كن موجزاً، وتجنب الإطالة غير الضرورية.
- كن منظماً.

إن الالتزام بهذه القواعد التخاطبية أمر لا شعوري عند المتخاطبين، كما أنهم يتوقعون -لا شعورياً- أن يكون الطرف الآخر في التخاطب ملتزماً بهذه القواعد والضوابط، فأياً طرف من أطراف التخاطب يتوقع ألا يقول الطرف الآخر ما ليس له صلة بالموضوع، وأن تكون المعلومات في مقولته غير زائدة أو ناقصة عما هو مطلوب منه، وأن يكون القول صادقاً وواضحاً لا لبس ولا غموض فيه.

فعندما يقوم المتكلم بخرق أحد هذه القواعد يكون هذا الأمر خرقاً لمبدأ التعاون، فمثلاً لو جاء المتكلم بقدر من المعلومات أكثر مما هو مطلوب منه يكون كلامه خرقاً للمبدأ، وهذا الخرق قد يكون له دلالة أخرى عند المتلقي، فلو سأل رجل رجلاً آخر: (إلى أي دولة سافر والدك؟)، فأجابه: (سافر

إلى أحد الدول (الأوروبية)، تكون الإجابة خرقاً لمقولة الكم، فالمتكلم أتى بما هو أقل من المطلوب، فالسائل أراد تحديد الدولة والمجيب لم يحددها، فيعد هذا خرقاً لمبدأ التعاون في الظاهر، وهنا يمكن أن يكون لهذا الأمر دلالة يمكن للمتلقي استنباطها، فيفترض بأن المجيب قد راعى قواعد مبدأ التعاون، وأن هذا الخرق يمثل رسالة تعتمد على السياق، بحيث يقصد المتكلم من عدم تحديد الدولة أمراً ما يحدده السياق، فمثلاً قد يكون المجيب غير راغب في تحديد الدولة، وهذه رسالة للسائل بأن يحترم خصوصيته، أو قد يكون المجيب جاهلاً باسم الدولة، أو لا يتقن نطق اسمها جيداً، أو أن المجيب يفترض أن السائل غير مهتم بالتحديد لأن غرضه من السؤال لا يتحقق إلا بمجرد تحديد المنطقة لا الدولة وإن كان سأل عن الدولة بالتحديد، فعندما يحدث الخرق لمبدأ التعاون تبرز احتمالات أخرى تجعل لهذا الخرق دلالة أخرى، وهذا يسمى بـ(الاستلزام الحواري) أو (التضمين الحواري)^١. فعند خروج الخطاب عن مبدأ التعاون الحواري ظاهراً نلجأ إلى افتراض أن المتكلم يحترم ويلتزم بمبدأ التعاون، فنقوم بافتراض معانٍ إضافية لتصحيح كلامه، فهذا هو الاستلزام الحواري الذي نلجأ له لتحديد مدلولاته من خلال السياق أو المعرفة والخبرة التخاطبية المشتركة بين المتكلم والمتلقي، حيث "يسمح للمخاطب بأن يتجاوز المعنى الحرفي ليقوم بدلالة غير مباشرة ممكنة"^٢.

وفي حالات أخرى قد لا يكون الاستلزام الحواري حاضراً، ويكون الخرق حينئذٍ فعلياً، فقد يقول المتكلم ما لا يعتقد بأنه صحيح، ويكون متعمداً قاصداً لهذا الأمر، ففي بعض الحالات هنا لا يمكن للمتلقي أن يفترض استلزاماً حوارياً، فيكون ذلك خرقاً فعلياً لقاعدة الكيف في مبدأ التعاون الحواري، وبذلك يخرج الكلام عن أهلية التخاطب السليم. وفي حالة أخرى قد يكون الاستلزام الحواري طريقاً للتضليل، فيتعلم المتكلم إيهام المتلقي باستلزام حوارى غير صحيح، فمثلاً لو سأل أحدهم: (أين يمكنني أن أحصل على كتب تتحدث عن التداولية؟)، فيجيبه آخر: (تقع المكتبة العامة في نهاية هذا الشارع)، فالسائل لم يسأل عن موقع المكتبة العامة وإنما عن كتب التداولية، ولكن المجيب أراد أن ينشئ استلزاماً حوارياً مفاده أن الكتب التي تبحث عنها موجودة في المكتبة العامة التي في نهاية الشارع، لكن في حقيقة الأمر قد لا تكون كتب التداولية متواجدة في تلك المكتبة المقصودة؛ فيكون الاستلزام الحواري

^١ انظر مجيد الماشطة وأحمد الركابي: مسرد التداولية، ط١، دار الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٨م، ص٨٨.

^٢ بلانشيه، فيليب: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ٢٠٠٧م، ص٨٥.

هنا مضملاً؛ لأنّ المجيب أراد إيهام السائل بوجود تلك الكتب في المكتبة العامة دون اللجوء للكذب الصريح في كلامه^١.

٢ - مبدأ التواجه

التأدّب والوجه

التأدّب ظاهرة اجتماعية تتعلق بالتصرف والسلوك الأمثل الذي يستحسن من أي فرد في أي تفاعل اجتماعي أن يسلكه، وعرف بأنه الوسيلة المستخدمة لبيان إدراك الآخر للوجه^٢، والتعريف السابق يحيلنا إلى مصطلح آخر ذي مركزية في التأدّب هو (الوجه)؛ فلن نتكّن من فهم التأدّب ونظرياته من خلال التعريف الأخير إلّا بعد فهمنا لمفهوم الوجه، والوجه هو مصطلح جاء به عالم الاجتماع الأمريكي إرفنغ قوفمان، وعرفوه بأنه "الصورة الشخصية الهامة للمتكلّم"^٣، فهي صورة الذات التي يتوقع الفرد من الآخرين إدراكها واحترامها وتقديرها، فكل متكلّم يسعى لصيانة صورته الشخصية وحفظها وحمايتها، ويريد من الآخر ألا يخدش هذه الصورة.

وتؤثر المسافة الاجتماعية بين أطراف التواصل في تحديد الكيفية التي يمكن بها صيانة الوجه، فالعلاقة بين أستاذ كبير مع طالب مبتدئ تحكمها قيود أكثر من العلاقة بين شاب مراهق وصديقه التي تكاد تخلو من القيود، فالعلاقة الأولى تقتضي أن يقوم الطالب باستعمال صيغ الاحترام والتبجيل في خطابه مع الأستاذ، بينما في الحالة الثانية قد يبدو استعمال مثل هذه الصيغ غريباً وغير مناسب عادة - وإن لم يؤد إلى خدش صورة الآخر -، فالمسافة الاجتماعية بين المتخاطبين تفرض نمطاً خاصاً في الخطاب، تؤدي مخالفته إلى خدش صورة الآخر وتهديدها؛ وبالتالي إلى الخروج من حالة التأدّب إلى اللاتأدّب.

إنّ نصل إلى حالتين من الخطاب يمكن ضبطهما باصطلاحين مهمّين في هذه النظرية، الأول هو (تهديد الوجه) الذي يشير إلى ما يحدث عندما يقوم المتكلّم بتهديد توقعات الآخر بخصوص حاجات

^١ انظر أن روبول وجاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ط١، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٣م، ص٦٠-٦٢.

^٢ انظر المشطة والركابي: مسرد التداولية ص١٠٤.

^٣ انظر المرجع نفسه، ص١٠٤.

صورته الاجتماعية، والثاني هو (حفظ ماء الوجه) الذي يشير إلى مراعاة الصورة الاجتماعية للآخر من خلال تخفيف أي تهديد محتمل لصورته الاجتماعية، وهذا التخفيف له عدة طرق واستراتيجيات وضعت واستخلصت لهذا الغرض.

أنواع الوجه

يقسم بنلوب براون وستيفن لفنسن حاجات كل طرف في العملية التواصلية إلى قسمين، القسم الأول يتعلق بحاجة المتكلم إلى احترام وتقبل الآخرين له؛ فالمتكلم يتوقع من الآخرين أن يثمنوا ذاته ويقدروها، كما ينتظر منهم أن يعاملوه بود وألفة كونه قريباً منهم، وهذا القسم أطلق عليه مصطلح (الوجه الإيجابي)^١، أما القسم الثاني فهو الذي يتعلق بحاجة كل طرف من أطراف العملية التواصلية إلى الاستقلال وحرية الاختيار وعدم سيطرة أي طرف آخر عليه، واصطلاح على هذا القسم (الوجه السلبي)^٢.

فمن خلال هذا التقسيم للوجه، ارتكزت الدراسات على كل قسم منها، فابتكرت استراتيجيات وسبل للحماية من تهديد كل نوع من الوجه، فاستراتيجيات الحماية من تهديد الوجه الإيجابي تركز على حماية وصيانة طرف التواصل من أي شيء يمكن أن يحط من مقامه أو ينزل من كرامته أو يقلل من احترامه، فمثلاً يمكننا استعمال صيغ التجيل في الخطاب لتخفيف أي كلام يمكن أن يمثل تهديداً لوجه المخاطب الإيجابي، فبدلاً من مناداة الشخص باسمه، يمكننا استعمال صيغة (سيدي المحترم) مثلاً، بحيث يحفظ ذلك وجهه الإيجابي.

وكذلك بالنسبة لوجه المخاطب السلبي، يمكن صيانته وحفظه باستعمال استراتيجيات خاصة لحفظ الوجه السلبي، منها مثلاً تخيير المخاطب بالاستجابة للطلب من عدمها بدلاً عن توجيه الطلب إليه مباشرة بصيغة الأمر المباشر، فلو أراد شخص من آخر مساعدة في حل مسألة رياضية فقال له: (أعطني إجابة المسألة)؛ لكان هذا الخطاب مهدداً لوجه المخاطب السلبي؛ لأنه قد فرض عليه إعطاء إجابة المسألة، لكنه لو قال بدلاً عن ذلك (إن كان وقتك يسمح أرجو أن تساعدني في حل المسألة)

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ١٥٦-١٦٠. وانظر الماشطة والركابي: مسرد التداولية، ص ١٠٧.

^٢ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ١٥٦-١٦٠.

كان هذا الطلب مهذبًا وغير مهدد لوجه المخاطب السلبي، كون المتكلم قد خيّر المخاطب ولم يفرض عليه الامتثال.

وبالنظر إلى أن هناك طرفين في العملية التواصلية عادة، وكل طرف يحمل وجهًا إيجابيًا وآخر سلبيًا، ينبغي مراعاة كل هذه الوجوه أثناء العملية التواصلية؛ فينتج لدينا أربعة وجوه يحتاج كل طرف لمراعاتها في خطابه، وهي^١:

- الوجه الإيجابي للمتكلم.
- الوجه السلبي للمتكلم.
- الوجه الإيجابي للمخاطب.
- الوجه السلبي للمخاطب.

فمع وجود هذه الأربعة جهات التي يجب على كل طرف أن يراعيها، يصبح الكلام والتواصل المتأدب عملية في غاية التعقيد والدقة، يحتاج فيها المتكلم إلى معرفة طرق حماية هذه الوجوه الأربعة في كل تواصل حتى يصل إلى ما يمكن تسميته بالخطاب المتأدب، وهذا الأمر يعد من الجوانب المهمة التي ينظر إليها الناقد في تحليل الخطابات وفق هذه النظرية التأدبية.

وجاء بروان ولفنسن بقاعدة تأدبية مهمة للحفاظ على الوجوه أثناء التخاطب، هذه القاعدة مفادها أن السكوت وعدم التصريح بالمراد هو الحالة الأنسب والأقل تهديدًا للوجه؛ ولكن المطلوب أحيانًا يحتاج الإدلاء به لكون السكوت غير مجدٍ، فننتقل للحالة الأقل مباشرة من الإدلاء وهي التلميح الكلامي، فنلجأ للمراد بصورة غير مباشرة لا تؤدي إلى تهديد الوجوه؛ ولكن التلميح قد لا ينجح بإيصال المراد فنلجأ للصيغة المباشرة من الكلام، هذه الصيغة تكون الأشد تهديدًا للوجه؛ لذلك وجب علينا أن نستعمل وسائل تخفيفية في كلامنا المباشر بغية تخفيف حدة ذلك الخطاب، هذه الوسائل مثل العبارات المهذبة التي تسبق وت عقب الجملة ك(لطفاً، من فضلك، لو سمحت، لو تكرمت، المعذرة، عذراً) وغيرها.

إن كلما كان الخطاب أكثر بعدًا عن المباشرة، كان أقل تهديدًا وأشد تأدبًا، وكلما كان الخطاب أكثر مباشرة، كان أشد تهديدًا وأبعد عن التأدب واحتاج لاستعمال المخففات. وهذا الأمر كما مر ينطبع على الوجه الإيجابي والسلبي معًا؛ فالوجه الإيجابي للمتكلم يحفظ من خلال عدم السؤال والطلب

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ١٥٦.

المباشر؛ لأن الطلب من الآخر فيه نوع من ازدراء النفس والتقليل منها، أمّا الوجه الإيجابي للمخاطب يحفظ من خلال احترامه وتبجيله باستعمال صيغ محترمة في الخطاب.

ومن جهة الوجه السلبي للمتكلّم فإننا نحفظه من خلال عدم الطلب المباشر أيضًا؛ لأن الطلب المباشر قد يعقّبه إلزام المتكلّم برد المعروف في حال إجابة المخاطب له، وهذا الإلزام هو نوع من التقييد للمتكلّم الذي يدخل ضمن تهديد وجهه السلبي؛ أمّا المخاطب فإن وجهه السلبي يحفظ من خلال عدم إلزامه بإجابة الطلب، ويتحقق ذلك بعدم التصريح المباشر بالطلب، وكذلك باستعمال الصيغ التخيرية كالاستفهام مثلاً.

والجدير بالذكر أنّ إسهام براون ولفنسن جاء بعدد من الاستراتيجيات التي تشمل كلاً من المتكلّم والمخاطب بوجهيهما الإيجابي والسلبي؛ حيث أتت هذه الاستراتيجيات بحلول لكثير من المشاكل التواصلية التي قد تنشأ من جهة التأدّب وتهديد الوجه.

ج- مفهوم الحرم وعلاقته بالتأدّب

هناك مفهوم آخر يتصل بمفهوم الوجه جاء به قوفمان وهو (الحرم)، والذي يشير إلى المساحة الخاصة بالفرد والتي لا يحق للآخرين تجاوزها واختراقها^١، وهو ينقسم عنده إلى عدة أنواع، منها ما يتعلق بالمساحة الخاصة بالإنسان وتسمى بالحرم الشخصي، وآخر يتعلق بالملكية الخاصة التي ترجع للفرد ولا يحق لأحد التصرف فيها، وما يعنينا الاهتمام به في دراستنا للتبادلات القولية هو الحرم التواصلية الذي يتعلق بحق الفرد في عدم التعرض للتهديدات القولية، أي عدم تهديد الوجه.

فلا بد لكل مشارك في العملية التواصلية أن يراعي حرم بقية المشاركين فيها، بحيث لا يهدد وجوههم بكلام نوعي التهديد، وهذا الأمر يؤدي لاحترام حرم الآخر وعدم اقتحامه؛ وبالتالي يكون الخطاب على درجة من التأدّب. ومن هنا يظهر ارتباط مفهوم الحرم بمفهوم الوجه، وبالأخص الوجه السلبي الذي يتعلق بحرية الأفراد وحاجتهم للاستقلال.

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ٦٥.

د- أهمية التأدب في العملية التواصلية

إنّ حالة التأدب في الخطاب تجعله متقبلاً وفاعلاً، حيث يمكن للطرف المتلقي للخطاب أن يتقبل مضمون الخطاب المتأدب ويتفاعل معه، أمّا مع غياب حالة التأدب فإن الخطاب يصبح غير متقبل للطرف الآخر، وهذا ما يجعل من الخطاب عملية تواصلية غير ناجحة؛ لأنها لم تؤد غرضها، كما أنّ غياب التأدب يؤدي إلى توقف العملية التواصلية أو انحرافها، فإما أن تؤدي حالة اللا تأدب بالتواصل إلى طريق مسدود، وإما أن ينحرف التواصل إلى منازعة كلامية لا غرض لها سوى تهديد وجه الآخر، وفي كلتا الحالتين يعد التواصل فاشلاً ولم يؤد غرضه.

لذا يمكننا أن نرى أنّ للتأدب أهمية كبيرة في الخطاب بوصفه شرطاً من شروط مقبوليته عند متلقيه، ونجد أنّ الخطابات العامة والخاصة تهتم بجانب التأدب بشكل كبير، فيحاول مرسلو هذه الخطابات أن يجعلوا خطاباتهم تتسم بقدر محدد من التأدب يجعلها مقبولة عند المتلقين المفترضين لهذه الخطابات، وإلا كانت هذه الخطابات غير فاعلة وغير متقبلة.

٣- استراتيجيات التأدب

سلم التأدب

يقترح براون ولفنسن في نظريتهما سلماً لدرجات التأدب في التواصل، كل عتبة تعبر عن درجة من درجات التأدب القولي، وهذه الدرجات هي الأساس لتصنيف استراتيجيات التأدب التي أوردناها، والدرجات هي^١:

١- استراتيجيات الصمت: وهي الاستراتيجيات التي يمتنع فيها المتكلم عن الكلام المهدد؛ حيث يحمي بذلك وجه مخاطبه من التهديد المحتمل.

٢- استراتيجيات التلميح: وهي الاستراتيجيات التي تعتمد على التلميح والإيحاء بالمراد دون التصريح به، وهذه الاستراتيجيات يمكن أن تحمي وجه المخاطب والمتكلم معاً من خلال التخفيف من شدة القول المهدد بتحويله إلى تلميح بدلاً عن الإدلاء به.

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ١٥٥.

٣- استراتيجيات التأدب السلبي: وهي الاستراتيجيات التي يصرح فيها المتكلم بمراعاة الوجه السلبي للمخاطب؛ فيحاول المتكلم عدم هتك حرم الآخر وإبقاء مسافة معه.

٤- استراتيجيات التأدب الإيجابي: وهي الاستراتيجيات التي يصرح فيها المتكلم بمراعاة الوجه الإيجابي للمخاطب؛ حيث يقوم بإعلاء وحفظ ذات المخاطب وتبجيلها دفعاً لأي تهديد تجاهها.

٥- الاستراتيجيات التصريحية: وهي الاستراتيجيات التي تقوم على التصريح المباشر الخالي من المخففات؛ لكنه مع ذلك يخضع لنظام تواصل محدد يؤدي لنجاح التواصل مع القدر الضروري من مهددات الوجه.

ملخص الاستراتيجيات

يورد براون ولفنسن الاستراتيجيات التأدبية في ثلاث مجموعات^١، المجموعة الأولى تتعلق باستراتيجيات التأدب الإيجابي، الثانية باستراتيجيات التأدب السلبي، والثالثة باستراتيجيات الإنجاز غير المباشر، نوضحها في الجدول التالي:

استراتيجيات التأدب الإيجابي ^٢	استراتيجيات التأدب السلبي ^٣	استراتيجيات الإنجاز غير المباشر ^٤
إبداء الاهتمام بالآخر	كن غير مباشر	الإشارة والتلميح والكناية
بالغ في الاهتمام	استفهم واحترس	أعط دلائل الترابط
زد من إثارة الاهتمام	كن متشائماً	افترض مسبقاً
التمس التوافق	قلل الإجبار	أقصر في القول

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ٩-١٢.

^٢ انظر المصدر نفسه ص ٢٢٠-٢٦٦.

^٣ انظر المصدر نفسه ص ٢٦٧-٣٩٧.

^٤ انظر المصدر نفسه ص ٣٩٨-٤٢٣.

تجنب الاختلاف	أدّ الاحترام	بالغ في القول
افتراض الأرضية المشتركة	تقديم الاعتذار	تحصيل الحاصل
المزاح والهزل والمداعبة الكلامية	استعمال الخطاب غير الشخص	استعمل التناقضات
الاهتمام برغبات الآخر	تعميم الفعل المهدد للوجه	كن متهكماً
قدّم عرضاً	حوّل لصيغة الاسم	استعمل الاستعارات
التفاؤل في الكلام		اسأل الأسئلة البلاغية
الاشتراك في الفعالية		كن ملتبساً
تقديم الأسباب وطلبها		كن مبهمًا
افتراض التبادلية		بالغ في التعميم
تقديم الهدايا والهبات		نحّ المخاطب
		استعمل الحذف

عوامل التأدّب

وضع براون ولفنسن هذه الاستراتيجيات التأدّبية بناءً على عوامل تحدد مدى تأدّبية الفعل أو العمل الكلامي، يمكننا استنتاجها بالتالي:

- درجة حدة الفعل القولي، وهذا العامل خاضع للثقافة واللغة التي ينتمي لها أطراف العملية التواصلية.
- المسافة الاجتماعية، وهي الفجوة بين أطراف العملية التواصلية من الناحية الاجتماعية، فكلما زادت هذه الفجوة تطلّب الخطاب قدرًا أكبر من القيود ليكون متأدّبًا.

- العلاقة بين أطراف العملية التواصلية، فهذا العامل مهم جدًا في تحديد الخطاب الملائم والمتأدب بين المتخاطبين؛ حيث تتنوع العلاقات بينهم، بحيث يتطلب كل نوع نمطًا خاصًا من الخطاب حتى يكون متأدبًا^١.

٤ - مبدأ التأدب

ننتقل إلى نظرية أخرى مهمة جاءت بها الكاتبة في مجال التأدب واللسانيات روبين لايكوف، حيث وضعت ثلاث قواعد يجب مراعاتها أثناء تأدية الفعل القولي للوصول إلى حالة التأدب المطلوبة، وأسّمت هذه القواعد باسم (مبدأ التأدب)، وهذه القواعد هي:

أ- قاعدة التعفف^٢:

تقتضي هذه القاعدة ألا يفرض المتكلم نفسه على المخاطب، وذلك بالمحافظة على المسافة الاجتماعية بين الطرفين أثناء الكلام، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال عدة أمور ينبغي مراعاتها أثناء الخطاب، فيجب على المتكلم أن يجتنب أساليب وصيغ الطلب الصريح، كما لا ينبغي عليه أن يفرض على المخاطب كشف الأحوال الخاصة والأمور الشخصية التي تتعلق به، أي بعبارة أخرى، عدم محاولة دخول الحرم الخاص بالمخاطب. وهذه القاعدة يزداد الإلحاح على تطبيقها ومراعاتها في العملية التواصلية كلما زادت المسافة الاجتماعية بين المتخاطبين.

ب- قاعدة التشكك أو التخيير^٣:

تقتضي هذه القاعدة أن يقوم المتكلم بتخيير المخاطب فيما يمكن أن يتخذه أو يفعله، أي تتعلق هذه القاعدة بالتأدب السلبي الذي يراعي خيارات المخاطب وحرية الشخصية أثناء العملية التواصلية، فيجب على المتكلم أن يتجنب أسلوب التقرير ويتجه للاستفهام تاركًا للمخاطب حرية الاختيار والتفاعل، فعلى سبيل المثال بدلًا من استعمال العبارة التالية (يجب

^١ انظر باتريك شارودو ودومينييك منغو: معجم تحليل الخطاب، ط١، ت: عبد القادر المهيري وحمادي صمود، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، ٢٠٠٨م، ص ٤٢٩.

^٢ انظر عبد الرحمن، طه: اللسان والميزان، ص ٢٤٠-٢٤١.

^٣ المرجع نفسه، ص ٢٤١.

عليك رمي الورقة في صندوق المهملات)، يجب أن نقول: (ألا ترى أنه من الأفضل أن نرمي الورقة في صندوق المهملات؟)، فكلما تركنا للمخاطب حرية الاختيار كان خطابنا أكثر تأدبًا.

ج- قاعدة التودد^١:

هذه القاعدة تقتضي إظهار المودة والمحبة للمخاطب من خلال الكلام، فيجب على المتكلم أن يستعمل عبارات الصداقة والتضامن والمودة والأخوة في ثنايا الكلام، كما ينبغي عليه أن يتجنب أي أسلوب عدائي أو يظهر المخاطب كخصم أو ند للمتكم؛ لأنّ من شأن ذلك أن يؤدي لعدم التأدب في العملية التواصلية. وهذه القاعدة يمكن تطبيقها فيما لو كان المخاطب من الذين يمكن استعمال هذه الأساليب تجاهه، فلا بد أن يكون المتكلم أعلى مرتبة من المخاطب أو مساوٍ له من الناحية الاجتماعية حتى يمكنه أن يستعمل كل عبارات التودد المتاحة، أمّا لو كان المتكلم أقل مرتبة من المخاطب، فهذا سيفرض على المتكلم قيودًا أكثر في تطبيق هذه القاعدة، والغرض من هذه القاعدة هو تحسين المناخ العام للعملية التواصلية بحيث يكون التواصل مريحًا وإيجابيًا؛ وبالتالي متأدبًا.

هذه القواعد الثلاثة هي التي تضبط الخطاب المنطوق أو المكتوب رغم الاختلافات الثقافية بين الشعوب، فهي قواعد كلية عامة لا تختلف عند اختلاف اللغة أو الثقافة، وإنما ينحصر تأثير هذه المؤثرات في تحديد الأولويات لكل خطاب لا أكثر، هذا ما تذهب إليه صاحبة النظرية. وقد نقدت هذه النظرية بأنّ قواعدها لا تتكافئ ولا تتساوى في الأهمية، فأنماط الخطابات هي التي تحدد القاعدة التي يجب أن يراعيها المتكلم أثناء تأدية الخطاب، وهذا النقد وإن كان صحيحًا إلا أنه لا يقدر بأصل النظرية ولا يقلل من أهميتها في المجال.

فيمكننا أن نعد نظرية لايكوف هذه معيارًا تحليليًا لمدى تأدية أي خطاب، وهذا ما طبقه التأديبون على النصوص الأدبية، كما في مبدأ التعاون الذي عرضناه سابقًا، حيث أخضعوا كل نص لعدة معايير وقواعد للكشف عن جوانب التأدب فيه، وهذا ما سيكشف عن الكثير من خصائص هذه النصوص الأدبية.

^١ انظر عبد الرحمن، طه: اللسان والميزان، ص ٢٤٠-٢٤١.

هـ- نظرية الربح والخسارة

ينظر أستاذ اللغويات البريطاني جوفري ليتش إلى مسألة التأدب في الكلام من جهة كونها ربحًا وخسارة، فالكلام كلما زاد فيه الربح وقلت الخسارة كان أكثر تأدبًا، والعكس صحيح، إذ يقوم التأدب على قاعدتين رئيسيتين:

أ- قلل من الخسارة.

ب- ضاعف الربح.

فعبارة (أحضر لي قلمًا) أقل تأدبًا من عبارة (تناول معي هذا الطعام)؛ لأنّ العبارة الأولى تمثل خسارة للمخاطب، فهو مطالب بحكم صيغة الأمر بالاستجابة لأمر المتكلم بإحضار القلم، أمّا العبارة الثانية فهي أكثر تأدبًا لأنها تؤدي لتحقيق ربح للمخاطب، فهو هنا مدعو لتناول وجبة طعام، ومن هنا يتحقق لدينا مقياس خاص لقياس تأدبية المنجزات القولية.

وعلى هذا الأساس يأتي ليتش بست قواعد للتأدب^١، كلّ قاعدة تقتضي سلوكًا محددًا يحقق جانبًا من التأدب في الكلام، والقواعد هي:

أ- قاعدة فن التأدب أو اللباقة:

تقتضي هذه القاعدة أن يقلل المتكلم من خسارة الآخر وبالتالي يزيد من ربحه.

ب- قاعدة الجود والكرم:

تقتضي هذه القاعدة التقليل من ربح الذات وبالتالي التكثر من خسارتها.

ج- قاعدة الاستحسان:

تقتضي هذه القاعدة التقليل من ذم الآخر والإكثار من إطرائه.

د- قاعدة التواضع:

تقتضي هذه القاعدة التقليل من إطراء النفس والإكثار من ذمها.

هـ- قاعدة الاتفاق أو الموافقة:

تقتضي هذه القاعدة التقليل من الخلاف مع الآخر والإكثار من الوفاق.

و- قاعدة التعاطف:

^١ انظر ليتش، جوفري: مبادئ التداولية، ترجمة: عبد القادر قنيني، ط١، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٣، ص١٧٤.

تقتضي هذه القاعدة إظهار المودة والتعاطف مع الآخر والابتعاد عن العدائية والبرود، وتسمى أيضًا بقاعدة المشاركة الوجدانية؛ لأنها تقتضي مشاركة الذات للطرف الآخر في مشاعره.

عند التأمل في هذه القواعد سنرى أن هناك نوعًا من التقابل يجري بين بعضها، فالقاعدة الأولى (اللباقة) تتقابل مع القاعدة الثانية (الكرم)، فالأولى تقلل من خسارة الآخر وتزيد من ربحه، والثانية تقلل من ربح الذات وتزيد خسارتها، أما التقابل الثاني فنجد بين القاعدة الثالثة (الاستحسان) والقاعدة الرابعة (التواضع)، فالثالثة تقتضي التقليل من ذم الآخر والإكثار من إطرائه، بينما الرابعة تقتضي ذم الذات وتقليل إطرائها.

ولكن هذا النوع من التقابل لا يصل لحد التنافر أو التضاد؛ بحيث يحتم علينا اختيار إحدى القاعدتين المتقابلتين دون الأخرى أثناء الكلام، بل يمكننا أن نجمع كل هذه القواعد ونراعيها أثناء الكلام، إلا أن بعض هذه القواعد يكون أكثر إلحاحًا من القواعد الأخرى، وهذا الأمر يرجع لطبيعة كل لغة وثقافة ومجتمع، فبعض المجتمعات تولي اهتمامًا أكبر لقاعدة التواضع على حساب قاعدة الاستحسان مثلاً، وهذا الأمر يجب مراعاته في تحليل الكلام وفق هذه القواعد.

ثانيًا: الشكوى والعتاب من منظار التأدب

١- مفهوم الشكوى وعلاقته بالتأدب

بعد الانتهاء من عرض مفهوم التأدب ونظرياته، وهو ما يتعلّق بالمنهج الذي ستسير عليه هذه الدراسة، يجدر إيضاح بعض الأمور المتعلقة بالمدونة المدروسة من وجهة نظر نظريات التأدب، فإنّ المدونة المدروسة المختارة هي شعر أبي فراس الحمداني في الشكوى والعتاب، فزاوية النظر في هذه المدونة هي الشكوى والعتاب؛ هذا ما يدفع لدراسة أسلوب الشكوى والعتاب وفق قواعد التأدب المنصرمة الذكر بصورة منفردة عن مدونتهما قبل الشروع في الدراسة، وذلك بالابتداء بتعريفهما، ثم بيان قيمتهما التأديبية.

تعريف الشكوى

الشكوى من شكى وهي لغة الإخبار بسوء الفعل^١، فهي بعبارة أدق وأكثر تفصيلاً الإخبار بالأمر السيئة التي فعلها المخاطب أو غيره للمتكم، فالشكوى في نفسها تحمل معنىً سلبياً تجاه شخص أو شيء ما، فقد يكون المشتكى منه عاقلاً كما يشتكي الرجل للأمير من رجل آخر ظلمه أو سرقه، أو قد يكون المشتكى منه من جنس غير العاقل، كما يشتكي المريض للطبيب من مرضه، ولا يلزم أن يكون المشتكى إليه طرفاً ثالثاً غير المشتكى منه، بل قد يكون المشتكى منه هو ذاته المشتكى إليه، فكل حالة من هذه الحالات تحمل في ذاتها بعداً تأديبياً خاصاً.

الشكوى في ميزان التأدب

فالحالة الأولى التي يكون فيها المشتكى منه عاقلاً هي الحالة الأكثر تهديداً للمخاطب، وخاصة إن كان هو ذاته المشتكى إليه كما ذكرنا؛ لأن المخاطب هو ذات عاقلة تتأثر بالكلام، فالتهديد الكلامي يتوجه إليه مباشرة، وهذه الحالة تحتاج من المتكلم أن يحف شكواه بالأساليب والأدوات التي يحاول بها أن يخفف من حدة تهديد الخطاب، ولكن هذه الأساليب لا تلغي التهديد الفعلي لخطاب الشكوى، وإنما تخففه وتجعله أقل تهديداً للمخاطب، فمثلاً عندما يريد العبد الأجير أن يشتكي من بخل سيده فيقول له: (أنت بخيل لا تعطيني ما يكفي من الأموال)، فهذا تهديد مباشر قد لا يتقبله السيد من عبده، فيلجأ العبد لاستعمال أسلوب أقل مباشرة يشفعه بالمدح والثناء فيقول: (الأحرى بسيد كريم مثلك ألا يترك عبده جائعاً لا يملك ما يكفيه من الأموال)، فلما كانت العبارة الثانية أكثر تأديباً وأقل تهديداً قد يتقبلها السيد من عبده مع كونها مهددة له.

إن استعمال هذه المخففات ليس أمراً مطلوباً في كل حال، بل في بعض الحالات قد يحتاج المتكلم أن يبلغ المخاطب بشكواه مباشرة، وهذه الحالة تكون عندما لا يخشى المتكلم من سطوة المخاطب وردة فعله، فلكل موقف يستعمل المتكلم الأسلوب الذي يناسبه، وهذه الحالة التي يبلغ فيها المتكلم المخاطب بشكواه منه يجب أن يكون تعامل المتكلم فيها حذراً إلى أبعد درجة؛ لأن الخطاب يفسر غالباً بأنه تهديد للمخاطب، فلا يمكن للمتكم تجاوز حقيقة الطبيعة المهددة لخطاب الشكوى في هذه الحالة؛ ولذلك

^١ انظر الرازي، محمد بن أبي بكر: مختار الصحاح، د. ط، تدقيق وإخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان ناشرون، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦م، ص ١٤٥.

يستعمل المتكلم شتى الطرق لتقليل تهديد هذا الخطاب المهدد بطبيعته، وهناك العديد من الاستراتيجيات التي تسهم في ذلك استقصيتها من كلام المتكلمين.

أساليب عامة لتخفيف تهديد خطاب الشكوى:

أ- تعميم خطاب الشكوى

يمكن تخفيف خطاب الشكوى بإيراده بصورة التعميم، فبدلاً من أن يوجه المتكلم الخطاب إلى مخاطب خاص، يمكنه أن يورده بصيغة العموم، هاك هذه الأمثلة المتعلقة بظلم مدير العمل لأحد الموظفين بإنقاص أجره المستحق:

نموذج (أ): أنت ظلمتني.

نموذج (ب): لقد ظُلمت.

نموذج (ج): تعرّضت للظلم.

من خلال هذه النماذج نرى بأن الخطاب يختلف في حدة تهديده بين كل مثال والآخر، فالنموذج (أ) يشير فيه المتكلم للمخاطب مباشرة ويوجه خطابه إليه بصورة خاصة، وبهذا يكون هذا الخطاب شديد التهديد، مما يدفع المخاطب إلى مزيد من تصعيد الخطاب؛ وبالتالي ازدياد التوتر في الاتصال. أما في النموذج (ب) فنرى بأن المتكلم بنى خطابه للمجهول، فلم يحدد فاعل الظلم، بل جعله مجهولاً، وهذا يسهم في تخفيف تهديد الخطاب من خلال عدم تعيين الفاعل بالمخاطب، وهذا الأمر يفرض عدة احتمالات بهوية الفاعل للفعل المشتكى منه. والنموذج (ج) يظهر درجة أعلى من التأدب في الخطاب، حيث تجاهل الإشارة إلى الفاعل من الأساس، بحيث حوّل الفعل المشتكى منه إلى اسم ليباعد عن ذكر الفاعل حتى بصورة المجهول.

ب-التلميح من خلال الاستلزام الحواري

إنَّ الاستلزام الحواري يشير إلى تجاوز المعنى الحرفي الظاهري للخطاب، ومحاولة تفسيره من خلال قواعد عقلية منطقية وعرفية لغوية لدى كلِّ من المتكلِّم والمخاطب^١. والاستلزام كعملية عقلية هي ظاهرة تحدث بشكل طبيعي ولا إرادي بين المتخاطبين، ولأنها عملية تحتاج إعمال العقل والمنطق للوصول للمعنى المراد من الخطاب، يجعل هذا الأمر الخطاب ذا وجهين، الوجه الأول ظاهري حرفي، والوجه الثاني باطني عقلي، ويمكن للمتكلِّم استثمار هذا الأسلوب للتقليل من تهديد الخطاب عبر تأليف الخطاب بكيفية تجعل المعنى المهدد للوجه يكون مستلزمًا في الخطاب، استكمالًا للأمثلة السابقة لو افترضنا أنَّ موضوع تخفيض الأجور قد طرح أمام المدير والموظفين، والنماذج التالية تمثل رد الموظف الذي يشعر بالظلم:

نموذج (د): لا أشعر بالرضا التام حيال هذا الأمر.

نموذج (هـ): التكلّم في هذا الموضوع يشعرني بالحزن.

نموذج (و): أفضل عدم التحدث في هذا الموضوع.

إنَّ النماذج السابقة كلها تتوسل الاستلزام الحواري لتقليل شدة تهديد خطاب الشكوى، ولكن كل واحد من هذه النماذج يمثل مستوىً من مستويات التأدُّب باستعمال تقنية الاستلزام، فالنموذج (د) يشير إلى عدم رضا المتكلِّم عن موضوع تخفيض أجره؛ وبالتالي هذا يستلزم كونه تعرض للظلم من مديره بخصوص هذا الموضوع، ولكنه لم يصرح بهذا المعنى، بل ألمح إليه من خلال إعلانه عدم رضاه، فيبقى الخطاب مهددًا من جهة الاعتراض وإعلان عدم الرضا، أمّا النموذج (هـ) فقد عبّر المتكلِّم فيه عن حزنه عند التكلّم في هذا الموضوع، والحزن حالة شعورية لا تستلزم الاعتراض، وإنما هي نتيجة لأمر ما أدّى لوقوع الحزن، وبالطبع يفهم المخاطب أنَّ الحزن عند التكلّم في الموضوع المتكلِّم فيه يجعل من هذا الموضوع سببًا في الحزن؛ وبالتالي نعرف من خلال السياق أنَّ الحزن كان نتيجة ظلم تعرض له المتكلِّم، فهنا احتاج الأمر كلفةً وعناءً كبيرين للوصول إلى المعنى المهدد للوجه؛ لذلك كان هذا الخطاب أعلى تأدُّبًا من النموذج السابق، والنموذج (و) يمثل أعلى درجات التأدُّب باستعمال الاستلزام الحواري، حيث يخبر المتكلِّم مخاطبه بأنّه لا يرغب في التكلّم في الموضوع، وعدم الرغبة في

^١ انظر بلانشيه، فيليب: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ص ٨٤-٨٥.

التحدث في موضوع ما بعد ذاتها لا تدل على شكوى، فيمكن أن تكون هناك عدة أسباب تجعل المتكلم غير راغب في التحدث، ولكن من خلال سياق الكلام نستخلص بأن الحديث في هذا الموضوع يصيب المتكلم بحالة انزعاج، هذه الحالة يمكن ترجمتها بأنها نوع من الشكوى تجاه الموضوع المطروح، فهذا يدل بالتالي على شكوى المتكلم من مسألة تخفيض الأجور التي هي محور الحديث، وهذه الشكوى كما نرى ملمح إليها ولا تشير إلى أي فاعل بصورة مباشرة، بل يوصلنا التحليل العقلي لهذه العلامات السياقية إلى الشكوى من تخفيض الأجور الذي سببه المدير. وبالتالي كان هذا النموذج هو الأقل تهديدًا للوجه والأكثر تأدبًا.

هذان الأسلوبان اللذان عرضناهما يمثلان -في الغالب- الطريق الذي يجب أن يسير عليه صاحب خطاب الشكوى لكي يحافظ على درجة عالية من التأدب في الخطاب، وتتدرج تحتها العديد من الاستراتيجيات التأدبية التي يستغلها منتجو الخطاب لتجنب التهديد، وسنعرض لهذه الاستراتيجيات بالتفصيل عند تناول المادة المدروسة.

٢- مفهوم العتاب وعلاقته بالتأدب

تعريف العتاب

العتاب لغةً من العتب وهو بمعنى الموجهة واللاملة^١، ويقال (عتب عليه) أي وجد عليه^٢، والعتاب هو "مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجهة"^٣. يأخذنا هذا التعريف إلى مفردتين جديدتين هما (الإدلال) و(الموجهة)، فالإدلال "هو المؤاخذة والاجترأ"^٤، والموجهة هي "الغضب والسخط"^٥، ويعطي الشيخ حسن المصطفوي تعريفًا جامعًا للعتاب حيث عرفه بأنه "توجيه قول إلى شخص بعنوان لوم وذم على ما صدر منه، بالشدة والغلظة"^٦.

^١ الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، ط١، صححه: إبراهيم شمس الدين، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٢٠١٢م ١٤٣٣هـ، ص٨٠٣.

^٢ الرازي: مختار الصحاح، ص١٨٣.

^٣ المصدر نفسه، ص١٨٣.

^٤ المصطفوي، حسين: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ط١، مركز نشر آثار العلامة المصطفوي، طهران، ١٣٨٥ش، ج٨ ص٢٣.

^٥ المرجع نفسه، ج٨ ص٢٤.

^٦ المرجع نفسه، ج٨ ص٢٤.

يظهر من التعريف اللغوي لمفردة العتاب أنه أسلوب تهجمي شديد التهديد، فلو ركزنا على التعريفات السابقة للعتاب سنجد حقلاً دلاليًا سلبيًا مكونًا من (اللوم / الذم / الشدة / الغلظة / الغضب / السخط / المؤاخذة / الاجترأ / الموجدة)، هذا الأمر يدفعنا إلى الحكم على العتاب بأنه أسلوب بعيد كل البعد عن حالة التأدب، فالطبيعة الأولية للعتاب تستدعي قدح الآخر وذمه والتهجم عليه، وهذا الأمر لا يمكن أن يكون أمرًا مهذبًا، بل من شأنه أن يقلل من صورة الآخر ويحط من مكانتها، أو بعبارة أخرى أكثر علمية، إنّ أسلوب العتاب في طبيعته أسلوب مهدد للوجه.

علاقة العتاب بالشكوى في سياق التأدب

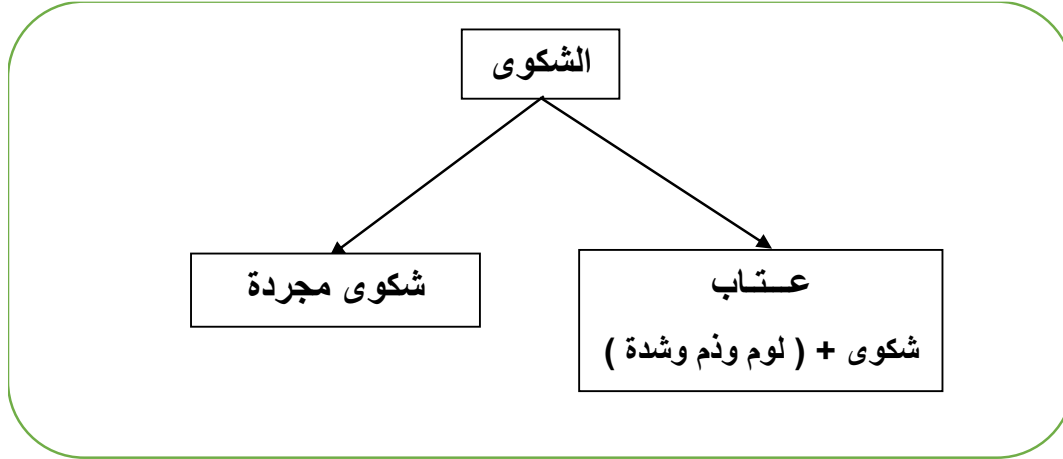
بالمقارنة بين العتاب والشكوى، نجد أن العتاب أكثر تهديدًا من الشكوى، حيث إنّ للشكوى حالات متعددة قد لا يكون بعضها مهذبًا بشكل كبير للمخاطب، أما العتاب فهو حالة واحدة يكون فيها المخاطب هو المعاتب لا غير، كما أنّ الشكوى قد لا يظهر فيها الذم المباشر للمخاطب حتى ولو كان هو المشتكى منه، إلا أنّ العتاب ذم مباشر وشديد موجه للمخاطب؛ لذلك كان أسلوب العتاب أشد صراحة في ذم وتهديد الآخر، فالغلظة والشدة من السمات التي عرّف بها العتاب دون الشكوى.

يفترق العتاب عن الشكوى أيضًا بخصوصية اللوم، فاللوم لا يكون إلاّ تجاه عمل سيء قام به الملموم عن عمد وقصد، فلا يمكن توجيه العتاب واللوم تجاه شخص قام بعمل سيء من غير عمد، ففي اللوم تحميل للآخر مسؤولية ذاك الفعل السيء الذي قام به، أما الشكوى قد تكون تجاه من هو غير متعمد؛ لأنّ الشاكي قد يشكو مما وقع عليه من ضرر جزاء ذلك العمل السيئ غير المقصود، فليس ضروريًا أن يحمل أسلوب الشكوى المسؤولية للمشتكى منه؛ لذلك يختص العتاب بهذه الخصيصة التي تستدعي شدة أكبر في الخطاب؛ وبالتالي تهديدًا أكبر للوجه.

إنّ العلاقة بين الشكوى والعتاب هي علاقة العموم والخصوص المطلق^١ كما يقول المنطقة، فالشكوى أعمّ من العتاب؛ لأنّ الشكوى تشمل حالات متعددة تدخل تحتها صور العتاب المختلفة؛ لذلك تمتاز الشكوى بحالات لا تعد من العتاب، كما أنّ حالات العتاب كلها تدخل ضمن الشكوى ولا تخرج حالة واحدة عن حد الشكوى، فالعتاب كما اتضح هي شكوى ولكن تحتوي على اللوم والذم والغلظة

^١ هي علاقة بين كليّين، يندرج فيها أحدهما تحت الآخر. انظر السبزواري، هادي: شرح المنظومة، تعليق: حسن زاده أملي، تحقيق: مسعود طالبی، ط ١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، د.ت، ج ١، ص ١٢٩.

والشدة، أمّا ما كان غير واجد لهذه الصفات فهو شكوى ولكنه ليس عتاباً. والشكل التالي يوضح طبيعة هذه العلاقة التي نقصدها:



شكل (١): العلاقة بين الشكوى والعتاب

الأغراض العامة للعتاب

أمّا فائدة العتاب للمعاتب تتمثل في عدة أمور، فهي وسيلة لتفريغ العبء النفسي لدى المتكلم، فالإنسان المتضرر لا تهدأ نفسه إن كبّنت مشاعره السلبية تجاه من أضرّ به، فأخراج هذه المشاعر السلبية من خلال العتاب يساهم في استقرار النفس، لذا يمكننا أن نقول أنّ العتاب يمثل انتقاماً شفهيّاً من الطرف الآخر؛ مما يهوّن التبعات النفسية للضرر الحاصل للمتكلّم، كما أنّ العتاب يؤكد ويبين وقوع الخطأ من المعاتب، وهذا في حال أنّ المخاطب ينكر أنّ ما عمله كان خاطئاً، أو كان غير ملتفتٍ لمدى سوء عمله، أو لتذكير وتأكيد وقوع العمل لدى المخاطب أو حتى من يستمع أو يقرأ الخطاب الموجه إليه بشكل عام.

للعتاب كما ظهر دلالة أولية سلبية قد تبدو بعيدة عن التأدّب، إلّا أنّ هذا لا يعني عدم وجود طرق يمكن من خلالها تهذيب أسلوب العتاب بشكل ما ليكون أسلوباً أقلّ تهديداً للمخاطب، فهناك طرق عديدة يمكن تطبيقها على خطاب العتاب إن لم تتّهِ حالة التهديد فيه إلّا أنّها تجعل من ذلك الخطاب خطاباً أقرب لحالة التأدّب، وبما أنّ العتاب يدخل ضمن الشكوى، فما قلناه عندما تحدثنا عن الشكوى

لتخفيف تهديد أسلوب الشكوى يمكن تطبيقه في العتاب أيضًا^١، كتعميم الخطاب، والتلميح من خلال الاستلزام الحوارى، كما أنّ هناك طرق واستراتيجيات تفصيلية سنعرض لها في طيات البحث.

٣- طبيعة خطاب الشكوى والعتاب

لخطاب الشكوى والعتاب سمات خاصة يمكن استنتاجها من خلال ما مر، وهذه السمات يمكن أن يكون لها تأثير بالغ في القيمة التأديبية لهذين الأسلوبين، يمكننا تلخيص هذه السمات البارزة في سمتين رئيسيتين، هما:

أ- الهجومية وعدم المقبولية

عندما يجتمع أسلوبا الشكوى والعتاب في خطاب واحد، يكون لهذا الخطاب خصائصه المميزة له، فخطاب الشكوى والعتاب خطاب يتسم بالهجومية، أي يوجه هذا الخطاب إلى المخاطب ذمًا مباشرًا في أغلب الأحيان؛ حيث نجد أنّ مثل هذا الخطاب يحتاج قدرًا كبيرًا من الانضباط والاستراتيجيات التأديبية وطرق التخفيف ليكون مقبولا لدى الطرف الآخر؛ لذلك نحن نقف أمام خطاب حسّاس ومؤثر، لا يمكن أن يؤدي هذا الخطاب وظيفته دون أي يحدث تأثيرًا في العلاقة بين المتكلم والمخاطب، وفي أغلب الأحيان يكون هذا التأثير سلبيًا، ولذلك قيل في التراث: "كثرة العتاب تنغل أديم المودة"^٢.

وسبب ذلك يعود إلى الذم الموجه لشخصية المخاطب، حيث يحتوي هذا الخطاب على ذم مباشر عادة وغير مباشر في قليل من الأحيان، هذا الذم يقدم بالصورة الذاتية للمخاطب وينزل من قدرها، وهذا ما لا يروق لأحد من المخاطبين؛ وبالتالي يحدث هذا الخطاب حالة من التوتر في العلاقة بين الطرفين، هذا التوتر يدفع المخاطب لأحد مسارين، فإما أن يعد هذا الخطاب تهديدًا غير مقبول لشخصه، فيرفض هذا الخطاب رفضًا كليًا، بحيث يحاول أن يدافع عن صورته الذاتية التي هدمها المتكلم، فلا يعترف بأي شيء مدعى في خطاب الشكوى والعتاب، وقد يحاول الرد مبررًا أو مهاجمًا صاحب الخطاب، هذا المسار الأول، والثاني أن يتأثر المخاطب بالخطاب مع إذعانه بحقيقة محتواه، فيقوم عادة بمحاولة التبرير لموقفه وحفظ صورته الذاتية وصيانتها من التهديد، لكنّه مع ذلك يقر بشناعة

^١ راجع صفحة ٣٤-٣٦.

^٢ الثعالبي، عبد الملك بن محمد: الشكوى والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب، تحقيق: إلهام عبد الوهاب المفتي، ط١، المجلس الوطنى للثقافة والفنون، الكويت، ٢٠٠٠م، ص٢٢.

أو سوء الفعل المنسوب إليه، وهنا ينظر المخاطب لصاحب الخطاب نظرة شفقة وأسف، وعلى أساس هذه النظرة قد يتخذ القرار بتصحيح العمل أو التعويض أو غير ذلك.

إنَّ المطلوب من المتكلم بخطاب الشكوى والعتاب أن يحاول جرّ المخاطب للمسار الثاني، وتجنب أن يجعل المتكلم المخاطب عدوًا له، هذا إذا أراد أن يؤثر تأثيرًا إيجابيًا لا يفسد العلاقة بين الطرفين، أمّا إذا كان مراد المتكلم أن يفضح المخاطب أمام غيره مثلاً، فيمكنه ألا يهتم بهذه النقطة، فيجعل من خطابه أداة لهدم صورة الآخر عند الناس، غير مكترث بتبعات ذلك على العلاقة معه، ولكننا عندما نفرض أن يكون المتكلم القياسي حريصًا على العلاقة مع المخاطب، يجب أن يكون خطابه متسمًا بسمات تمكنه من الوصول لغايته دون تطرف زائد قد يؤدي إلى نتائج قد لا يرغب فيها المتكلم.

وهنا تأتي وظيفة عنصر التأدّب، فالكلام المتسم بالتأدّب يراعي فيه صاحبه الصورة الذاتية لمخاطبه، وذلك من خلال مجموعة من الإجراءات التي تجعل من ذلك الخطاب أقل تهديدًا؛ وبالتالي مقبولًا لدى الطرف الآخر، فقاعدة الوجوه التي أشرنا إليها سابقًا تقول إنَّ مقبولية الخطاب تتحدد بعدة أمور أهمها التأدّب الذي من أبرز عناصره عدم تهديد الوجه الإيجابي والسلبي للمخاطب، فإنَّ عدم التهديد أمرٌ بالغ الأهمية؛ لذلك تركز الإجراءات والاستراتيجيات المستخدمة هنا لوقف أو تقليل حالة التهديد في هذا الخطاب المهدد بطبيعته.

ب- التعبيرية

يعد خطاب الشكوى والعتاب أداة مهمة للتعبير عن الألم والأسى الذي يتعرض له المتكلم، فصاحب هذا الخطاب هو شخص متضرر يحاول بيان الضرر الذي وقع عليه، فهذا الخطاب هو نافذته التي يعبر من خلالها عن شدة الضرر والألم الذي يصيبه، فهو ينقل حالة الشاعر النفسية والجسدية معًا. فالألم الذي يعبر عنه بخطاب الشكوى والعتاب، يكون تارة نفسيًا أخرى جسديًا وثالثة يجمع بين النفسي والجسدي، وهو أشدها؛ لذلك نجد أن هذا الخطاب يحمل حرارة الألم ومرارة التجربة عادة.

والقدرة التعبيرية لخطاب الشكوى والعتاب عالية جدًّا؛ لأنّه يتسم بالصراحة والمباشرة، بل قد يتعداهما إلى المبالغة في التعبير، ذلك أنَّ صاحب هذا الخطاب يروم التأثير في مخاطبه، فيتوسل كافة الطرق

^١ راجع صفحة ٢٢.

التي يحتمل أن تحقق له هذا الهدف، فيعتمد أحياناً لتضخيم المشكلة أو الضرر الواقع حتى يجعل من خطابه خطاباً مؤثراً يؤدي إلى مقصوده ومرامه، وهذا يحمل المتكلم على استعمال التعبيرات المؤثرة والصيغ الأقوى لإبراز المعنى.

ولأنّ المتكلم عندما يستعمل أساليب الشكوى والعتاب يريد إيصال رسالة للمخاطب مفادها أنّه غير راضٍ من عمّا فعله، وهذا الأمر يظهر جلياً عند التعرض لأمثلة الشكوى والعتاب، فالمتحدث يعتمد على مثل هذا الخطاب للتعبير عمّا يريد، وقد ظهر حجم المشاعر والخلجات النفسية التي تفصح عنها خطاب الشكوى والعتاب، فالشكوى تتكفل بإبراز مشاعر الاستياء والإحباط لدى المتكلم، وهذه المشاعر تظهر بصورة أساس في خطاب كهذا، أمّا العتاب فيوجه هذه المشاعر السالفة إلى مخاطب معيّن يتلقى هذا الخطاب.

هذا الوضوح الكبير في خطاب الشكوى والعتاب يجعلها ميزة خاصة به، فالأساليب الأخرى التي تتوسلها الخطابات المتحفظة تبتعد عن تأدية المعنى المختلج في نفس المتكلم بصورة كاملة؛ لأنّ المتكلم حين يريد أن يفصح عمّا يريد قد تعترضه ظروف خاصة تمنعه من التصريح بما يريد وما يشعر، وهذا بطبيعته يقود المتكلم للجوء لطرق أكثر تحفظاً في التعبير، بالمقابل يكون استعمال هذه الطرق مؤدياً لحدوث اقتطاع للمعنى المراد، وقد يلجأ صاحب الخطاب للظروف المحيطة بالخطاب حتى يفصح عن أكبر قدر مما يريده، فيدفع بذلك المخاطب أو المتلقي لمحاولة الكشف عن المعاني المضمّنة في الخطاب بصورة غير مباشرة، وكذلك الدارس لمثل هذا الخطاب يحتاج لمفاتيح تداولية مخصصة لاستخراج ما اختفى وراء الكلمات.

على العكس من ذلك نجد أنّ خطاب الشكوى والعتاب أكثر وضوحاً وتعبيراً من غيره، فهو يعتمد المباشرة في إيصال المعاني التي يريد إيصالها المتكلم، ولذلك نجده لا يميل لاستعمال الأساليب غير المباشرة لإيصال المعنى، فهو بنفسه يتكفل بإيصال المعاني والمشاعر والآراء التي قد يتحفظ المتكلم عليها في خطابات أخرى، ولكن أحياناً قد تكون الظروف التي تحيط بخطاب الشكوى والعتاب ظروفًا تستدعي إخفاء جزء من هذه المعاني والمشاعر، أو حتى محاولة تلطيفها وتهذيبها حتى تكون مقبولة مع ضمان وصولها، وهذا مثل وجود مسافة اجتماعية بين أطراف العملية التواصلية، مما يستدعي أعرافاً وآداباً محددة ينبغي لكل طرف أن يضعها في الاعتبار حين إنتاج خطابه.

أمرٌ كهذا كفيل بأن يجعل خطاب الشكوى والعتاب يسير سير الخطابات المتحفظة؛ فهو سيتوسل بعض تلك الطرق التي تحجب جزءاً من المعنى المراد إيصاله، أو تلمّح بوجود ذلك المعنى بصورة ما، فلا يبقى الخطاب على حاله واضحاً صريحاً بصورته الكاملة. إلا أنّ ذلك لو كان لا ينفي كون خطاب الشكوى والعتاب أكثر صراحةً ومباشرةً من غيره؛ لأنّه سيحتاج كمّاً أكبر من تلك الوسائل والطرق غير المباشرة مقارنة بغيره من الخطابات.

الفصل الأول

عوامل التأدب في خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس

- تمهيد
- المبحث الأول: مكانة المخاطب
- المبحث الثاني: علاقة المتكلم بالمخاطب
- المبحث الثالث: غايات الخطاب
- المبحث الرابع: صفات المتكلم
- خاتمة

تمهيد

يتَّسم خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس بقدر مميز من التأدُّب، يرجع هذا الأمر إلى أنَّ هذا الخطاب يحكمه عدد من العوامل هي التي تؤدي للوصول إلى تلك الحالة من التأدُّب، فعلينا قبل كل شيء استخراج وتحليل هذه العوامل في شعر أبي فراس، فهي التي ستدُلنا على الأغراض الأساسية التي يهدف لها خطاب كهذا، وسنتبين طبيعة العلاقة بين كل من صاحب الخطاب ومخاطبه وتأثير ذلك على تأدُّب الخطاب. فهناك عوامل تتعلق بذات الخطاب وأخرى بالمخاطب، وثالثة تتعلق بصاحب الخطاب، ورابعة تتعلق بظروف إنتاج ذلك الخطاب، ذلك وقد أسلفنا الكلام عن سمات خطاب الشكوى والعتاب العامة بما يؤدي الغرض ويبين المطلوب، وسيكون التركيز الآن على العوامل التي تتعلق بالمخاطب، وصاحب الخطاب، وظروف إنتاج الخطاب.

ومن المعروف أنَّ الدراسة التداولية تهتم بالجانب السياقي للخطاب، وهذا الجانب هو ما نحن بصدد دراسته في هذا الفصل؛ فقد تبين لدينا أنَّ التأدُّب هو نتيجة لعدة عوامل خارجية، وهذه العوامل الخارجية التي تحيط بالخطاب، والتي نطلق عليها السياق، والسياق كما نعلم يشمل المتكلم والمخاطب والزمان والمكان وغيرها من الأمور الخارجية التي لها تأثير في دلالة الخطاب.

فالخطاب لا يمكن فهمه بشكل كامل دون معرفة ودراسة سياقه الخارجي الذي يحيط به؛ لأنَّ التأدُّب ما هو إلَّا ناتج من نواتج الخطاب وسمة من سماته، فهو كما الدلالة البحتة التي نفهمها من مجرد الألفاظ والعلامات اللغوية يحتاج إلى عوامل هي من تنتج وتحدد مقدار التأدُّب الذي يتوفر عليه الخطاب، فالخطابات تبعاً لهذه العوامل يتغير مقدار التأدُّب فيها بناءً على مقدار تأثير كل واحد من هذه العوامل على هذه الخطابات؛ ومن هذا المنطلق وجب النظر في هذه العوامل التي نجد لها تأثيراً في تأدُّب خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس في شعره، وهذا ما يتم في عدة مباحث.

المبحث الأول: مكانة المخاطب

تعد هوية المخاطب عاملاً مؤثراً في تأدب الخطاب من عدمه. فالمخاطب هو المقصود بالخطاب، والمتكلم يوجه كلامه إلى مخاطب معين ومشخص، وقد يحمل هذا المخاطب سمات معينة توجب على المتكلم احترامه أو العكس، فللمخاطب ذلك الدور المهم في التأثير على نوعية وأسلوب الخطاب الموجه إليه، فعندما نوجه خطاباً ما إلى شخص ما يجب علينا مراعاة السمات التي يتسم بها هذا الشخص، والتي من أبرزها المكانة التي يحتلها هذا الشخص المخاطب؛ فالمكانة الاجتماعية تفرض على المتكلم لوناً معيناً من الخطاب، فالمخاطب كلما علت مكانته كان لزاماً على المتكلم مراعاة قواعد التأدب في خطابه معه، فالخطاب الموجه إلى بروفيسور الجامعة يحتاج قدرًا أكبر من التأدب بالمقارنة مع الخطاب الموجه إلى زميل الدراسة، والخطاب الموجه إلى رئيس الحكومة يحتاج قدرًا أكبر من التأدب من خطاب بروفيسور الجامعة، فمكانة كل مخاطب هي التي تفرض هذا التباين في مستوى التأدب بين الخطابات المختلفة الوجهة.

وإنّ الذي يجعل من شخصية ما ذات عنوان خاص مستلزمة لمكانة عالية لا تقبل إلا لوناً خاصاً من التخاطب هو مواضع المجتمع العرفية، فإنّ المجتمع إذا نظر إلى منصب ما أو صفة اجتماعية معينة بعين الاحترام والتبجيل صار لزاماً على أفراد ذلك المجتمع ألا يخرجوا بكلامهم مع صاحبها عن حدود التأدب التي وضعها المجتمع له، والأمر هنا ليس متعلقاً بمكانة هذه الصفة الاجتماعية عند المجتمع فحسب، بل يلعب الزمان -كما المكان- دوراً مهماً كذلك، ففي بعض الأزمنة يشيع احترام وتبجيل أفراد لأنهم امتلكوا صفة من الصفات، وعندما يتغير الزمان تكون هذه الصفة عند ذات المجتمع مدعاة لعدم احترام صاحبها.

كمثال من التاريخ، في العصور الوسطى في أوروبا كان لرجال الكنيسة دور مهم في المجتمع المسيحي الأوروبي، ولكن بعد إسقاط دور الكنيسة وتبني العلمانية في المجتمعات الأوروبية قلّت مكانة رجال الكنيسة في المجتمع، وأصبح دورهم محبوساً داخل نطاق كنائسهم^١؛ وبالتالي لو نظرنا لطبيعة الخطاب الموجه لهؤلاء في عصور هيمنة الكنيسة سنجد أنه يمتلئ بعبارات التبجيل والاحترام، وقد يعد

^١ انظر كونزلن، جوتفرايد: مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا (شهادة ألمانية)، د.ط، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مدينة السادس من أكتوبر، ١٩٩٩م، ص ٣٥-٣٦.

الحياة عن ذلك خروجًا عن حالة التأدب المفروضة لهؤلاء، ولكن لو نظرنا للخطاب بعد انتكاس دور الكنيسة وثورة المجتمع عليها، لوجدنا الخطاب أقل تأدبًا، بل قد يخرج عن التأدب أحيانًا.

فمكانة الفرد تفرضها نظرة المجتمع للدور الذي يقوم به أو للصفة الاجتماعية التي يتصف بها فيه، فهذه النظرة إن حوت الإكبار والإجلال، فرض ذلك على المجتمع قيودًا تأدبية أكثر في الخطاب الموجه إليه، فالجانب الأول والأبرز من مكانة المخاطب يفرضه الدور الذي يؤديه هذا المخاطب ونظرة ذلك المجتمع لذلك الدور، وهناك جانب آخر أيضًا يفرضه المجتمع كذلك ولكن للمخاطب تأثيرًا كبيرًا عليه، وهو السمات الشخصية للمخاطب؛ فالصفات التي يتمتع بها المخاطب مهما كانت منزلته الاجتماعية تؤثر في مدى خطابه.

فالمملوك مثلاً لهم طريقة خاصة للخطاب تستدعي الاحترام والتبجيل، وإنّ الخروج عن هذه الطريقة يعد انتهاكًا للتأدب الواجب تجاههم، لكنّا لا يمكن أن نجزم بأنّ كلّ المملوك لهم ذات القدر من التأدب في الخطاب، فالبعض منهم قد تفرض صفاته الشخصية قدرًا زائدًا من التأدب في التخاطب معه، كأن يكون هذا الملك مقاتلاً شجاعاً، أو يكون كَيِّسًا حكيمًا، أو غيرها من الصفات التي يجدها المجتمع موضعًا لاحترام صاحبها وعلو مكانته.

وقد أشار ابن رشيق لهذا الأمر في كتابه العمدة بقوله: "غايتة معرفة أغراض المخاطب كائنًا من كان، ليدخل إليه من بابه، ويدخله في ثيابه، فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه... وشعره للأمير غير شعره للوزير والكاتب، ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ما تقدم من هذه الأنواع"^١، فإنّ الاختلاف في الخطاب بين هذه الأصناف المختلفة من الناس أمر لا بد منه للشاعر.

وعند النظر إلى الشخصيات التي خاطبها أبو فراس في شعره الذي تضمن خطاب الشكوى والعتاب، سنجد أنّ أكثر هذا الشعر هو ما قاله أبو فراس في أسره، والذي يعرف بـ(الروميات) أو(الحبسيات)، وهذا الشعر كان متوجهًا بالمقام الأول إلى سيف الدولة الحمداني، وسيف الدولة ملك وحاكم على الدولة الحمدانية، بل لم يكن سيف الدولة مجرد ملكٍ عاديّ، بل كان فارسًا مقاتلاً وقائدًا معروفًا بمحاربة الروم، فسيف الدولة يمثل القائد ورأس هرم السلطة في دولة بني حمدان وباني مجدها، هذه الدولة التي ينتمي لها شاعرنا أبو فراس نفسه، فهو ابن عم لسيف الدولة وقائد بين يديه.

^١ ابن رشيق، الحسين بن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طه، دار الجبل، بيروت، ١٤٠١هـ، ١٩٧١م، ج ١ ص ١٩٩.

المخاطب ملكًا

وكون مخاطب أبي فراس ملكًا يقتضي لونا خاصًا من الخطاب، ففي ذلك الزمان الذي يحكم خطاب أبي فراس كان للملوك مقامٌ عظيمٌ يستوجب طريقة خاصة في التعامل معهم، وقد شاع آنذاك ما يعرف بـ(الآداب السلطانية) التي حددت طريقة وأسلوب الخطاب الذي يجب أن يكون بين الحاكم والمحكومين، يقول ابن الطقطقي في كتابه الفخري: "ومن الحقوق الواجبة للملك على الرعاية التعظيم والتفخيم لشأنه في الباطن والظاهر وتعويد النفس على ذلك ورياضتها به؛ بحيث تصير ملكة مستقرة وتربية الأولاد على ذلك وتأديبهم ليتربى على هذا المعنى معهم".^١

حتى إنّ الجاحظ خصص للملوك في كتابه (التاج في أخلاق الملوك) طريقة خاصة وأسلوبًا منفردًا في كل شيء، فجعل بابًا كاملاً في كتابه لبيان طريقة الدخول على الملك^٢، وآخر في منادمته^٣، وثالث في صفات وأسلوب الندماء معه^٤، فهو يقول في هذا السياق: "وليس لمن حدّث الملك أن يفسد ألفاظه، بأن يقول في حديثه (اسمع مني) أو (افهم عني) أو (يا هذا) أو (ألا ترى)، فإنّ هذا وما أشبهه عيٌّ من قائله وحشو في كلامه وخروج من بسط اللسان ودليل على الفدامة والغثاثة. وليكن كلامه كلامًا سهلًا، وألفاظه عذبة متصلة، وسقط كلامه قليلًا".^٥، ويواصل في بيان جملة من القواعد والآداب التي يجب مراعاتها عند التحدث مع الملك فيقول: "ومن حق الملك أن لا يُضحك من حديثه إذا حدّث؛ لأنّ الضحك بحضرة الملك جرأة عليه، ولا يظهر التعجب بفائدة حديثه. وإنما هذا إلى الملك... ومن حق الملك أن لا يعاد عليه الحديث مرتين، وإن طال بينهما الدهر وغبرت بينهما الأيام، إلّا أن يذكره الملك. فإن ذكره، فهو إذنّ منه في إعادته".^٦

ثم يذكر الجاحظ جملة أخرى من المحظورات التي تتعلق بالحديث مع الملك: "وعلى المحدث للملك أن لا يعجل في كلامه، وأن يدمج ألفاظه، ولا يشير بيده، ولا يحرك رأسه، ولا يزحف من مجلسه،

^١ ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ط١، دار صادر، بيروت، دت، ص ٣٣.

^٢ الجاحظ، عمرو بن بحر: التاج في أخلاق الملوك، تحقيق أحمد زكي باشا، ط١، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٤م، ص ٦.

^٣ المصدر نفسه، ص ٢١.

^٤ المصدر نفسه، ص ٧١.

^٥ المصدر نفسه، ص ١١٠-١١١.

^٦ المصدر نفسه، ص ١١١.

ولا يراوح بين قعدته، ولا يرفع صوته، ولا يلتفت يمينًا وشمالًا، ولا يقبل على غير الملك بملاحظته"^١، ويختم هذا الموضوع بآخر حق للملك فيقول: "ومن حق الملك أن لا يعاب عنده أحد، صغر أو كبر"^٢.

فإنك تجد أن للملك مكانة عالية تستلزم آدابًا خاصة في الخطاب معه، وهذا أول ما يحكم شاعرنا أبا فراس الحمداني في خطابه مع سيف الدولة الحمداني، فهو خطاب من محكوم إلى حاكم، وذلك في زمن يعظم أهله فيه مقام الحاكم لأقصى الحدود، حتى إنهم تأولوا آيات قرآنية وأحاديث نبوية في حقه وعلو منزلته^٣.

وبالإضافة إلى هذه المكانة التي أعطتها الثقافة العربية الإسلامية للملك، نجد بأن الملك بحكم كونه صاحب سلطة لا يجزئ أحد على مخاطبته بغير الخطاب المتأدب خوفًا من بطشه وسطوته، وهذا الأمر يمثل ذات القيد السابق ولكن يكون مسوغه عند بعض أفراد المجتمع هو اجتناب سطوة الملك لا أكثر، كما يكون المسوغ عند بعضهم الآخر مؤلفة قلب الملك وكسب وده للوصول للمكاسب المادية والسلطوية.

والأشد من ذلك من يربط احترام الملك بتعاليم الإسلام وفرائضه، فيعتقد بأن الإسلام أمر باحترام الملك وطاعته وتبجيله، فيرى أن من حق الحاكم أن يطاع ولا يخرج عليه بأي حال إلا إذا جاهر بمخالفة الشرع والدين^٤، فإنهم قد جعلوا طاعة الملك واجبًا من واجبات الإسلام، بل وعابوا على الناس طاعتهم للملك لغرض آخر كالخوف منه مثلاً^٥. وهذا الأمر يقودنا إلى أن للحاكم أو الملك هذه المكانة العالية بين جميع أصناف المجتمع العربي والمسلم؛ ولذلك كانت مكانة الملوك في الثقافة العربية الإسلامية عالية ومبجلة تستوجب التعظيم والاحترام من الجميع مع اختلاف أغراضهم من هذا التعظيم.

وبما أن الخطاب ظاهرة اجتماعية تواصلية، يجب علينا أن ننظر له بعين المجتمع الذي أنتج فيه، فالنظر إلى المخاطب لا يكون إلا بما يعطيه المجتمع من مكانة؛ فالمتكلم لا يجد نفسه إلا أن يكون مجبورًا على مجارة مكانة المخاطب بنظر المجتمع الذي يحيطه؛ ولهذا نجد أن أبا فراس يراعي مخاطبه

^١ الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص ١١٥-١١٦.

^٢ المصدر نفسه، ص ١١٨.

^٣ كتأويلهم لقوله تعالى { يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم } [النساء: ٥٩]

^٤ انظر ابن عثيمين، محمد بن صالح: شرح رياض الصالحين، ط ١، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٦هـ، ج ٣ ص ٦٥٢. وانظر ابن أبي المعز، علي بن علي بن محمد: شرح العقيدة الطحاوية، د. ط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ج ٢ ص ٥٤٠.

^٥ انظر ابن عثيمين: شرح رياض الصالحين، ج ٣ ص ٦٥١.

سيف الدولة في الخطاب، فإنَّ حرية منتج الخطاب ليست مطلقة، فهو أسير تلك القيود الاجتماعية التي إن خرج عنها لم يؤد خطابه وظيفته المبتغاة^١، فلا مفر من مخاطبة أبي فراس لسيف الدولة بالطريقة المحترمة التي تعارفها المجتمع في مخاطبة الملوك.

الصفات العالية للمخاطب

إنَّ امتلاك الفرد صفات حميدة لأمر يدل على رفعة في المكانة والشأن، ويكون هذا الأمر بقدر اهتمام المجتمع نفسه بهذه الصفات والخصال الحميدة، وكمجتمع عربي ومسلم نجد أنَّ الموروثين العربي والإسلامي يعلمان من شأن الأخلاق الكريمة والخصال الحميدة، فالعرب منذ الجاهلية كانت تعلي من شأن الشجاع العزيز ذي الشهامة والمروءة، فحسبك عنتر بن شداد الذي كان رغم سواده الذي يعده مجتمعه القبلي مذمة في حقه، كان قومه يمدحون فيه شجاعته وإقدامه ويجلّون هذه الصفات فيه، فقد قال:

يُنَادُونَنِي فِي السَّلَمِ يَا ابْنَ رَبِيبَةٍ وَعِنْدَ صِدَامِ الْخَيْلِ يَا ابْنَ الْأَطَايِبِ^٢

وقد كان عنتر يطلب من محبوبته أن تسأل عن حاله في الحرب لكي تعلم شجاعته وإقدامه، فهو يرى أنَّ شجاعته وإقدامه صفة ستزيد من احترام وإعجاب محبوبته له، فهو القائل:

هَلَّا سَأَلْتَ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي

إِذْ لَا أزالُ عَلَى رِحَالَةٍ سَابِحٍ نَهْدٍ تَعَاوَرُهُ الْكُمَاةُ مُكَلَّمٍ^٣

ولم تكن الشجاعة هي الصفة الوحيدة التي يجلبها عرب الجاهلية، بل إنهم كانوا يرون صفات كالكرم والإيثار والوفاء وغيرها من الصفات الحميدة مصدرًا للفخر والاعتزاز، قال الشنفرى ملخصًا بعض هذه الخصال في لاميته:

وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ: سَيِّدٌ عَمَلَسَ وَأَرْقَطُ زُهْلُولٍ وَعَرْفَاءُ جَبَائِلُ

^١ القصاب، ولید: أثر المتلقي في التشكيل الأسلوبي في البلاغة العربية، د.ط، ندوة الدراسات البلاغية الواقع والمأمول، الرياض، ١٤٣٢هـ، ص ٦٥٨.

^٢ الخطيب التبريزي، يحيى بن علي: شرح ديوان عنتر بن شداد، تحقيق مجيد طراد، ط ١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص ٣٥.

^٣ المصدر نفسه، ص ١٧١-١٧٢.

هُمُ الرَهْطُ لَا مُسْتَوْدِعُ السِّرِّ ذَائِعٌ لَدَيْهِمْ وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يُحْذَلُ
وَكُلُّ أَبِي بَاسِلٍ غَيْرَ أَنَّنِي إِذَا عَرَضْتُ أُولَى الطَّرَائِدِ أُنْبَلُ
وَإِنْ مُدَّتِ الْأَيْدِي إِلَى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ بِأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْشَعُ الْقَوْمِ أَعْجَلُ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا بَسْطَةٌ عَنْ تَقْضُلٍ عَلَيْهِمْ وَكَانَ الْأَفْضَلُ الْمُتَقْضِلُ^١

أما بعد مجيء الإسلام فقد تأكدت قيمة هذه الخصال الحميدة بتأكيد الرسالة الإسلامية لها، فقد أكدت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على العديد من الصفات والخصال الحميدة والأخلاق الفاضلة، حتى إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) روي عنه الكثير من الأحاديث في مدح الأخلاق الحسنة وذم الأخلاق السيئة، ينقل صاحب بحار الأنوار: "ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق في غير موضع، كقوله: (أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق) وقوله: (أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا) وقوله: (إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم) وقوله: (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وأحاديث من هذا النوع كثيرة، وكذلك جاء في ذم سوء الخلق أحاديث كثيرة... وقيل: حسن الخلق إنما يحصل من الاعتدال بين الإفراط والتفريط في القوة الشهوية والقوة الغضبية، ويعرف ذلك بمخالطة الناس بالجميل والتودد والصلة والصدق واللطف والمبرة وحسن الصحبة والعشرة والمراعاة والمساواة والرفق والحلم والصبر والاحتمال لهم والاشفاق عليهم، وبالجملة هي حالة نفسانية يتوقف حصولها على اشتباك الأخلاق النفسانية بعضها ببعض"^٢

هذه الخصال الحسنة التي تستوجب إجلالًا وإكبارًا لصاحبها قد توفّر جزء كبير منها في مخاطب أبي فراس، فسيف الدولة الحمداني كان يمتلك خصالًا تجبر الآخرين على احترامه، منها أنه كان شجاعًا ذا همة عالية^٣، وكريمًا سخيًّا^٤، يعطي ويقرب أهل الأدب والفضل^٥، حتى قيل إنه "لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ العلم ونجوم الدهر"^٦.

^١ الحلبي، محاسن بن إسماعيل: شرح شعر الشنفرى الأزدي، ت: خالد عبد الرؤوف الجبر، ط ١، دار الينابيع للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٤م، ص ٦٤-٦٧.

^٢ المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار، ط ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٣م، ج ٦٨، ص ٣٧٣.

^٣ الزركلي، خير الدين بن محمود، الأعلام، ط ٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ج ٤ ص ٣٠٣.

^٤ المرجع نفسه، ج ٤ ص ٣٠٣.

^٥ المرجع نفسه، ج ٤ ص ٣٠٣.

^٦ المرجع نفسه ج ٤ ص ٣٠٣.

فعندما يريد أبو فراس أن يخاطب سيف الدولة، يجب عليه أن يقوم بمراعاة مكانة سيف الدولة بوصفه ملكاً أولاً، وبوصفه فارساً شجاعاً وكراماً سخياً ثانياً، فكما هي عادة ذلك الزمان في مخاطبة الملوك، على المتكلم أن يقدم للملك المدح والثناء الجزيل ضمن خطابه له، نجد ذلك واضحاً في بعض مخاطبات أبي فراس لسيف الدولة، فقد قال:

أَسَيْفَ الْهُدَى وَقَرِيحَ الْعَرَبِ إِلَامَ الْجَفَاءِ وَفِيمَ الْعَضْبِ
وَمَا بَالُ كُتُبِكَ قَدْ أَصْبَحَتْ تَنَكُّبُنِي مَعَ هَذِي النُّكْبِ
وَأَنْتَ الْحَلِيمُ وَأَنْتَ الْكَرِيمُ وَأَنْتَ الْعَطُوفُ وَأَنْتَ الْحَرْبِ
وَمَا زِلْتَ تُسَعِّفُنِي بِالْجَمِيلِ وَتُنْزِلُنِي بِالْمَكَانِ الْخَصْبِ
وَتَدْفَعُ عَنِّي عَاتِقِي الْخُطُوبِ وَتَكْشِفُ عَنِّي نَاطِرِي الْكُرْبِ^١

نلاحظ أنّ الشاعر في هذه القصيدة التي تمثل خطاب شكوى يلطّف الخطاب مع سيف الدولة من خلال سوق المدائح الكثيرة بحقه، فالخطاب اتسم هنا بقدر عالٍ من التأدّب بسبب أنّ المخاطب ذو مكانة عالية في المجتمع، وقد تعارف ذلك المجتمع على مخاطبة الملوك بهذا الشكل، فلا يمكن لأبي فراس أن يخالف هذا العرف السائد وإلا عُدَّ خطابه غير مهذبٍ، فنجد الصفات (سيف الهدى، قريع العرب، الحليم، الكريم، العطوف، الحرب) تثنى وجه سيف الدولة بصفات هي من صفات الملوك والقادة، اتخذ أبو فراس هذا النهج حتى لا يخرج خطاب الشكوى والعتاب هنا عن تأدبه؛ وبالتالي قد يؤدي هذا إلى إخفاقه في تحقيق هدفه ومرامه.

كما نجد أنّه اتخذ أسلوباً خاصاً لمعادلة وموازنة الخطاب، فلم يكتف بسوق المدائح والأوصاف الكريمة فحسب، بل نسب لمخاطبه ما عاتبه على نقيضه بعد ذلك، فقد قال في أبياته:

وَمَا زِلْتَ تُسَعِّفُنِي بِالْجَمِيلِ وَتُنْزِلُنِي بِالْمَكَانِ الْخَصْبِ

بينما يرى الشاعر أن سيف الدولة قد خذله وتركه في الأسر، وهذا خلاف ما قيل في معنى هذا البيت، فالشاعر هنا وضع للمخاطب -بناءً على مكانته- منزلة مرتفعة تقتضي أن يقوم صاحبها بالأفعال المذكورة في الأبيات، وهذا أسلوب ينتهجه الشاعر مع سيف الدولة في عدد من أبياته،

^١ الحمداني، أبو فراس: الديوان، تحقيق: سامي الدهان، ط١، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٤٤م، ج ٢ ص ٢٥.

فصاحب المنزلة العالية لا يعاتب بصورة مباشرة وصريحة، بل قد تكون معاتبته في شكل المدح والثناء الذي يشير بأن من الأجدر فعل ما تقتضيه هذه الصفات الحميدة، وهو ما لم يقع.

المبحث الثاني: علاقة المتكلم بالمخاطب

لا يخفى على مطلع أنّ العلاقة بين الأفراد تولّد لونا خاصا من الخطاب بينهم، فطبيعة العلاقة بين المتكلم والمخاطب هي من أهم الأمور التي تحدد أسلوب الخطاب ومدى تأدبه، والخطابات تختلف باختلاف العلاقات القائمة بين أطرافها، فهناك عدة عوامل قد تحكم طبيعة الخطاب من جهة العلاقة بين طرفيه، أهم تلك العوامل القرب والبعد الاجتماعيان، هذا العامل يحدد إطار التواصل ومدى التزام الخطاب بقواعد التأدّب^١. والقرب والبعد الاجتماعيان يتحققان من خلال علاقة النسب أو الصداقة أو الزمالة أو الجيرة أو غيرها، فكلما تقارب الطرفان من ناحية النسب كانت الحواجز بينهما أقل، وتحرر الخطاب من بعض قيوده، وكلما بعد الطرفان تطلب الخطاب قدرا أكبر من القيود، وكذلك الأمر في الصداقة وزمالة الدراسة والعمل وغيرها من جهات القرب والبعد الاجتماعيين، فالأخ الذي تعيش معه في بيت واحد يكون أقرب من ابن العم عادة، فيكون خطابه أقل قيودا من خطاب الآخر بطبيعة الحال، وكذلك في زمالة العمل، فالزميل الذي يكون معك في مكتبك أقرب ممن يكون في مكتب آخر ضمن ذات المؤسسة؛ وبالتالي يكون خطابه مختلفا.

لكننا يجب أن نعترف أنّ تحليل هذا الأمر لا يكون بهذه البساطة، فالعلاقات بين البشر من أعقد الأمور، فقد يكون ابن العم أقرب من الأخ في كثير من الأحيان، وهنا تدخل عوامل آخر في هذه المسألة، كمدى تقارب الأفكار والسمات الشخصية والارتياح النفسي بين الطرفين وغيرها، بل قد تكون العلاقة بين الطرفين قائمة من عدة جهات، فابن العم قد يكون جارا وزمىلا في العمل، فتكون العلاقة هنا مختلفة عما إذا كانت العلاقة من جهة واحدة فقط، وهذا ما يجعلنا لكي ندرس هذه العلاقات أن نحلل كل حالة على حدة لنحدد طبيعة الخطاب التي تتناسب وهذه العلاقة القائمة بين الطرفين.

كما تجب الإشارة إلى أنّ الخطاب قد يتأثر أيضا بعوامل اجتماعية يفرضها المجتمع أو الدين أو مؤسسة الدراسة والعمل أو من لديه سلطة التأثير الاجتماعي، فالأب والأم رغم قربهما الشديد من ابنهما، إلا أنّ خطاب الابن معهما يجب أن يتسم بقدر عالٍ من التأدّب مقارنة بغيرهما ممن هو أبعد اجتماعيا كابن العم مثلاً، فالمجتمع والدين هنا يفرضان قيودا إضافية على الخطاب، يؤدي تجاوزها إلى عدم مقبوليته؛ وبالتالي لا مفر من مراعاة أي سلطة اجتماعية قد تؤثر على تأدبية الخطاب.

^١ انظر الشهري، عبد الهادي: استراتيجيات الخطاب، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٣م، ص ٩١.

إنَّ العلاقة القائمة بين الشاعر أبي فراس وسيف الدولة الحمداني هي علاقة تتحدد من جهتين، الجهة الأولى هي القرب النسبي، فأبو فراس هو ابن عم سيف الدولة ومن نفس قبيلته^١، هذا الأمر يجعل الخطاب يكتسب أسلوبًا خاصًا. أمّا الجهة الثانية فهي ما يمكننا تسميته بأخوة السلاح والحكم التي جمعت بين الشخصيتين، فأبو فراس كان شريكًا لسيف الدولة في حروبه وفي إدارة البلاد^٢، هذا الأمر يؤثر كذلك في طبيعة الخطاب الذي يوجهه أبو فراس لسيف الدولة، فالمتكلم ليس جنديًا صغيرًا في الدولة، بل هو أحد رجالها البارزين، وهذا ما يلقي بظلاله على الخطاب.

وقد كان سيف الدولة يجل ويقرب أبا فراس، يقول الثعالبي: "وَكَانَ سيف الدولة يعجب جدًا بمحاسن أبي فراس ويميزه بالإكرام عَنْ سَائِر قومه ويصطنعه لنفسه ويصطحبه فِي غُرَوَاتِهِ ويستخلفه على أعماله"^٣. فهذه المحبة وذلك التقديم لأبي فراس يدلان على قوة العلاقة بين أبي فراس وسيف الدولة، وأنَّ هذه العلاقة قد تجاوزت النسب، وهو الجانب الثاني من جوانب هذه العلاقة بين الطرفين؛ لذلك عندما نراجع ما قاله أبو فراس في حق سيف الدولة لا نستعجب من كم المدح والثناء والود في ذلك الخطاب، حتى في أصعب اللحظات لدى أبي فراس -وهي لحظة الأسر- نجد أنَّ أبا فراس يمجّد ويعظّم شأن سيف الدولة، وهذا ما يصب لصالح تأدّب الخطاب ويعد من عوامله المهمة.

ف نجد أنَّ أبا فراس يبرز هذه العلاقة في إحدى روميّاته بقوله:

بَنِي عَمِّنَا مَا يَصْنَعُ السَّيْفُ فِي الْوَعَى إِذَا قُلَّ مِنْهُ مَضْرِبٌ وَدُبَابُ

بَنِي عَمِّنَا لَا تُتَكْرَمُوا الْحَقَّ إِنَّنَا شِدَادٌ عَلَى غَيْرِ الْهَوَانِ صِلَابُ

بَنِي عَمِّنَا نَحْنُ السَّوَادُ وَالظُّبَى وَيُوشِكُ يَوْمًا أَنْ يَكُونَ ضِرَابُ

وَإِنَّ رِجَالًا مَا إِبْنُكُمْ كَابِنِ أَخْتِهِمْ حَرِيُونَ أَنْ يُقْضَى لَهُمْ وَيُهَابُوا

فَعَنْ أَيِّ غُذْرِ إِنْ دُعُوا وَدُعِيتُمْ أَبَيْتُمْ بَنِي أَعْمَامِنَا وَأَجَابُوا^٤

^١ انظر الثعالبي، عبد الملك بن محمد: بتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد محمد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م، ج١، ص٥٧.

^٢ انظر المصدر نفسه، ج١ ص٥٧.

^٣ المصدر نفسه، ج١، ص٥٧.

^٤ أبو فراس: الديوان، ج٢ ص٢١.

نرى أنَّ الشاعر يؤكد على علاقة النسب بينه وبين مخاطبه، فيكرر العبارة (بني عمنا) ثلاث مرات متتالية، ويورد عبارات أخرى كـ(ابنكم / بني أعمامنا) تدل على وجود هذه العلاقة وترسخها، كما يشير البيت الثالث إلى علاقة الأخوة في الحرب التي أشرنا لها، ونجد أن أبا فراس يستغل هذه العلاقة القريبة في التحرر من بعض القيود، فنجد الشاعر يخاطب سيف الدولة لا كحاكم أو ملك بل كابن عم أو أخ، فيلمح له بأنَّ ما يفعله يجلب الخزي، فلا ينبغي أن يترك الأخ أخاه ولا ينجده، بل من القبيح أيضًا ألا يقوم الرجل بنجدة أعوانه المقربين إذا وقعوا في مصيبة، فهذه العلاقة تعطي الشاعر موقفًا أقوى يستطيع من خلاله توجيه الشكوى والعتاب بأريحية أكبر للمخاطب، فنجد البيت الأخير يؤكد هذا الأمر، فهو ينفي وجود العذر عند سيف الدولة لتركه أسيرًا، وهذا في حد ذاته يهدد وجه سيف الدولة، إلاَّ أنه حاول التأكيد على علاقة النسب في نفس البيت حتى لا يخرج الخطاب عن مقبوليته وذلك بقوله (بني أعمامنا)، مما جعل الخطاب مقبولاً رغم تهديده لوجه المخاطب.

وفي أبيات أخرى يبين قوة هذه العلاقة وأنها ليست علاقة عادية، فيقول مخاطبًا سيف الدولة:

أخي لا يُذقني الله فقدانَ مثله وأينَ له مثلٌ وأينَ المُقاربُ
تجاوزتِ القُربى المودَّةَ بيننا فأصبحَ أدنى ما يُعدُّ المُناسبُ^١

ويصرِّح بشكل واضح بأنَّ هذه العلاقة لقوتها تفوق علاقة النسب الاعتيادية، وذلك أيضًا في قوله:

ألسْتُ وإيَّاكَ من أسرةٍ وبيني وبينكَ فوقَ النَّسبِ
ودادٌ تناسبُ فيه الكرامُ وتربيةٌ ومحلُّ أشب^٢

هذه الأبيات تدل على العلاقة الاستثنائية الخاصة بين طرفي الخطاب، هذه العلاقة التي تتجاوز علاقة النسب الطبيعي يكون لها تأثيرها الكبير في طبيعة الخطاب بينهما، فكلما تعمقت العلاقة بهذه الصورة كانت مدعاة للتأدب من جهة شدة هذه العلاقة، ومن جهة أخرى يمكن أن تؤدي هذه العلاقة إلى التخفف من بعض رسميات الخطاب، بحيث يكون المتكلم أكثر حرية وجرأة في مخاطبة المخاطب الذي تربطه به تلك العلاقة الخاصة.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣٣.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٦.

فيمكننا ملاحظة أنّ خطاب أبي فراس متشبع بلهجة القرابة التي ذكرناها، حيث تمتلئ قصائد أبي فراس الموجهة لسيف الدولة بمثل هذه العبارات الأخوية، هذا ما يجعلها خصيصة مهمة من خصائص شعره، والقيمة التأدبية لهذا الأمر تكمن في أمرين؛ أحدهما التخفيف من حدة الخطاب الموجه لسيف الدولة، حيث يجعل اللوم والعتاب الموجه مبرراً بحالة القرب الاجتماعي بين الطرفين، وهذا مما يقلل من شدة تهديد الخطاب حال صدوره. والآخر تقوية الحجة ضد سيف الدولة ورفع العذر عنه كما لاحظناه في البيت الأخير من الأبيات ما قبل السابقة؛ وبالتالي يؤدي ذلك لمزيد من التهديد لوجه سيف الدولة، حيث يتضمن ذلك قدرًا أكبر من اللوم والعتاب، مما يزيد من جرعة التهديد للوجه بطبيعة الحال؛ لذلك يمكن عد التوسل بهذه العلاقة في الخطاب أمرًا يؤدي لتوازنه من جهة التأدب، فيزيد حدته من جهة ويخففه من جهة أخرى.

المبحث الثالث: غايات الخطاب

إنّ من الأمور التي تحدد مدى التأدّب اللازم في الخطاب هو غايات المتكلّم من خطابه، فالمتكلّم عندما ينتج خطابه لابد أن تكون هناك علة غائية لهذا الخطاب تدور في ذهن المتكلّم عند إنتاج خطابه، وهذه العلة الغائية في معظم الأحيان ترتبط بالمخاطب والتأثير عليه من خلال ذلك الخطاب، وهذا الأمر قد يدفع المتكلّم لأن ينتهج نهجًا خاصًا في خطابه بغية تحقيق ذلك الأثر المطلوب، هذا النهج الخاص الذي تفرضه غايات الخطاب يؤثر بشكل كبير على تأدّب الخطاب من عدمه، فكلما كانت غايات الخطاب ضرورية التحقق لدى المتكلّم ألزمه ذلك أن يزيد من تأدّبية خطابه، وكلما كان تحقق غايات الخطاب منحصراً في هذا الخطاب أو في هذا المخاطب خاصة زادت درجة التأدّب في الخطاب.

وقد أشار القدماء إلى مراعاة أغراض الخطاب في الشعر، يقول ابن رشيق: "فأول ما يحتاج إليه الشاعر بعد الجلد الذي هو الغاية، وفيه وحده الكفاية حسن التأتّي والسياسة، وعلم مقاصد القول، ... ولكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائناً من كان، ليدخل إليه من بابه، ويدخله في ثيابه، فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفوت الناس وبه تفاضلوا"^١، فلا يمكن للدارس إغفال الغائية في أي خطاب، فإنّ لها حظاً وافراً من التأثير في الخطاب ما يجعلها جديرة بالاهتمام.

إنّ الإفهام من أهم مقاصد العملية التواصلية، فلا ينتج المنتج خطاباً إلّا وهو يرغب في إحداث علاقة تواصلية بينه وبين متلقي الخطاب، هذه العلاقة التواصلية تحمل غاية أو مقصد، فمن دون الغاية لا فائدة للخطاب بالنسبة إلى منتجه^٢، فيكون الكلام لغواً، وبذلك لا يتم الخطاب، فيطمح منتج الخطاب إلى إيصال ما يريده من خلال خطابه، وهو الإفهام كما ذكرنا، ويطلق عليه أيضاً القصد الإخباري للخطاب^٣، إلّا أنّ الغاية من الخطاب لا تنحصر في الإفهام؛ لأنّ الإفهام المجرد قد لا يكون سوى وسيلة إلى غاية أبعد، وهي الغاية العليا للخطاب، والتي يطلق عليها بالقصد التواصلية^٤، فخطاب المدح مثلاً قد يقصد منه غاية أعلى من مجرد إفهام المعنى للمخاطب، بل يكون القصد من إثارة

^١ ابن رشيق: العمدة، ج ١ ص ١٩٩.

^٢ فلا بد لكل خطاب من غاية إلّا أن تكون الفائدة من الخطاب منحصرة في نفس التواصل مجرداً عن الغاية، وهو افتراض ممكن ولكنه نادر الحدوث، ومع ذلك يمكننا أن نعد التواصل نفسه غاية للخطاب الذي لا يحمل غاية في مضمونه، فلا تتخذه القاعدة.

^٣ مقبول، إدريس: في تداوليات القصد، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، المجلد ٢٨ (٥)، ٢٠١٤م، ص ١٢١٢.

^٤ المرجع نفسه، ص ١٢١٢.

إعجاب الممدوح للحصول على الأموال منه، فقد يكون لخطاب الشكوى والعتاب مقاصد مختلفة، كالتأثير في نفسية المخاطب لحثه على القيام بعمل ما، وإنّ المنتج للخطاب يضع هذا القصد في نظره عندما ينتج خطابه، ومن هنا تتأثر العديد من مظاهر الخطاب بقصديته، وهذا ما يشمل التأدّب قطعاً. وبالنظر إلى شعر أبي فراس الذي كتبه في الأسر نلاحظ أنّ غاية الخطاب لديه هي من الأمور الضرورية التي تتوقف عليها حياة المتكلم، فهو يرمي من عتابه ولومه إلى عدة مرامٍ تتعلق بتحريره من الأسر الذي هو فيه، وذلك من خلال بيان حاله في الأسر وكون الأجدر بسيف الدولة تحريره منه، فهو يعبر عن مطلوبه صراحة في شعره، فقد قال:

وَلَكِنْ أَنْفَتُ الْمَوْتَ فِي دَارِ غُرْبَةٍ بِأَيْدِي النَّصَارَى الْغُلْفُ مَيْتَةٌ أَكْمَدِ

فَلَا تَتْرُكِ الْأَعْدَاءَ حَوْلِي لِيفْرَحُوا وَلَا تَقْطَعْ التَّسَالَ عَنِّي وَتَقْعُدِ

وَلَا تَقْعُدَنَّ عَنِّي وَقَدْ سِمْ فِدَيْتِي فَلَسْتُ عَنِ الْفِعْلِ الْكَرِيمِ بِمُقْعَدِ

فَكَمْ لَكَ عِنْدِي مِنْ إِيَادٍ وَأَنْعُمٍ رَفَعْتَ بِهَا قَدْرِي وَأَكْثَرْتَ حُسْدِي

تَشَبَّثَ بِهَا أَكْرَوْمَةٌ قَبْلَ قَوْتِهَا وَقُمْ فِي خَلَاصِي صَادِقَ الْعَزْمِ وَاقْعُدِ^١

لذلك نجد أنّ أبا فراس يزيد التودد والمدح لسيف الدولة لأن حاجته الملحة ينحصر قضاؤها على يديه، وهذا الأمر يجعل خطاب أبي فراس لا يتعدى حدود التوازن في التأدّب، لنلاحظ أنّ الأبيات السابقة قد عبرت عن مطلب ومرض أبي فراس الصريح وهو التحرر من الأسر من خلال الفداء، وهذا ما لا يمكن أن يقوم به غير سيف الدولة؛ لذلك نجد أنّ البيت الرابع من الأبيات السابقة يعبر عن مدح محض لسيف الدولة، أمّا بقية الأبيات فهي خالصة في الدلالة على مطلوب أبي فراس، وقد عبّر عن هذا المطلوب من خلال أسلوب النهي الصريح (فلا تترك/لا تقطع/لا تقعدن) وأسلوب الأمر الصريح (تشبّث/قم/واقعد)، وهذان الأسلوبان قد يكون فيهما تهديد لوجه المخاطب، فالأمر والنهي الصريحان من مهددات الوجه السلبي؛ لذلك حاول أبو فراس الموازنة في خطابه بإحلال البيت الرابع وسط أبياته التي يطالب فيها بتحريره مطالبة صريحة، وذلك تخفيفاً لشدة تهديد الخطاب، حتى لا يخرج هذا الخطاب عن حد التأدّب. وهذا الأمر ليس منحصراً بهذا المقطع من هذه القصيدة، بل يشمل الكثير من قصائد

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٧٦.

الشكوى والعتاب عند أبي فراس، فنجده يمزج بين المطالبة الصريحة أو غير الصريحة مع المدح والثناء تحقيقاً لهذه الموازنة في التأدب كما ذكرنا سابقاً.

وهذا التأثير لمقاصد الخطاب في تأدبه عند أبي فراس لا ينحصر في الأبيات التي يصرح فيها أبو فراس بمقصده فيها، بل يتعدى ذلك إلى كل شعره تقريباً، فإننا قد بينّا أنّ كل خطاب لا بد له من قصد أو غاية، فتأثير الغاية في الخطاب يسري حتى مع عدم التصريح بها، وهذا ما نجده في أبياته المختلفة التي يراعي المخاطب ويحاول فيها من خلال شكواه أن يبعث الرأفة في قلب سيف الدولة خدمة لغايات الخطاب، وهذا مثل:

وَهَلْ غَضَّ مِنِّْي الْأَسْرُ إِذْ خَفَّ ناصِري وَقَلَّ عَلَى تِلْكَ الْأُمُورِ مُسَاعِدِي

أَلَا لَا يُسَرُّ الشَّامِتُونَ فَإِنَّهَا مَوَارِدُ آبَائِي الْأَلَى وَمَوَارِدِي

وَكَمْ مِنْ خَلِيلٍ حِينَ جَانَبْتُ زَاهِدًا إِلَى غَيْرِهِ عَاوَدْتُهُ غَيْرَ زَاهِدٍ

وَمَا كُلُّ أَنْصَارِي مِنَ النَّاسِ ناصِري وَلَا كُلُّ أَعْضَادِ مِنَ النَّاسِ عاضِدِي^١

فإنّ الأبيات تلمّح لإرادة سيف الدولة نجدة صاحبها، إلّا أنّه لم يذكر ذلك صراحة وألمح إلى كون تركه في الأسر سيسر الأعداء والشامتين، وهذا ما لا ينبغي بالطبع، كما يحاول أبو فراس تأكيد حقيقة عدم وجود الناصر والخليل الذي يناصره، وهذا تعريض بسيف الدولة، إلّا أنّه لم يصرح بذلك تأدباً حتى لا ينفر سيف الدولة من الخطاب، فإن قال بأنّ سيف الدولة قد خذله، فهنا لا يوجد داعٍ لكي يحاول سيف الدولة أن يكذب مقولة أبي فراس؛ لأنّ المقولة قليلة وانتشرت ولن ينمحي هذا القدر، فلا ينبعث سيف الدولة لنجدة أبي فراس، ولا يتحقق المقصد من الخطاب، ولكنّ أبو فراس كان متأدّباً بحيث لم يذكر سيف الدولة صراحةً ليترك له المجال لكي يستثني نفسه ويخرجها من المقصودين بالخذلان، وهذا ما قد يشجعه لنجدة أبي فراس كل لا يكون مقصوداً من الأبيات السابقة. فيكون لتأدب الخطاب هنا دور بارز في تحقيق مقاصد المتكلّم من هذا الخطاب.

فإنّ المتكلّم هنا يريد إحداث تغيير في الواقع من خلال شعره، ما يلزمه باتباع طريقة معينة تقوي أسلوبه نحو هذا الغرض، فإننا نجد أنّ التحرير من الأسر هو غرض حقيقي ظاهري من الخطاب، بينما حتى في حال كان أبو فراس متشائماً بشأن تحريره أو غير متوقع لحصوله، كان يلتزم بنوع من

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٨٢.

التأدب أيضًا، إلا أنه نوع مختلف من التأدب، يمكن أن نقارن بينه وبين تأدبه لغرض تحريره من الأسر من خلال هذه الأبيات:

أوصيك بالحزن لا أوصيك بالجد جل المصاب عن التعنيف والفند
إني أجلك أن تكفى بتعزية عن خير مفتقد يا خير مفتقد
هي الرزية إن ضنت بما ملكت منها الجفون فما تسخو على رحد
بي مثل ما بك من حزن ومن جزع وقد لجأت إلى صبر فلم أجد^١

فنرى بأن المتكلم أدخل المخاطب في حالة وجدانية هي الحزن عليه، وهذه الحالة تقيد التوافق الوجداني، وهو نمط من أنماط التأدب، فالشاعر هنا لا يرقب من المتكلم سوى العلم بحاله، وتعزيته، ومع هذا نرى أن التأدب حاضر بشكل ما في الخطاب، فلم يفقد الخطاب قيمته التأدبية رغم عدم تفاؤل صاحبه بالنتيجة التي يريجوها، ويدل عليه أنه قد قال أيضًا:

ولا أسوغ نفسي فرحة أبدًا وقد عرفت الذي تلقاه من كمد
وأمنع النوم عيني أن يلم بها علمًا بأنك موقوف على السهد
يا مفردًا بات ييكي لا معين له أعانك الله بالتسليم والجد
هذا الأسير المبقى لا فداء له يفديك بالنفس والأهلين والولد^٢

فالمتكلم يشارك المخاطب في مشاعره، وهذا يزيد من قوة العلاقة بينهما، ويتيح إمكانية أكبر لاستقبال الخطاب بصورة أكثر مقبولة من طرف المخاطب، وهو يصب في مصلحة التأدب بشقيه الإيجابي والسلبي، فهو يعزز مكانة المخاطب عندما يشاركه في حزنه، فيظهر له بأن حزنه هذا حزن مهم لا ينبغي لأحد تجاهله، ومن جهة أخرى يحترم بذلك رغبات المخاطب ومشاعره ولا يمارس سلوكًا مناقضًا لما يريد أو يشعر، على أن في البيت الأخير إشارة إلى أن الأمل بالتححرر من الأسر لدى المتكلم ما يزال موجودًا، وهذا ما يزيد من أهمية هذا التأدب في الخطاب ويدفع نحوه كذلك.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٧٠.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٧١.

فإنّ لأغراض الخطاب أهمية كبيرة في تسيير سلوك المتكلّم في خطابه، وهذا ما لمسناه في الأبيات السابقة، فإنّ المتكلّم لما كان محتاجاً للمخاطب حاول بشتى الطرق التأدّبية أن يكسب رضا المخاطب ويشير اهتمامه الإيجابي من خلال تلك الأساليب التي ظهرت في الخطاب، وهذا ما يجعل الخطاب في تأدّبه أداة مهمة في يد المتكلّم لتحقيق الأغراض التي يريدها، فإنّ الأمر لا يتوقف عند ظهور هذه الأغراض في خطابه، بل تؤثر هذه الأغراض على أسلوب هذا الخطاب وطريقته ومساره.

المبحث الرابع: صفات المتكلم

تتعلق العوامل السابقة التي ذكرت لتأدبية الخطاب بالظروف الخارجية المحيطة بمنتج الخطاب، لكن لا يمكننا الاغفال عن أحد أبرز محددات تأدب أي خطاب ما، وهو ما يرتبط بمنتج الخطاب نفسه، فكل متكلم يريد أن ينتج خطاباً ما شخصية مستقلة تتسم بسمات خاصة؛ مما ينعكس على خطابه، فينتج أسلوباً خاصاً وطريقةً متفردة لا تتطابق مع غيره، ولو وضعنا هذا الأمر في مقياس التأدب، سنجد أن كل منتج لخطاب يتسم بخطابه بمقدار معين من التأدب يتولد من أسلوبه وطريقته، واللدان بدورهما متولدان من شخصيته وسماتها.

على سبيل المثال، إن سمة العلم والتعلم لدى فرد من الأفراد تزيد من احتمالية تأدب خطابه؛ لأن المتعلم أو المثقف عادة ما ينتزه عن بعض الألفاظ غير المؤدبة التي يقولها رجل الشارع غير المتعلم وممن لا عهد له بالعلم والثقافة، كما أن الفرد المتعلم يمتلك مهارات التحدث اللبق أكثر من غير المتعلم، فهذه الأسباب تجعل سمة العلم سمة فارقة ومؤثرة في تأدب الخطاب، وكذلك لو نظرنا لسمة التدين مثلاً، سنلاحظ أن خطاب المتدين أكثر تأدباً من غير المتدين^١؛ لأن المتدين يحاول الابتعاد عن الألفاظ البذيئة والناابية التي يمنعها الدين، كما يفرض الدين على المتدين قيوداً كثيرة في الكلام، كمنع القذف وسوء الظن بالآخر والفحش والغلظة في القول وبالمقابل الحث على الكلمة الطيبة واللين والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وغيرها، كل هذا يسهم في زيادة تأدبية خطاب المتكلم المتدين دون غيره. فهكذا بقية الصفات والسمات التي تكوّن شخصية المتكلم، فكل صفة أو سمة يمكن أن ترفع نسبة التأدب في الخطاب أو تقللها، وهذا ما أسميته بالتأدب الذاتي.

فإن صفات يتصف بها المتكلم كفيلة بتقييد خطابه ودفعه نحو المزيد من التأدب فيه أو العكس، هذه الصفات مثل التدين والعلم والكرامة والمروءة والالتزام بالأعراف العربية وغيرها من الصفات الحميدة التي يمكن أن تؤثر إيجاباً في تأدب الخطاب، وفي المقابل صفات مثل الجهل والتعصب وبساطة التفكير وقلة العقل وضعف الدين والبعد عن الأخلاق تبعد الخطاب عن تأدبه بطبيعة الحال، فإن كل هذه الصفات لها تأثير واضح في كثير من سمات الخطاب المنتج، فهي تؤثر في أسلوب الخطاب

^١ التدين المقصود هنا هو التدين بدين الإسلام والالتزام بتعاليمه، أما بالنسبة للأديان الأخرى فالحكم يختلف باختلاف كل دين وتعاليمه، فكلما كانت هذه الأديان تدعو منتسبيها إلى الأخلاق الفاضلة وحسن القول سيزيد تأدب خطاباتهم والعكس.

وطريقته، ويصل هذا التأثير إلى التأدب فيه، فالخطابات تمتلك قدرًا من التأدب يرجع أحيانًا للمتكلم نفسه وصفاته التي يتصف بها.

فحسبك حكاية علي بن الجهم المشهورة مع المتوكل العباسي، فقد نُقِلَ عن علي بن الجهم أنه "كان بدويًا جافيًا، فقدم على المتوكل العباسي، فأنشده قصيدة، منها:

أنت كالكلب في حفاظك للود وكالتيس في قِرَاع الخطوب

أنت كالذلو، لا عدمنك دلوًا من كبار الدلا كثير الذنوب

فعرف المتوكل حسن مقصده وخشونة لفظه، وأنه ما رأى سوى ما شبه به، لعدم المخالط، وملازمة البادية، فأمر له بدار حسنة على شاطئ دجلة، فيها بستان حسن، يتخلله نسيم لطيف، يغذي الأرواح، والجسر قريب منه، وأمر بالغذاء اللطيف أن يتعاهد به، فكان يركب في أكثر الأوقات، فيخرج إلى محلات بغداد، فيرى حركة الناس ولطافة الحضر، ويرجع إلى بيته، فأقام ستة أشهر على ذلك، والأدباء، والفضلاء، يتعاهدون مجالسته ومحاضرتة، فاستدعاه الخليفة بعد مدة لينشده، فحضر وأنشد:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

فقال المتوكل: لقد خشيت عليه أن يذوب رقة ولطافة.^١

فإننا نجد في هذه القصة المنقولة إشارة إلى ما ذكرناه من كون السمات الشخصية للمتكلم تؤثر على خطابه، فبالأمل في القصة نجد أنَّ الأبيات الأولى كانت تحمل مفاهيم ونظرة الرجل البدوي الذي لا يعرف اللطافة واللين، ثم بعد أن تبدلت هذه البداوة عندما انتقل إلى ذلك البستان في بغداد تغير أسلوب الخطاب ومضمونه من الخشونة إلى اللين والرقّة، وهذا يدل على ما بيناه من تأثير الصفات الشخصية لمنتج الخطاب على خطابه.

فحتى إن قيل بأنَّ البيئة قد تؤثر في الأسلوب ولا تؤثر في التأدب، وإنَّ الاستدلال بالمروية السابقة لا يدل على المطلوب، فالأبيات الأولى غير متأدبة بالنظر إلى ثقافة أهل المدن كالخليفة المتوكل، أمّا بالنظر إلى ثقافة المتكلم فإنَّ خطابًا كهذا يعد متأدبًا، ويرد هذا الأمر أنَّ تأدب الخطاب يقاس بضابطة المجتمع الذي قيل فيه الخطاب لا بنوايا منتج الخطاب، فإن المتكلم كثيرًا ما يحاول أن يكون كلامه

^١ ابن عربي، محمد بن علي بن عربي: محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ط١، دار اليقظة العربية، دمشق، ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م، ٢م، ص٨.

متأدبًا، إلا أنه يفسر بعكس ذلك لجهل المتكلم بقواعد اللباقة والتأدب، وهذا ما حصل في قصة علي بن الجهم مع المتوكل، فإن الأول كان يقصد بتلك الأبيات مدحًا للمتوكل، إلا أن تلك الأبيات في عرف أهل المدن وطريقتهم لا تمت للتأدب والمدح بصلة.

لذلك نرى أن المتوكل قد عرف هذا اللبس الذي وقع من المتكلم، والذي كان سببه جهل علي بن الجهم بألفاظ وأساليب أهل المدن في الكلام، فلم يعاقبه لمخالفته التأدب في الكلام، بل أمر بإسكانه في منطقة جميلة من بغداد ليعرف رقة أهل المدن وطريقتهم، وهذا ما صحح المفاهيم بشأن التأدب لدى علي بن الجهم حتى قال قصيدته الجميلة الرقيقة التي تتماثل مع رقة أهل بغداد، ومن هنا وجه الاستدلال في الحكاية، فإن الظروف المرتبطة بمنتج الخطاب قد تجعلان منه خطابًا خارجًا عن التأدب، سواء كان ذلك عن قصد من المتكلم أم من غير قصد كما في حالة علي بن الجهم، ولذلك وجب النظر إلى كل خطاب بعين منتجه أيضًا كما فعل المتوكل مع علي بن الجهم، وإلا وقعنا في سوء الفهم وضعف التشخيص.

وبالنظر لشخصية أبي فراس الحمداني وسماتها، نجد شخصيته تتسم بسمات تجعل من خطابه يحافظ على قدر من التأدب، وكما هو معروف إنَّ أبا فراس أمير من أمراء بني حمدان^١، فهو سليل هذه الأسرة العربية التي تحكم بلاد الشام آنذاك، وكما نعلم إن الفرد الذي ينشأ في أروقة قصور الحكم ينال قدرًا خاصًا من التأديب والتعليم والتربية لا يناله أي فرد آخر، كما تمتزج هذه التربية مع أدب قبائل العرب، فإنه ينتسب إلى قبيلة عربية معروفة، ومن آثار ذلك أنه قد تربى على الفروسية والأدب والشعر، فقد قال في بيان قيمة الشعر والأدب:

الشعرُ ديوانُ العَرَبِ أَبَدًا وَعُنْوَانُ الْأَدَبِ

لَمْ أَعُدْ فِيهِ مَفَاخِرِي وَمَدِيحَ آبَائِي النُّجُبِ

وَمَقْطَعَاتِ رُبَمَا حَلَّيْتُ مِنْهُنَّ الْكُتُبِ

لا في المَدِيحِ وَلَا الهِجَا ءِ وَلَا الْمُجَوِّنِ وَلَا اللَّعِبِ^٢

^١ انظر الزركلي: الأعلام، ج ٢ ص ١٥٥.

^٢ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ١٠.

فهذا يدل على أَنَّ أبا فراس كان مؤدِّبًا عارفًا بمنزلة الشعر ومكانته لدى العرب، فهو يحمل هذا الموروث الذي قد يؤثر بصورة غير مباشرة على أسلوبه في الكلام والخطاب، فالمختص العارف بفنون الشعر والأدب والبلاغة يبدع في استعمال اللغة بحيث يوصل المعاني التي يريد بها بأبهى صورة ممكنة، وهذا ما قد يزيد من مقبولية الخطاب ويجنبه المباشرة القبيحة؛ وبالتالي يصب ذلك في جانب تأدب الخطاب.

ونجد من الشواهد على تأديبه أَنَّهُ قال:

رَدَدْتُ عَلَى بَنِي قَطْنٍ بِسَيْفِي أَسِيرًا غَيْرَ مَرْجُوٍّ الْإِيَابِ
سَرَرْتُ بِفَكِّهِ حَيِّي نُمَيْرٍ وَسُوْتُ بَنِي سُمَيْعَةَ وَالضَّبَابِ
وَمَا أَبْغِي سِوَى شُكْرِي ثَوَابًا وَإِنَّ الشُّكْرَ مِنْ خَيْرِ الثَّوَابِ
فَهَلْ مُثْنٍ عَلَيَّ فَتَى نُمَيْرٍ بِحَلِّي عَنْهُ قَدَّ بَنِي كِلَابٍ^١

فإنَّه حين طلب جزاءً لفك أسر سيد بني قطن، لم يطلب سوى الشكر والثناء، فلم يطلب مالاً ولا غير ذلك، وهذا مما يدل على شهامة عربية يمتلكها أبو فراس، ومن شواهد تأدبه أيضاً ما ذكره في قصيدته المشهورة من روميَّاته:

تَغَابَيْتُ عَنْ قَوْمِي فَظَنُّوا غِبَاوَتِي بِمَفْرِقِ أَغْبَانَا حَصَى وَتُرَابٍ
وَلَوْ عَرَفُونِي حَقَّ مَعْرِفَتِي بِهِمْ إِذَا عَلِمُوا أَنِّي شَهِدْتُ وَغَابُوا
وَمَا كُلُّ فَعَالٍ يُجَازَى بِفِعْلِهِ وَلَا كُلُّ قَوْلٍ لَدَيَّ يُجَابُ
وَرُبَّ كَلَامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسَامِعِي كَمَا طَنَّ فِي لَوْحِ الْهَجِيرِ ذُبَابُ^٢

ثم قال:

أَنَا الْجَارُ لَا زَادِي بَطِيءٌ عَلَيْهِمْ وَلَا دُونَ مَالِي لِلْحَوَادِثِ بَابُ
وَلَا أَطْلُبُ الْعَوْرَاءَ مِنْهُمْ أُصِيبُهَا وَلَا عَوْرَتِي لِلطَّالِبِينَ تُصَابُ

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ١٧.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٢-٢٣.

وَأَسْطَوْ وَحُبِّي ثَابِتٌ فِي صُدُورِهِمْ وَأَحْلَمَ عَنْ جُهَالِهِمْ وَأَهَابُ^١

فإنَّك تجد أنَّ هذه الشخصية قد امتلكت خصال الأدب والخلق الرفيع، فهو يتكلم عن نفسه ويصوِّر لنا صورة الرجل الكريم الحليم الذي لا يسيء لغيره رغم إساءتهم له، فهو يترفع عن الجهالات والبذاءات، ويحلم عن المسيئين ولا يقابلهم بما قابلوه به، فشخصية كهذه امتلكت هذه الصفات السامية يجدر بها أن تمتلك قدرًا كبيرًا من التأدُّب في خطابها. فقد صرَّح أبو فراس بصورة مباشرة بأنَّه يمتلك هذه الصفات العالية وقال معقَّبًا يصف نفسه في أحد أبياته فقال:

خَلَائِقُ لَا يُوْجَدَنَّ فِي كُلِّ مَاجِدٍ وَلَكِنَّهَا فِي الْمَاجِدِ ابْنِ الْأَمَاجِدِ^٢

ولكن على الجانب الآخر علينا ألا ننسى أنَّ أبا فراس هو في الأصل قائد ومقاتل في الميدان^٣، فوحشية وشدة القتال والحروب قد تؤثر على ممارستها، فقد نجد بعض الشدة والغلظة والانفعال في خطابه، مما قد يظهر أنَّه سلبه بعض ملامح التأدُّب، فقد قال في سياق الفخر بأحد معاركه:

وَلَمَّا أَنْ طَعَتْ سُفْهَاءُ كَعْبٍ فَتَحْنَا بَيْنَنَا لِلْحَرْبِ بَابَا

مَنْحَنَاهَا الْحَرَائِبَ غَيْرَ أَنَّا إِذَا جَارَتْ مَنْحَنَاهَا الْحَرَابَا

وَشَدَّوْا رَأْيَهُمْ بِنِي قُرَيْعٍ فَخَابُوا لَا أَبَا لَهُمْ وَخَابَا

وَسُقْنَاهُمْ إِلَى الْحِيرَانِ سَوْقًا كَمَا نَسْتَأْقُ أَبَا لَا صِعَابَا

سَقَيْنَا بِالرِّمَاحِ بَنِي قُشَيْرٍ بِبَطْنِ الْعُثَيْرِ السُّمَّ الْمَذَابَا^٤

هذه الروح القتالية لدى أبي فراس تظهر فقط في سياقات الحروب وما شابهها، وهذا أمر طبيعي لا يمكن أن تعدّه خروجًا عن التأدُّب، فسياق الحرب والمعركة يقتضيان استعمال هذه الشدة في الخطاب، وهذا لا ينافي وجود التأدُّب، كما لا يليق اللين في هذا السياق، فإنا لو وافقنا على تعريف التأدُّب بحسن التصرف في الكلام، فلا يخرج كلامه هنا عن حسن التصرف، بل العكس قد يكون خارجًا عنه، لعدم ملائمته له.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٣.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٨٣.

^٣ انظر الزركلي: الأعلام، ج ٢ ص ١٥٥.

^٤ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ١٤-١٥.

وفي سياق تقييم علاقة أبي فراس بالدين ومدى تأثره بقيمه وتعاليمه، نجد أنَّ الروح الدينية حاضرة في شخصية أبي فراس من خلال شعره، فهو له العديد من الأبيات التي يعبر بها عن جانبه الديني، وخصوصًا تعبيره عن تشييعه لأهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأبرز شاهد على ذلك قصيدته المشهورة التي ينتصر فيها لأهل البيت ويهجو بني العباس، والتي مطلعها:

الدينُ مُخْتَرَمٌ وَالْحَقُّ مُهْتَصَمٌ وَفِيءُ آلِ رَسُولِ اللَّهِ مُقْتَسَمٌ
وَالنَّاسُ عِنْدَكَ لَا نَاسٌ فَيُحْفِظُهُمْ سَوَمُ الرُّعَاةِ وَلَا شَاءٌ وَلَا نَعَمُ
إِنِّي أَبَيْتُ قَلِيلَ النَّوْمِ أَرْقَنِي قَلْبٌ تَصَارَعَ فِيهِ الْهَمُّ وَالْهَمَمُ^١

كما نجد أنَّ لأبي فراس بعض الأبيات والمقطوعات الشعرية في الزهد والحكمة، منها:

وإنَّ البقا لله في كل مطلبٍ وإنَّ الفنا للخلقِ والخلقُ ذاهبٌ
وأسأله حسنَ الختامِ فإنني لرحمته في البدء والختم طالبُ^٢

وقوله في الاعتراف بأنعم الله تعالى:

فَلِلَّهِ إِحْسَانٌ إِلَيَّ وَنِعْمَةٌ وَلِلَّهِ صُنْعٌ قَدْ كَفَانِي النَّصْنَعَا
أَرَانِي طَرِيقَ الْمَكْرُمَاتِ كَمَا رَأَى عَلَيَّ وَأَسْمَانِي عَلَى كُلِّ مَنْ سَعَى^٣

وهذا مما يدل على أن هناك ميلاً دينياً لدى هذه الشخصية قد تدفع نحو المزيد من التأدب في الخطاب، خصوصاً مع الظروف الصعبة التي عاشها أبو فراس في الأسر، فهي تصقل الإنسان وتجعله أكثر تديناً، فإن هذا التدين يؤدّب صاحبه فلا يقوم بما لا يليق، خصوصاً لو علمنا أنَّ دين الإسلام بصورة خاصة يدعو إلى لون من هذا الأدب^٤، فقد قال الله تعالى في وصف نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم): {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم ٤)، ومن الواجبات التي يراها المسلم المتدين هو أن يقتدي بنبيه

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣٤٨.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢١.

^٣ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٤٦.

^٤ انظر عزام، محفوظ: الأخلاق في الإسلام بين النظرية والتطبيق، ط ١، دار الهداية للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٥.

في هذه الصفات التي يتصف بها امتثالاً لقوله تعالى: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } (الأحزاب ٢١).

فمن هنا يمكن الحكم على شخصية أبي فراس بأن لها نصيباً من التأدب نتيجة لما امتلكه من ظاهر التدين، فالتأثر بالدين كثيراً ما يسري لطريقة وأسلوب المتكلم في خطابه، فغالباً ما يتمكن متلقي الخطاب من معرفة مستوى تدين صاحبه من خلال تتبع الأساليب والألفاظ والطرق التي ينتهجها في خطابه.

وبالمحصلة يمكن الاستنتاج أن شخصية أبي فراس قد امتزجت فيها عدة صفات ذاتية أدت في نهاية المطاف إلى كون أبي فراس مهذباً في نفسه، وهذه الصفات التي تتمثل في الشهامة والخلق الرفيع وبعض من التدين والحكمة، هي في حقيقة الأمر مؤثرة في الخطاب الذي يصدر عن صاحبها. إلا أن هذه الصفات قد تخفض من تأدب الخطاب في أحيان قليلة أخرى، فهذه الصفات العالية الرفيعة قد تجعل من صاحبها شخصية مرموقة، وهذا الأمر قد ينعكس على الأنا الخاصة بالمتكلم، فتضخم الذات وعلوها قد يقلل من سقف التأدب الذي يصدر من صاحبها، وذلك بالنظر إلى أن المستويات العالية من التأدب في الخطاب إفراط في التأدب ومبالغة فيه، وهذا الإفراط في التأدب من قبل شخصية عالية القدر قد يفهم من قبل المخاطب أو المتلقي بصورة معاكسة، فيخشى المتكلم أن يعد التأدب هنا إذلالاً للنفس وتقليلاً من قيمة الذات العالية، وهذا ما اصطلح عليه بـ(بتهديد الوجه الإيجابي للمتكلم)، وهنا قد يلجأ المتكلم لخفض مستوى التأدب في خطابه لدرجة لا تدخله في حالة اللا تأدب من جهة ولا تقلل من قيمة ذاته بالإفراط في التأدب من جهة أخرى، وهذا ما يدخل الخطاب في حالة من التوازن بين التأدب واللا تأدب.

خاتمة

خطاب الشكوى والعتاب مع طبيعته المهددة لوجه المخاطب إلا أن هناك عوامل قد تحد أو تزيد من تهديد هذا الخطاب، فإنّ العوامل في خطاب أبي فراس قد اجتمعت للتقليل من حدة خطاب الشكوى والعتاب بصورة معينة، فإننا بعد أن عرضنا هذه العوامل التي تجعل من الخطاب خطاباً متأدياً، نستنتج أنّ هذه العوامل في جملتها تصب لصالح التأدّب في الخطاب، وهذا يمثل مبررات ومسوغات لمستوى التأدّب في خطاب الشكوى والعتاب لدى أبي فراس الحمداني، وقد توضّح لدينا أنّ الخطاب هنا يستلزم من صاحبه أن يجعله في غاية التأدّب، وهذه العوامل التي تحوّلت لمسوغات تستدعي تطبيقاً عملياً للتأدّب على الخطاب، حتى تتماثل المسوغات مع الخطاب المنجز.

فشخصية كل من المتكلّم والمخاطب تلعب دوراً مهماً في مدى تأدّب الخطاب، كما تؤثر أغراض الخطاب في تحويله لخطاب متأدّب في أسلوبه، ولا يقتصر هذا التأثير على مستوى التأدّب العام فحسب، بل يدفع منتج الخطاب لاستخدام طرق وأساليب خاصة في الخطاب تؤدي إلى نوع خاص من التأدّب الذي يستهدفه منتج الخطاب، فإنّ مسألة التأدّب في الخطاب ليست مجرد مقياس كمقياس الحرارة، بل هي مجموعة من العمليات المعقدة التي يقوم بها منتج الخطاب لتسييره في جانب معيّن لتحقيق نتيجة محددة.

تكشف هذه العوامل عن عدم كون مسألة التأدّب في الخطاب مسألة بسيطة، فتداخل كل هذه العوامل يؤدي إلى التأثير في الخطاب تأثيراً ملموساً، وهذا الأمر لا يمكن قياسه بسهولة؛ حيث يتوجب على الدارس أن يضع كل عامل من تلك العوامل في الاعتبار حين مقارنة وتحليل خطاب كخطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس، فلا يمكن أن يفهم أو يحلل الباحث أيّ علامات وظواهر تتعلق بتأدّب الخطاب من دون فهم العوامل والمسوغات التي تدفع منتج الخطاب إلى أن ينتهج نهجاً محدداً في خطابه يفضي إلى قدرٍ معيّن ومحدد من التأدّب.

كذلك تقيّدنا دراسة هذه العوامل على معرفة الأسلوب الأنسب الذي يتطابق مع ما تتطلبه ظروف الخطاب، فقد ورد في تعريفات التأدّب حقيقة أنّه يتعلق بالتصرف المناسب^١، وهذه المناسبة يمكن قياسها من خلال التعرف على ظروف إنتاج الخطاب، هذه الظروف تشمل كل ما يتعلق بالمتكلّم (منتج

^١ راجع صفحة ١٤-١٥ من البحث.

الخطاب) والمخاطب وغيرهما مما له علاقة بإنتاج الخطاب، وهنا قد ظهر من خلال التتبع أنّ هذه العوامل تلعب دوراً كبيراً في تحديد أسلوب خطاب أبي فراس؛ وبالتالي مقدار تأدّبه.

فانطلاقاً من شخصية المخاطب بخطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس ظهرت مميزات المخاطب التي أثّرت بشكل كبير في كون التزام الخطاب بما يقتضيه التأدّب، فالملك والسلطة التان يمتلكهما المخاطب هي من أبرز العوامل التي تفرق قيودها على أي خطاب موجه لمن يمتلك هاتين الصفتين المهمتين، وسيظهر لدينا في الفصول القادمة مدى تأثير هذه الصفات المهمة بخطاب أبي فراس.

يكتمل فهم هذا التأثير عند معرفة طبيعة العلاقة بين طرفي الخطاب، فالخطاب قائم على طرفيه، وهنا نجد أنّ هذا العامل المهم قد يؤدي في خطاب أبي فراس إلى مزيد من التأدّب من جهة كون اقتضاء هذه العلاقة للاحترام والتقدير المتبادل من الطرفين، وقد تؤدي كذلك إلى التحرر من قيود التأدّب من جهة أخرى هي كون هذا القرب مؤدياً لتقليص المسافة الاجتماعية بين الطرفين، وعند حصول هذا القرب الاجتماعي قد تخف القيود على المتكلّم مما يوقعه في الخروج عن التأدّب أحياناً.

هذان العاملان المتعلقان بالمخاطب يلاحظ تأثيرهما على الخطاب من خلال استعمال المتكلّم لبعض الصيغ والعبارات والأساليب التي تختص بأصحاب السلطة، كما تدفع الخطاب إلى مزيد من التواضع والتذلل والتودد، ومن جهة أخرى قد يخرج الخطاب عن رسميته اتكّالاً على طبيعة العلاقة بين المتكلّم والمخاطب.

أمّا ما يتعلق بالمتكلّم، فقد اتضح تأثير غاية الخطاب لدى أبو فراس، فخطاب الشكوى والعتاب هنا يتعلق بغاية يريد المتكلّم تحقيقها، هذا الأمر يدفع الخطاب نحو التصريح والتلميح بهذه الغاية مراراً وتكراراً، وهذا ما سترك بصمته التأديبية على الخطاب، فغايات الخطاب التي يريد المتكلّم تحقيقها تعدّ أمراً جوهرياً عند الحديث عن تأدّب خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس، فعندما لا تفهم الغاية من الخطاب لا يمكن فهم الخطاب فهماً تاماً، كما ستفسر لنا هذه الغايات كثيراً من الظواهر التي تتعلق بالتأدّب في الخطاب.

وأخيراً لا بد من وجود صفات ذاتية يحملها المتكلّم تؤثر بشكل واضح في تأدّب خطابه، فالخطاب لا بد أن يرتبط بمؤلفه قطعاً، فالمؤلف هو من يسيّر الخطاب ويقوده ويشكّله، ومن البديهي أنّ ما يتصف به هذا المؤلف ينعكس في خطابه، فثقافة هذا المؤلف وعلمه وأدبه وخصاله الشخصية تظهر

فيما ألفه، وقد انتصحت معالم شخصية أبي فراس التي سيكون من الطبيعي أن تجعل من خطابه خطاباً فريداً يلتزم بحد معين من التأدب العام الذي يمنع من حدوث التجاوز إلى حالة اللا تأدب.

كما تبرز بعض سمات الخطاب التي تكون نتيجة لتداخل هذه العوامل المختلفة، فرسمية مخاطبة الملوك عندما تتعارض مع عفوية مخاطبة الأصحاب والرفقاء، يحدث تضارب بين هذين الأسلوبين مما ينتج لنا طريقة مميزة ينتهجها الخطاب، فتراه حيناً يلتزم بما تقتضيه مخاطبة الملوك والسلاطين، فيتذلل أبو فراس في بعض أبياته لسيف الدولة ويتودد منه، ثم تجد أن في هذا التودد والتذلل شيئاً من لوم الأصحاب، مثل قوله:

فيا مُلبِسي النُعمى الَّتِي جَلَّ قَدْرُهَا لَقَدْ أَخْلَقْتَ تِلْكَ الثِّيَابَ فَجَدِّدِ^١

فمن جهة هو يخاطبه بما يليق أن يخاطب به الملوك والحكام، فيمدحه ويثني عليه، بل يعترف له بالأفضال جليلة القدر، أما الشطر الثاني فيدخل فيه لوم الأصحاب وعتابهم، فكأنه يعتب على مخاطبه لكونه قد قطع عليه النعم والأفضال، وهنا إشارة إلى عدم الامتثال لما يطلبه الشاعر، فهنا تبرز غاية هذا الخطاب، فتتصارع العوامل المختلفة في بيت واحد من أبيات أبي فراس، فمكانة المخاطب وعلاقته بالمتكلم وغاية المتكلم من خطابه، هذه العوامل الثلاثة جميعها أثرت بصورة واضحة في هذا البيت.

هذا التأثير متعدد العوامل جعل لهذا البيت أسلوباً وطريقة خاصة، فهو يمثل صورة مصغرة عن خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس، فبنفس الطريقة تتعاقب العوامل تأثيراً على الخطاب فتتحتة بصورة مميزة وفريدة.

كل هذه العوامل وتأثيراتها تساهم بصورة ما في تكوين وصقل المشهد العام لتأدب خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس، ولذا تبرز ظواهر مثيرة وملفتة تتعلق بتأدية هذا الخطاب بالخصوص، هذه الظواهر ستكتشف وتُحلل وفقاً للعوامل السابقة الذكر، وهذا ما سيكون في الفصول الآتية.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٧٦.

الفصل الثاني:

خطاب الشكوى والعتاب مهددًا للوجه

- تهديد
- المبحث الأول: الأفعال المهددة للوجه الإيجابي للمخاطب
- المبحث الثاني: الأفعال المهددة للوجه السلبي للمخاطب
- خاتمة: تهديد الوجه بين الإيجابي والسلبي

تمهيد

لقد أبرزنا سابقاً أنّ خطاب الشكوى والعتاب يمتاز بعدة سمات، أهمها كونه خطاباً مهدداً للوجه بطبيعته؛ لذلك قررت في هذا الفصل أن أتوسع في بيان هذه الفكرة، مبيّناً أوجه التهديد التي يحدثها خطاب كهذا، مستنداً في بيان ذلك على شعر أبي فراس في الشكوى والعتاب، فإن هذا الخطاب الذي يتضمنه شعر أبي فراس يمثل حالات التهديد للوجه بأنواعه وأقسامه المختلفة.

وبالحديث عن التهديدات للوجه، فإن مصطلحنا هذا استعرناه من نظرية الوجه التي شرحناها في مقدمة هذا البحث^١، وإننا لتوضيح هذا المصطلح أكثر يمكن أن نطلق عليه أيضاً الانتهاكات لحالة التأدّب في الخطاب، أيّ الأفعال التي تخرج بالخطاب من حالة التأدّب إلى حالة اللاتأدّب. وهذه التهديدات قد قسّمت لعدة أقسام، فوفق نظرية الوجه قسّم الوجه لقسمين مختلفين؛ وبالتالي قسم التأدّب وانتهاكاته لهذين القسمين أيضاً، فإنّه عندهم ينقسم إلى وجه إيجابي وآخر سلبي، يتعلق الأول منهما بتثمين الذات واحترامها وتقبل الآخرين لها^٢. أمّا الثاني فيتعلق باستقلالية الذات وحريتها والحفاظ على حرمة الخاص^٣. فإنّ الالتزام بحاجات الوجه الإيجابي يعد (تأدّباً إيجابياً)، والالتزام بحاجات الوجه السلبي يعد (تأدّباً سلبياً)، وأمّا التهديدات للوجه فتتنقسم كذلك تبعاً لهذين القسمين إلى (تهديدات للوجه الإيجابي) و(تهديدات للوجه السلبي).

إنّ التهديدات للوجه بحد ذاتها يمكن رصدها من خلال الخطابات المختلفة على نحوين، فإن بعضها يكون مباشراً في الكلام، لا يستتر معناه خلف الألفاظ والأساليب، وهذا يكون عادة أشدّ تأثيراً وأقوى انتهاكاً وأوقع في نفس المخاطب، ويمكن أن نطلق عليه (التهديدات المباشرة للوجه)، والبعض الآخر يكون مستتراً في الكلام، ملمحاً له تلميحاً، يتوسل ما هو أبعد من المعاني المباشرة للألفاظ، ويمكن أن نطلق عليه (التهديدات غير المباشرة للوجه) أو (التهديدات الخفية للوجه).

بين التقسيم الأول والثاني ستتولد لدينا أربعة أقسام لهذه التهديدات، وهي:

١- التهديدات المباشرة للوجه الإيجابي.

٢- التهديدات المباشرة للوجه السلبي.

^١ انظر صفحة ٢٢ من البحث.

^٢ براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ١٥٨.

^٣ المرجع نفسه، ص ١٥٨.

٣- التهديدات غير المباشرة للوجه الإيجابي.

٤- التهديدات غير المباشرة للوجه السلبي.

تبرز التهديدات للوجه في خطاب الشكوى والعتاب لدى أبو فراس في شعره الذي يخاطب فيه سيف الدولة ويؤنبه على عدم نصرته له وتحريره من الأسر، ولكن لكون العلاقة المتميزة بين أبي فراس وسيف الدولة وللعوامل الأخرى التي ذكرناها في الفصل السابق، نتوقع أن تكون هذه التهديدات المباشرة نادرة، فإن أبا فراس قد يلجأ للتلميح أكثر منه للمباشرة والتصريح، إلا أن هذا الاستنتاج قد لا يكون دقيقاً إن لم نصرف النظر عن شدة المشاعر السلبية التي يحملها أبو فراس في أسره وأنّ هذه العلاقة المتميزة مع سيف الدولة قد تكون باباً لرفع الكلفة بين المتخاطبين مما يتيح حرية أكبر في الخطاب، وهنا تبرز ثنائية تأدبية عند أبي فراس يتصارع فيها وجوب التأدّب أو وجوب جعل التهديد غير مباشرٍ مراعاة للمخاطب، مع الحرية التي تمنحها عدم الكلفة بين المتخاطبين والتي يستغلها المتكلم للتنفيس عن مشاعره القوية، وهذا ما يجعل الخطاب يتأرجح بين المباشرة وعدمها، وبين التأدّب واللا تأدّب. وبناءً على ذلك سنشرع في بيان هذه التهديدات وطرقها ووجوهها في خطاب الشكوى والعتاب لدى أبو فراس الحمداني في المبحثين التاليين.

المبحث الأول: الأفعال المهددة للوجه الإيجابي في خطاب الشكوى والعتاب

إنّ تهديد الوجه الإيجابي ينتج عن تقليل احترام المخاطب ومهاجمة ذاته، فهو يعتمد على بيان أنّ المتكلّم لا يعير اهتمامًا بمشاعر ورغبات المخاطب^١، وعند مراجعة شعر أبي فراس نلاحظ قلة وجود هذا اللون من التهديد بصورة مباشرة وصريحة، فالمشاعر السلبية التي يحملها أبو فراس تجاه سيف الدولة تحاول أن تظهر لتجعل هذا التهديد حاضرًا في خطابه، إلّا أنّ العوامل التي ذكرناها تحول دون ذلك^٢، فتهديد الوجه الإيجابي للمخاطب يعدّ أشدّ أنواع التهديد وأبعدها عن التأدّب، وهذا الأمر لا يخدم غرض أبي فراس من خطابه، كما لا يتناسب مع العلاقة التي بينهما؛ لذلك نجد هذا التهديد المباشر للوجه الإيجابي يظهر في شعره بصورة متفرقة وغير مباشرة في أغلب حالاته.

استنادًا إلى تقسيمات بروان ولفنسن^٣ يمكننا أن نقسّم الأفعال المهددة للوجه الإيجابي للمخاطب إلى مجموعتين، وثم نرصد وجود هذه الأفعال أو الحالات في خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس، والمجموعتان هما:

١ - التقييم السلبي للآخر

المجموعة الأولى من الأفعال المهددة للوجه الإيجابي هي الأفعال التي تهدد وجه المخاطب الإيجابي من خلال قيام المتكلّم ببيان تقييمه السلبي لوجه المخاطب، وهذه الأفعال تعتمد على تخطئة المخاطب أو الاستقاص منه أو الحطّ من قدره ومكانته، وهي تشمل (الاستتكار / الانتقاد / الاحتقار / السخرية / التذمّر / التوبيخ / الاتهام / الإهانة / الاختلافات / المناقضات / التحديات)^٤.

أ - الاتهام والتوبيخ والانتقاد

خطاب أبي فراس المدروس يعبر عن شكواه وعتابه، وإنّ خطاب الشكوى والعتاب كما بيّنا في المهاد النظري يحتوي في نفسه على رمي التهمة تجاه المخاطب، فالمتكلّم يشتكي من أمر ما ويعتب على المخاطب لحدوث ذلك الأمر، فهو يحتوي على نسبة هذا الأمر السلبي للمخاطب، ومن هذا الباب

^١ براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ١٦٥.

^٢ راجع الفصل الأول من البحث.

^٣ براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ١٦٥-١٦٦.

^٤ المصدر نفسه، ص ١٦٦.

يحدث التهديد للوجه الإيجابي للمخاطب من خلال تهمة أو انتقاد أو توبيخ يرميها المتكلم على المخاطب، فنلاحظه في إحدى قصائد الشكوى والعتاب يأتي ببيت يرمي فيه سيف الدولة بتهمة بصورة مباشرة، فيقول:

تَنَكَّرَ سَيْفُ الدِّينِ لَمَّا عَتَبْتُهُ وَعَرَّضَ بِي تَحْتَ الْكَلَامِ وَقَرَّعًا^١

هنا نجد أبا فراس يرمي سيف الدولة بأنه خذله وتنكَّر له وعَرَّض به وقَرَّعه بدلاً من نصرته وتحريره، وهذا يعد مهاجمة لوجه سيف الدولة الإيجابي؛ لأنَّ هذا الادعاء يحط من مكانة سيف الدولة، فهذه الأفعال لا تليق بصاحب الشهامة والمروءة، ومما نلاحظه أيضاً أنَّ الشاعر لم يسمَّ سيف الدولة باسمه الشائع (سيف الدولة)، بل أطلق عليه لقب (سيف الدين)، وهذا الأمر له جانبان؛ الأول منهما أنَّه أراد أن يذكر لقباً أعظم من لقبه الشائع حتى يكون الذم في حقه أكبر وأوقع، فالدين أعظم من الدولة، كما تحمل مفردة الدين دلالة أخلاقية، فاستعمالها يدل على قبح الفعل المنسوب لمن لقب بأنه (سيف الدين)، وهذا مما يزيد التهديد للوجه شدةً. والجانب الآخر هو أنَّ أبا فراس قد يكون أراد باستعماله لهذا اللقب أن يجعل لنفسه مجالاً للتهرب والتملص من التهديد المباشر، إلّا أننا يمكن أن نلاحظ أن هذا الأمر لم ينجح، فالمقصود بهذا الذم معلوم وواضح لدى كل قارئ أو مستمع لهذا البيت.

ومما يجد الإشارة له أنَّ هذه القصيدة التي ورد فيها هذا البيت قد تكون متأخرة عن قصائده الأخرى من الروميات، فمما يدل على ذلك قوله في هذا البيت (لَمَّا عَتَبْتُهُ)، فإنَّ التكرار للشاعر جاء بعد العتاب السابق، وهذا العتاب قد يكون متمثلاً في شعره السابق الذي عاتبه فيه، فإنَّ هذا الأمر يدل على أنَّ هذا البيت جاء كردة فعل لموقف سيف الدولة من العتاب، فقد وصل أبو فراس لمرحلة لم يعد فيها يراعي وجه سيف الدولة بالصورة التي كان يراعيه فيها سابقاً. ونجد أنَّ الشاعر واصل الكلام عن سيف الدولة باستعمال الضمير في بيتين وأتبعهما بثالث يبين فيه نتيجة ما توصل له، فقال:

فَقُولَا لَهُ مِنْ أَصْدَقِ الْوُدِّ أَنَّنِي جَعَلْتُكَ مِمَّا رَابَنِي الدَّهْرَ مَفَرَّعًا

وَلَوْ أَنَّنِي أَكْنَنْتُهُ فِي جَوَانِحِي لِأَوْرَقَ مَا بَيْنَ الصُّلُوعِ وَقَرَّعًا

فَلَا تَغْتَرَّرِ بِالنَّاسِ مَأْكُلٌ مَنْ تَرَى أَخُوكَ إِذَا أَوْضَعْتَ فِي الْأَمْرِ أَوْضَعًا^٢

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٤٦.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٤٦.

يوصل أبو فراس تهديد وجه سيف الدولة بتقبيح عمله السابق الذي ذكره في البيت السابق، حيث أنه يرى بأن سيف الدولة هو الملجأ والمفرج من كل خطوب الدهر، وأن حبه يسكن دواخل الشاعر، إلا أن سيف الدولة لم يحفظ هذه المكانة بتفريطه وخذلانه وتكرهه للشاعر، فهذا يزيد قوة التهديد الذي بدأ في البيت الأول، والبيت الثالث في هذا المقطع تعريض بسيف الدولة، وهو يعد أصناف التهديد غير المباشر للوجه الإيجابي، إلا أن إيراد إياه في سياق هذه الأبيات يخدم التهديد المباشر الذي ورد قبل هذا البيت، فنفي الأخوة عن سيف الدولة يعد نتيجة لتكره وتقريعه للشاعر.

ما نلاحظه في هذا التهديد المباشر لسيف الدولة أنه في هذه القصيدة رغم كونها من القصائد الروميات إلا أن أبا فراس لا يخاطب فيها سيف الدولة أصلاً، وإنما هو هنا يخاطب شخصيتين غامضتين، ففي البيت الأول يستعمل ضمير الغائب (تَنَكَّرَ/عَرَّضَ/قَرَّعاً) إشارة لسيف الدولة ولا نجده يستعمل ضمير المخاطب عند الإشارة له، ثم نجده يستعمل ضمير المخاطب المثني في البيت الثاني (فقولاً) إشارة للمخاطبتين المجهولين، كما تبتدئ القصيدة ببعض الأبيات التي منها:

خَلِيلِي لِمَ لَا تَبْكِيَانِي صَبَابَةً أَبَدَلْتُمَا بِالْأَجْرَعِ الْفَرْدَ أَجْرَعاً^١

وهذا البيت يدل على أن المخاطبتين في قصيدته هما خليلان للشاعر، وقد لا يكون ثمة شخصيات حقيقية يخاطبها الشاعر، وإنما هي شخصيات وهمية اخترعها الشاعر وأخذ في مخاطبتها في شعره، فابن خالويه يذكر أن مناسبة القصيدة تتعلق بتقريع سيف الدولة لأبي فراس في أحد كتبه المرسلة إليه^٢، ولا يوجد أي ذكر لأخلاء الشاعر، إذاً هو أسلوب عربي قديم استعمله الشاعر، وقد يكون غرضه التعبير عن قطيعته مع سيف الدولة بحيث لم يرد حتى توجيه الكلام إليه، وعلى كل حال نجد أن هذا الأسلوب يخفف قليلاً من شدة التهديد الموجه لسيف الدولة، فالكلام إذا وجه للمخاطب مباشرة زاد من تأثيره عليه، أما توجيه الخطاب بضمير الغائب فقد يكون أقل تأثيراً على المخاطب.

ونجد في موضع آخر بيتاً آخر يمثل تهديداً مباشراً لوجه سيف الدولة الإيجابي، حيث يقول مخاطباً ومعاتباً سيف الدولة:

رَمَانِي كُلُّهُ غَضَبٌ وَعَتَبٌ وَأَنْتَ عَلَيَّ وَالْأَيَّامُ الْبُ

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٤٦.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٤٥.

وَعَيْشُ الْعَالَمِينَ لَدَيْكَ سَهْلٌ وَعَيْشِي وَحْدَهُ بِفَنَّاكَ صَعْبٌ

وَأَنْتَ دَافِعُ كُلِّ خَطْبٍ مَعَ الْخَطْبِ الْمُلِمِّ عَلَيَّ خَطْبٌ^١

فمن الواضح أنَّ أبا فراس في البيتين الثاني والثالث يرمي سيف الدولة بأوصاف لن تعجبه، فعندما يتهمه بأنَّه لا يعامله المعاملة الحسنة التي يعاملها سيف الدولة لبقية الناس، فهذا قدح في شخصيته، فقد قال له (أنت... عليّ خطب)، وهذه العبارة فيها اتهام صريح لسيف الدولة، ومثل هذا الاتهام لا بد أن يوقع أثره في الخطاب، كما أنَّ العبارة لا تخلو من معنى التوبيخ، فالشاعر في هذه الأبيات يوبخ المخاطب لا مجرد أنَّه ينتقده أو يتهمه، والتوبيخ أشد من الاتهام المجرد؛ لذلك نرى أنَّه قد أحاط هذا التهديد بعدة عوامل تخفف حدة هذا التهديد، كالجملية الاعتراضية في البيت الثالث (وَأَنْتَ دَافِعُ كُلِّ خَطْبٍ) التي من شأنها أن تلطف الخطاب وتخفف من حدة تهديده للمخاطب.

وفي ذات القصيدة التي بدأها بالتهديد المباشر للوجه الإيجابي لسيف الدولة، ختمها بذلك أيضًا فقال في أواخر أبياتها:

فَلَمَّا حَالَتْ الْأَعْدَاءُ دُونِي وَأَصْبَحَ بَيْنَنَا بَحْرٌ وَدَرْبٌ

ظَلَلْتُ تُبَدِّلُ الْأَقْوَالَ بَعْدِي وَيَبْلُغُنِي إِغْتِيَابُكَ مَا يُغِيبُ^٢

حيث الاتهام المباشر لسيف الدولة بأنَّه قد اغتاب الشاعر يمثل انتهاكًا صريحًا للوجه الإيجابي لسيف الدولة، فهذا توبيخ شديد لسيف الدولة وانتقاد لفعله، وهذا يزيد من شدة التهديد لوجهه الإيجابي، فمخاطبة الملك بهذه الصورة وتوبيخه تعد من مخرجات الخطاب عن التأدب، وهذا مما يدل على أنَّ هذه القصيدة وسابقتها مما وجدنا فيها تهديدًا مباشرًا للوجه الإيجابي هي قصائد وصل فيها أبو فراس لمرحلة شديدة جعلته ينتهك بعض ما كان ملتزمًا به من خطوط حمر في خطابه الأخرى.

ونجد بيتين يتيمين لأبي فراس في الشكوى يخاطب فيهما سيف الدولة بالظالم، فيقول:

إِلَيْكَ أَشْكُو مِنْكَ يَا ظَالِمِي إِذْ لَيْسَ فِي الْعَالَمِ مُعِدٌّ عَلَيْكَ

أَعَانَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ أَعِنَ مَنْ لَيْسَ يَشْكُو مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ^٣

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٨.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٩.

^٣ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٧٢.

وهذا الوصف (يا ظالمي) رمي للمخاطب بصفة سيئة شنيعة وهي الظلم، وهذه الصفة لا يمكن بأي حال من الأحوال إلا أن تكون مهددة للوجه، خصوصاً مع علمنا بأن سيف الدولة ليس مجرد رجل عادي، بل هو ملك يحكم الدولة الحمدانية، وهذه الصفة إن اقترنت بملك من الملوك كانت عليه تشنيعاً، فالظلم من أقبح الصفات التي قد يتصف بها ملك، ورمي سيف الدولة بهذه الصفة بصورة مباشرة لهُو من أشد التهديد لوجهه الإيجابي، لاستلزامه التقليل من صورته الذاتية، إلا أننا نلاحظ أنه قد خفف من هذا التهديد بإضافة ياء المتكلم للمنادى (ظالمي)، وهذا الأمر يشير إلى محدودية الظلم الذي يمارسه سيف الدولة، فهو ظلم مختص بالشاعر وليس ظلماً مطلقاً، وهذا قد يكون مما يسهم في تقليل حدة هذا التهديد وإن لم يكن كافياً.

ب- الاحتقار والسخرية والإهانة

هناك أفعال تعد هي أشد ما في هذه المجموعة من أفعال مهددة للوجه الإيجابي للمخاطب، وهي تشمل الاحتقار والسخرية والإهانة، فهذه الأفعال شديدة التهديد للوجه، وهي بعيدة كل البعد عن حالة التأدب المفترضة في خطاب أبي فراس الموجّه لسيف الدولة، فاستعمال أبي فراس لهذه الأفعال أمرٌ مستبعد ومستهجن، وهذا لأنّ مثل هذه الأساليب لا تخدم الغرض من خطاب أبي فراس، فالاحتقار يقوم على إنزال مرتبة المخاطبة والخط من شأنها بصورة كبيرة، وهذا يتنافى مع كون هذا المخاطب ملكاً، فيمكن أن يؤدي أسلوب كهذا لرفض سيف الدولة للخطاب جملة وتفصيلاً، كما تعمل الإهانة والسخرية ذات العمل في الخطاب، فهي أداة لإنزال قدر المخاطب في الخطاب، وهذا لا يليق بمخاطبة الإخوان، فضلاً عن الملوك والحكام؛ لأنّ أفعالاً كهذه هي بمنزلة إعلان القطيعة والعداوة بين الطرفين.

لذلك نجد أنّ جل ما ورد مشتملاً على هذه الأفعال لم يكن المخاطب فيه سيف الدولة، وإنّما يخاطب غيره من الشخصيات التي إما أن تكون عدوةً للشاعر أو ممن لا يأبه بعدواتهم، وهذا مثل خطابه في الأسر تجاه دمستق الروم، يقول مخاطباً له:

تَأْمَلْنِي الدُمُسْتُقُ إِذْ رَأَنِي فَأَبْصَرَ صَيْغَةَ اللَّيْثِ الْهُمَامِ

أَتُنَكِّرُنِي كَأَنَّكَ لَسْتَ تَدْرِي بِأَنِّي ذَلِكِ الْبَطْلُ الْمُحَامِي

وَأَنِّي إِذْ نَزَلْتُ عَلَى دُلُوكِ تَرَكْتُكَ غَيْرَ مُتَّصِلِ النِّظَامِ

وَلَمَّا أَنْ عَقَدْتُ صَلِيبَ رَأْيِي تَحَلَّلَ عِقْدُ رَأْيِكَ فِي الْمَقَامِ^١

نجد أنّ هذه الأبيات فيها تحقير وازدراء بالدمستق، فهي تهدد وجهه الإيجابي بشدة، ولا غرابة في ذلك، فالدمستق عدوّ للشاعر، وهو لا يرجو منه أي خير، فلا يخاطبه إلّا بما يناسب طبيعة العلاقة بينهما، وأشد ما قاله الشاعر في تحقير مخاطبه هذا والسخرية منه قوله:

أَمَّا مِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ عِلْجٌ يُعْرِفُنِي الْحَلَالَ مِنَ الْحَرَامِ

وَتَكْنُفُهُ بِطَارِقَةِ ثِيُوسٍ تُبَارِي بِالْعَثَانِينَ الضِّخَامِ

لَهُمْ خَلَقُ الْحَمِيرِ فَلَسْتَ تَلْقَى فَتَى مِنْهُمْ يَسِيرُ بِلا حِزَامِ

يُرِيغُونَ الْعُيُوبَ وَأَعْجَزَتْهُمْ وَائِي الْعَيْبِ يُوَجِّدُ فِي الْحُسَامِ

وَأَصْعَبُ خُطَّةٍ وَأَجَلُّ أَمْرِ مُجَالَسَةُ اللَّئَامِ عَلَى الْكِرَامِ^٢

فاستعمال ألفاظ كـ(علج/تيوس/الحمير/اللئام) فيها من الإهانة والتحقير ما يجعلها بعيدة كل البعد عن التأدّب في الخطاب، فالخطاب هنا خارج عن هذه الحالة التأدّبية العامة في شعر أبي فراس، وما يظهر هنا هو أنّ الشاعر وجد متنفسه في عدوه، فخرج من التأدّب إلى اللا تأدّب مع عدوه، وهذه الإهانات الشديدة في ظاهر الحال تسقط وجه المخاطب وتنزل من قدره، كما قد تؤثر أيضًا على وجه المتكلّم؛ لأنّها خارجة عن الأدب فتتنزل من قدر صاحبها، إلّا أن هذا الكلام غير تام، فذلك لا يمكن تعميمه في كل الحالات، فالمتكلّم إن وصف قبح المخاطب بعبارات تناسب هذا القبح لا يمكن أن نعد ذلك الكلام منافيًا للأدب ومنزلاً من قدر صاحبه؛ لأنّ الكلام وضع في موضعه المناسب، فإننا نجد القرآن الكريم قد استعمل ألفاظاً كـ(الكلب/الحمار)^٣ ولكنّ ذلك لم يعدّ خروجاً عن مقتضى التأدّب؛ لأنّ المقصود بهذه العبارات والأوصاف هم أطراف وجدّ فيهم قبح تناسب مع قبح هذه العبارات، فاستحقوا بذلك الاتصاف بهذه الأوصاف، فلا خروج عن الأدب باستعمال هذه العبارات بوصفهم بها على سبيل المجاز.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣٧١.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٣٧٢.

^٣ كما قوله تعالى: { فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ } (الأعراف - ١٧٦)، وقوله تعالى: { مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا } (الجمعة - ٥).

كما أنّ هذه الأوصاف في حد ذاتها لا تحمل قبلاً ذاتياً، وإنما هي أسماء حيوانات، ولكن وقوع القبح يحصل بتشبيه الإنسان بها، وهذا قبح اعتباري لا حقيقي، وبذلك لا يكون استعمال تلك الألفاظ مستهجناً أو منافياً للأدب إلاّ حينما يستعملها المتكلم في من لا يستحقها ولا تنطبق عليه، ولذلك كان الاستعمال القرآني موافقاً للأدب والذوق، وكذلك كان استعمال أبي فراس لهذه الألفاظ، التي أطلقها على العدو المحارب الكافر المستحق لها بنظره، ولكننا بغض النظر عن هذا لا ننكر كون هذه الألفاظ تحمل تهديداً لوجه المخاطب الإيجابي، وهذا التهديد مقصود من المتكلم.

هذه الأبيات هي ما نجده كتهديد صريح ومباشر لوجه المخاطب الإيجابي باستعمال هذه الأفعال، أمّا أغلب التهديدات للوجه الإيجابي في خطاب الشكوى والعتاب لدى أبي فراس مما ينتمي لهذه المجموعة تكون بأسلوب الانتقاد والاستنكار لا أكثر، وقد بيّنا أنّ هذا الأمر يرجع إلى أنّ التهديد المباشر للوجه الإيجابي يعد الأشد تأثيراً على المخاطب وهو لا يتناسب مع العلاقة القائمة بين المتخاطبين ولا مع الغرض من الخطاب، وإنّ هذه الأبيات القليلة التي شذت كانت نتيجة انحدار العلاقة بين المتكلم والمخاطب إلى أدنى حالاتها، ومع ذلك نجد أنّ أبا فراس استعمل بعض المخففات لتخفيف تهديد خطابه لسيف الدولة بعض الشيء احتراماً للعلاقة وأمثلاً في النجدة.

ج- المناقضات والاختلافات

يوجد صنف آخر من الأفعال المهددة للوجه في هذه المجموعة أقلّ تهديداً لوجه المخاطب الإيجابي من الأصناف السابقة الذكر، وهو يقوم على بيان خطأ المخاطب فحسب، فتخطئة المتكلم للمخاطب في أمر ما يهدد وجهه الإيجابي، فإننا نجد في خطاب أبي فراس عبارات تدل على تخطئة أبو فراس لسيف الدولة، هذه العبارات تهدد وجه سيف الدولة، وذلك يزيد بالنظر إلى مكانة سيف الدولة أيضاً، فالملوك لا ترمى تدبيراتهم وأفعالهم بالخطأ؛ لأنّ ذلك من شأنه استنقاص المخاطب واستنكار فعله، وهذا لا يتناسب مع العظمة التي يراها الملك أو الحاكم لنفسه، وبذلك تكون مثل هذه التعبيرات مهددة لوجهه الإيجابي.

ويمكن تبين ذلك من بيت يخاطب فيه أبو فراس سيف الدولة مستنكراً عليه:

فَلَا تَنْسِبَنَّ إِلَيَّ الْخُمُولَ عَلَيْكَ أَقَمْتُ فَلَمْ أَغْتَرِبْ^١

فالشاعر يظهر مخاطبه في صورة المخطئ الذي لا يقول الكلام الصادق، حيث يبين الشاعر بأن اتهامه بالخمول محض كذب. وهذا ليس البيت الوحيد الذي يصادم فيه أبو فراس مخاطبه؛ فطالما يحاول أن يظهر مخاطبه بصورة المخطئ الذي لم يتخذ القرار الصحيح، وهذا القرار الصحيح في معظم أبياته هو إنقاذه من الأسر، فيقول مخاطبًا سيف الدولة:

أَيَّنَ الْمَعَالِي الَّتِي عُرِفَتْ بِهَا نَقُولُهَا دَائِمًا وَنَفْعَلُهَا

يَا وَاسِعَ الدَّارِ كَيْفَ تَوْسِعُهَا وَنَحْنُ فِي صَخْرَةٍ نَزَلْزِلُهَا

يَا نَاعِمَ الثَّوبِ كَيْفَ تُبَدِّلُهُ ثِيَابُنَا الصَّوْفُ مَا تُبَدِّلُهَا^٢

يبين المتكلم للمخاطب سوء عمله وخطأه، وهذا مما يهدد وجهه الإيجابي، فإظهار المخاطب بهذه الصورة لا يستحسن بالنسبة إلى المخاطب، فهو إنقاص من قدره، لكنّ أبا فراس يريد من سيف الدولة النصرة والفكاك من الأسر، وهذا المطلوب يخالفه سيف الدولة، فلا يجد بداً من تخطئته في ذلك، ويواصل في قصيدته هذه تخطئة سيف الدولة:

إِذَا رَأَيْنَا أَوْلَى الْكِرَامِ بِهَا يُضِيعُهَا جَاهِدًا وَيُهِمِلُهَا

لَمْ يَبْقَ فِي النَّاسِ أُمَّةٌ عُرِفَتْ إِلَّا وَفَضْلُ الْأَمِيرِ يَشْمَلُهَا

نَحْنُ أَحَقُّ الْوَرَى بِرَأْفَتِهِ فَأَيَّنَ عَنَّا وَأَيَّنَ مَعِدِلُهَا

يَا مُنْفِقَ الْمَالِ لَا يُرِيدُ بِهِ إِلَّا الْمَعَالِي الَّتِي يُؤْتِلُهَا

أَصَبَحَتْ تَشْرِي مَكَارِمًا فَضْلًا فِدَاؤُنَا قَدْ عَلِمَتْ أَفْضَلُهَا

لَا يَقْبَلُ اللَّهُ قَبْلَ فَرَضِكَ ذَا نَافِلَةً عِنْدَهُ تُنْقِلُهَا^٣

يعمّق الشاعر هذه الفكرة بخطابه، فيذكر بأنّ سيف الدولة قد ضيع المكارم، ولم يكرم الشاعر وهو أحقّ بالإكرام من غيره، وأنّ الإنفاق وبذل الأموال في سبيل تحرير الشاعر من أسرهِ أولى من بقية

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٦.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٣٣٠.

^٣ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٣٣١.

المكارم، فلا يجب أن يبقى الشاعر في الأسر وسيف الدولة يبحث عن الفضائل والمكارم في أمور أخرى، والبيت الأخير يضرب فيه مثلاً جميلاً، بأنّ الله تعالى لا يقبل من عبده النافلة مع تضييعه الفريضة، والفريضة أولى بالعمل، وكذلك تحرير الشاعر وفكاك أسرهِ أولى من إنفاق المال في بقية المكارم، فلا فائدة من الإنفاق في مكارم أخرى مع بقاء أبي فراس في أسرهِ، فكأنما قد ضيّع سيف الدولة الواجب وعمل بالمستحب، وهذا الخطاب فيه تهديد لوجه سيف الدولة الإيجابي، فالإنسان بطبعه لا يقبل أن يقيّم عمله من هو أدنى منه، وكذلك الملك، فكونه ملكاً يجعله غير قابلٍ للتخطئة من رعيته، وإن لم يكن معصوماً، فيكون هذا بمثابة عدم احترام لشخصية هذا الملك، ومن هنا كان التهديد لوجهه الإيجابي. وفي واقع الأمر يعود هذا الأسلوب إلى الاستنكار والانتقاد اللذين قد مرّ الحديث عنهما، فهذه الأساليب في هذه المجموعة تعمل عملاً متشابهاً بالنسبة لوجه المخاطب.

٢ - عدم الاهتمام بوجه المخاطب

المجموعة الثانية من الأفعال التي تهدد وجه المخاطب الإيجابي هي الأفعال التي تبين أنّ المتكلم غير مهتم في خطابه بوجه المخاطب، فالمتكلم هنا لا يريد أن يستهدف وجه المخاطب بصورة صريحة ومباشرة كما في المجموعة الأولى، وإنما يقوم بتهديد وجه المخاطب أثناء صدور الخطاب بأفعال مهددة له بصورة غير صريحة، وذلك كـ (التعبير عن الانفعالات العنيفة / ذكر الموضوعات المحرمة عند المخاطب / الإخبارات السيئة التي تخص المخاطب / التباهي والتفاخر / طرح الموضوعات الحساسة والخلافية / عدم التعاون في التخاطب / استعمال ألفاظ تخاطب لا تليق بالمخاطب)^١.

هذه المجموعة من الأفعال المهددة للوجه الإيجابي للمخاطب هي أفعال يقوم بها المتكلم ولا يراعي فيها وجه المخاطب، فيؤدي ذلك لحدوث التهديد لوجهه، وقد يكون المتكلم قاصداً لذلك، وقد لا يكون قاصداً له، فالفعل المهدد هنا ليس صريح التهديد؛ لذلك قد يقع من المتكلم وهو غير ملتفت إلى مدى ضرره بوجه المخاطب، ولكن وقوع هذه الأفعال من المتكلم تدل على كل حال على عدم اهتمام المتكلم وعدم حرصه على الحفاظ على وجه المخاطب بعيداً عن التهديد.

^١ براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ١٦٦-١٦٧.

أ- التعبير عن الانفعالات العنيفة

قد يجد المخاطب من المتكلم انفعالات شديدة أثناء الخطاب تجعله يخاف أو يتضايق منه، هذه الانفعالات تجعل المخاطب في وضع المتلقي لهذه الانفعالات، وهذا الوضع ينزل من قدره؛ لأن طرف الحوار لا يحب عادة أن يقوم الطرف الآخر بتوجيه غضبه أو انفعاله السلبي عليه مباشرة، فهذا الفعل أو الانفعال يحمل إسقاطاً لمكانة الطرف المقابل، كما يلقي عليه اللوم بأنه المتسبب في هذا الانفعال. ويمكننا أن نجد ذلك في شعر أبي فراس، فهو ينفعل في بعض قصائده، ويظهر ذلك من أسلوب هذه القصائد وطريقتها، وهذا الانفعال الظاهر على أبي فراس معروف سببه وإلى من يتوجه، فموضوعات هذه القصائد تكشف عن كل خصوصياتها، يقول أبو فراس في قصيدته المشهورة مظهرًا غضبه وانفعاله:

زَمَانِي كُلُّهُ غَضَبٌ وَعَتَبٌ وَأَنْتَ عَلَيَّ وَالْأَيَّامُ الْبُ

وَعَيْشُ الْعَالَمِينَ لَدَيْكَ سَهْلٌ وَعَيْشِي وَحْدَهُ بَفْنَاكَ صَعْبٌ

وَأَنْتَ وَأَنْتَ دَافِعُ كُلِّ خَطْبٍ مَعَ الْخَطْبِ الْمُلَمِّ عَلَيَّ خَطْبٌ

إِلَى كَمَ ذَا الْعِقَابُ وَلَيْسَ جُرْمٌ وَكَمْ ذَا الْإِعْتِذَارُ وَلَيْسَ ذَنْبٌ

فَلَا بِالشَّامِ لَدَّ بَقِيٍّ شُرْبٍ وَلَا فِي الْأَسْرِ رَقٌّ عَلَيَّ قَلْبٌ^١

فالظاهر من هذه الأبيات غضب الشاعر الشديد وانفعاله مما حصل له، فالأسر مؤثرٌ على حالة الشاعر النفسية، فهو يعبر عن حالته المأساوية، وهذا في حد ذاته تهديد لوجه المخاطب؛ لأنَّ الخطاب يشعره بأنه المتسبب في مأساة الشاعر وانفعاله، ومما يزيد التهديد أن أبا فراس قد وجَّه الخطاب مباشرة لسيف الدولة بقوله: (وأنت علي والأيام إلـب)، وقوله: (وعيشي وحده بفناك صعب)، فالخطاب يزيد تهديده لوجه سيف الدولة بهاتين العبارتين ومثيلاتهما في القصيدة، وإنَّا نجد أنَّ الخطاب تتداخل فيه عدة أساليب وأفعال تتسبب بتهديد الوجه الإيجابي للمخاطب، وهذا ما سيتضح أكثر عند التعرُّض للجوانب الأخرى للقصيدة.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٨.

ب- ذكر الموضوعات المحرمة

إنّ لدى المخاطب موضوعات لا يرغب الخوض فيها مع طرف آخر، لأسباب كثيرة قد تكون دينية أو أخلاقية أو شخصية أو غيرها، وهذا التفضيل مهما كان سببه لدى المخاطب يجب أن يُراعى من قبل المتكلّم في خطابه، وإلاّ فهذا يعد انتهاكاً وتهديداً لوجه المخاطب الإيجابي؛ لأنّ المتكلّم يوحي للمخاطب بأنّه لا يحترم ما يريد وما لا يريد، بل ولا يشاركه في حرمة التحدث في هذه الموضوعات المحرمة لدى المخاطب، وهذا الأمر يجعل الخطاب ينحدر في تأديبته.

ويمكن لنا أن نمثّل بأمثلة عديدة من خطاب أبي فراس في الشكوى والعتاب، فخطابه مليء بعبارات الخوض في موضوع اتخاذ قرار التحرير والفداء من الأسر، نأخذ بيّناً واحداً منها كمثال:

أَضَحُوا عَلَى أَسْرَاهُمْ بِي عَوْدًا وَأَنْتُمْ عَلَى أَسْرَاكُمْ غَيْرُ عَوْدٍ^١

ففتح هذا الموضوع يزعج سيف الدولة؛ لأنّ ذلك يعد تدخلاً في خصوصياته، فالملوك كما ذكرنا سابقاً تحرّم على رعاياها الخوض في قراراتها وتقييمها، فلا يجوز عندهم الخوض في هذه الموضوعات إلاّ بإذن ومبادرة من الملك نفسه، فهو من يطلب مشورة مستشاريه وأهل الرأي والمشاورة من رعيته، أمّا أن يتبرع أحدهم بتقييم أفعال الملك وانتقادها فيخرج هذا عن حد التأمّن مع الملوك؛ وبالتالي يهدد وجه الملك المخاطب بالكلام.

ج- التباهي والتفاخر

هذان الفعلان قائمان على ذكر المميزات والصفات الإيجابية لذات المتكلّم، فهي في ظاهرها مجرد تعزيز وتعظيم للذات، لكن هذا الأمر يمكن أن يكون له وجه آخر بالنسبة للمخاطب، فإنّ مدح المتكلّم لنفسه لا يخلو في كثير من الأحيان من تهديد لوجه المخاطب الإيجابي، فالمتكلّم عندما يذكر صفاته الإيجابية بتفاخر وبتباهٍ فهو يوحي لمخاطبه بأنّه أفضل منه، أي أنّه امتلك صفاتٍ زائدة قد لا يمتلكها المخاطب، وهذا قد يفهم على أنّه تفضيل من المتكلّم لنفسه على المخاطب، وبذلك يكون هذا انتقاصاً من المخاطب، وذلك يكون مهدداً لوجهه.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٧٦.

وبالنظر لمخاطب أبي فراس، فإنّ كون سيف الدولة ملكاً يزيد شدة هذا التهديد؛ لأنّ من أدب الملوك ألاّ يمدح غيرهم بحضرتهم، وهنا تقع مخالفة أخرى تؤدي لخروج الخطاب عن تأدبه، فعندما يتفاخر أبو فراس بنفسه، فهذا يعد تهديداً غير مباشر لوجه سيف الدولة الإيجابي، وهذا كثير في شعره، فقد قال:

فَطَارَدْتُ حَتَّى أَبْهَرَ الْجَرِيَّ أَشْقَرِي وَضَارَبْتُ حَتَّى أَوْهَنَ الصَّرْبُ سَاعِدِي

وَكُنَّا نَرَى أَنْ لَمْ يُصِْبَ مَنْ تَصَرَّمَتْ مَوَاقِفُهُ عَنْ مِثْلِ هَذِي الشَّدَائِدِ

جَمَعْتُ سُيُوفَ الْهِنْدِ مِنْ كُلِّ بِلَادَةٍ وَأَعَدَدْتُ لِلْهَيْجَاءِ كُلِّ مُجَالِدٍ

وَأَكْثَرْتُ لِلْغَارَاتِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ بَنَاتِ الْبُكَيْرِيَّاتِ حَوْلَ الْمَزَاوِدِ^١

وختم قصيدته بهذين البيتين:

مَنْعْتُ حِمَى قَوْمِي وَسُدْتُ عَشِيرَتِي وَقَلَّدْتُ أَهْلِي غُرَّ هَذِي الْقَلَائِدِ

خَلَائِقُ لَا يَوْجَدَنَّ فِي كُلِّ مَاجِدٍ وَلَكِنَّهَا فِي الْمَاجِدِ ابْنِ الْأَمَاجِدِ^٢

وقال في موضع آخر:

سَتَذْكُرُ أَيَّامِي نُمَيْرٍ وَعَامِرٌ وَكَعَبٌ عَلَى عِلَاتِهَا وَكِلاَبٌ

أَنَا الْجَارُ لَا زَادِي بَطِيءٌ عَلَيْهِمْ وَلَا دُونَ مَالِي لِلْحَوَادِثِ بَابُ

وَلَا أَطْلُبُ الْعَوْرَاءَ مِنْهُمْ أُصِيبُهَا وَلَا عَوْرَتِي لِلطَّالِبِينَ تُصَابُ^٣

فهناك الكثير من أمثال هذا المدح للنفس والتفاخر لدى أبي فراس، وذلك أنّه كان يريد أن يظهر مدى أهميته لمخاطبه سيف الدولة، حتى لا يفرط به ويتركه في الأسر، بل ويريد أن يصنع لدى مخاطبه شعوراً بأنّه مدين له بإخراجه من الأسر لخدماته الجليلة وصفاته الحميدة، وهذا الأمر معقول، لكنّه بالنسبة لسيف الدولة هو تهديد لوجهه الإيجابي، فلا يُمدح عنده سواء إلاّ بإذنه.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٨٣.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٨٣.

^٣ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٢.

ولكنّا نجد أنّ أبا فراس قد حاول جعل هذا الأمر متقبلاً بالنسبة لسيف الدولة، وذلك من خلال مدحه لسيف الدولة بما مدح به نفسه وفي سياق تلك الأبيات التي مدح فيها نفسه، فمثلاً قال متفاخرًا هذا البيت:

وَعِنْدِي صِدْقُ الصَّرْبِ فِي كُلِّ مَعْرَكٍ وَلَيْسَ عَلَيَّ إِنِ نَبَوْنَ الْمَضَارِبُ^١

ثم أتبعه مباشرة ببيت يمدح فيه سيف الدولة فقال:

إِذَا كَانَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْمَلِكُ كَافِلِي فَلَا الْحَزْمُ مَغْلُوبٌ وَلَا الْخَصْمُ غَالِبٌ^٢

وهذا الأمر يدل على أنّ أبا فراس عارفٌ بأنّ تفاخره بنفسه قد يكون منافياً للأدب مع سيف الدولة، فشفعه بالمدائح له وقاية من وقوع هذا الأمر، وتعويضًا عنه إن وقع.

د - طرح الموضوعات الخلافية

يقصد بالموضوعات الخلافية الموضوعات التي يؤدي لتصاعد الخلاف بين طرفي الحوار، وهذا كالموضوعات التي تخص الدين والمذاهب والسياسة والأعراف وغيرها، فإنّ الأطراف المختلفة يحتدم اختلافها عندما تطرح مثل هذه الموضوعات، فيتحول الاختلاف المجرّد إلى خلاف بين الطرفين، وتعدّ بعض المجتمعات مجرد الخوض في هكذا موضوعات خروجًا عن التأدّب، وذلك كالمجتمعات الغربية الحديثة، أو المجتمعات العلمانية بصورة عامة، أمّا بعض المجتمعات الأخرى فقد تتقبل الدخول في هذه الموضوعات لكن بحدود وضوابط، كأن يكون الخطاب خاليًا من الإهانة والاستنقاص والسخرية والتسقيط، فإن احتوى الخطاب على تلك الأفعال الذميمة خرج عن التأدّب.

وفي دراستنا لحالة أبي فراس مع مخاطبه سيف الدولة نجدهما يتفقان في كل الأمور المذكورة تقريبًا، فهما لا يختلفان في دين أو مذهب أو عرق أو ما شابه، بل حتى سياسيًا نجدهما يحملان ذات التوجه السياسي، فلا يمكننا أن نرصد في خطاب أبي فراس خلًا في هذه الموضوعات، فلا تعد هذه الموضوعات خلافية أصلًا، ففتحها والخوض فيها يعدان أمرًا عاديًا لا يؤثر في تأدّب الخطاب، يبقى الخلاف الوحيد بينهما هو في أنّ أبا فراس يرى ضرورة تحريره من أسر العدو بصورة عاجلة، أمّا سيف

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣٢.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٣٢.

الدولة فلا يبدو أنّه يرى ذلك، وهذا الاختلاف هو جوهر خطاب الشكوى والعتاب لدى أبو فراس، فإن قلنا بأنّ هذا الموضوع مهدد لوجه سيف الدولة، فهذا يعني أنّ خطاب أبي فراس في جملته مهدد للوجه الإيجابي لمخاطبه سيف الدولة، وهذا قد يكون صحيحاً ولكن مجرد هذا الخلاف الجزئي قد لا يُلاحظ تهديده منفرداً مع وجود مهددات الوجه الإيجابي الأخرى الصريحة التي ذكرناها.

لقد ذكرنا سابقاً وجود التداخل الشديد في الخطاب بين مهددات الوجهين الإيجابي والسلبي، فخطاب كهذا طبيعته تهديد الوجه بأكثر من طريق وأسلوب، وهذا ما يفسر وجود هذا التداخل، وتكرار الاستشهاد بنفس الأبيات أحياناً عند الحديث عن كل فعل مهدد للوجه بمفرده، فالبيت الواحد قد يحمل تهديدات متعددة للوجه الإيجابي للمخاطب، فضلاً عن احتوائه عن تلك التي تستهدف وجه المخاطب السلبي أيضاً.

المبحث الثاني: الأفعال المهددة للوجه السلبي في خطاب الشكوى والعتاب

الأفعال التي تهدد الوجه السلبي للمخاطب تقوم بصورة أساسية على تهديد رغبات الوجه السلبي للمخاطب عن طريق بيان إمكانية أن المتكلم لا ينوي ولا يرغب في تجنب إعاقة وتحجيم حرية المخاطب في التصرف والفعل، وهذه الأفعال يقسمها براون ولفنسن إلى ثلاث مجموعات، ونحن بدورنا سنعتمد على تقسيمهما وسنقوم برصد التهديدات وفق كل مجموعة، مبتدئين بالمجموعة الأولى:

١- إسناد الأفعال المستقبلية للمخاطب

المجموعة الأولى هي الأفعال التي يسند فيها المتكلم فعلاً مستقبلياً إلى المخاطب، وهي بذلك تسلط بعض الضغط على المخاطب لينفذ ذلك العمل أو يرفض تنفيذه، فالمخاطب هنا تم سلب إرادته أو إضعافها بواسطة فعل المتكلم، وهذه المجموعة تشمل الأفعال التالية: (الأوامر والطلبات / المقترحات والنصائح / التذكيرات / التهديدات والتحذيرات والتحديات).^١

ترتكز التهديدات للوجه السلبي في المجموعة الأولى على انتهاك خصوصية المتلقي والمساحة الخاصة به، وهي ما أسميناه بالحرم، فالمتكلم يقوم بسلب حرية الاختيار الخاصة بالمخاطب، وبذلك يعد هذا انتهاكاً لوجهه السلبي ومخالفةً لحالة التأدب، ونجد أن خطاب الشكوى والعتاب في نفسه يمثل هذا النوع من التهديد، حيث نرى أن الشكوى والعتاب يستبطن انتهاكاً لحرم المخاطب؛ لأنه يؤكد على أن المخاطب أخطأ في فعل اختار فعله، فهو انتقاد لاختيار المخاطب، وكذلك نجد أن بعض تجليات خطاب الشكوى والعتاب - كما هو الحال في خطاب أبي فراس - تستبطن طلباً يتحتم على المخاطب تحقيقه لتصحيح فعله السابق المعائب عليه، وهذا يجعل هذا الخطاب مهدداً للوجه السلبي له أيضاً.

لكننا نلاحظ أيضاً أن الطبيعة المهددة للوجه السلبي في خطاب الشكوى والعتاب لا تمثل تهديداً مباشراً وصريحاً، فلذلك نحتاج لكي نرصد التهديد المباشر للوجه السلبي في هذا الخطاب أن نستخرج المواضع الصريحة للتهديد التي تضمنها الخطاب بشكل خاص، فبالنظر إلى خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس نلاحظ أنه قد احتوى على قدر من التهديد المباشر للوجه السلبي للمخاطب، هذا القدر لا يزال مقيداً بقيود تفرضها العلاقة بين طرفي الخطاب، إلا أنه موجود وحاضر، ويعود هذا للغرض من خطاب كهذا، فالهدف الذي يرمي له أبو فراس من خطاب الشكوى والعتاب هو طلب النجدة من

^١ براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ١٦٤.

سيف الدولة؛ وهذا ما يدفع أبا فراس للتصريح بهذا الطلب مرارًا مما يعد انتهاكًا تأديبيًا للوجه السلبي، لكنه بالرغم من ذلك يبقى أقل درجة من التهديد المباشر للوجه الإيجابي؛ لذلك نجد له حضورًا أكبر في هذا الخطاب.

أ- الأوامر والنواهي والطلبات

إننا عند محاولة رصد التهديدات المباشرة للوجه السلبي لا بد أن نركز على أسلوبين، هما الأمر والنهي الصريحان، حيث يعدّان أبرز ما يهدد بهما الوجه السلبي؛ لكونهما يحملان تقييدًا للمخاطب وانتهاكًا لحقه في الاختيار^١. فنجد أبا فراس في بعض أبياته يعاتب سيف الدولة ويطلب منه تخليصه بصورة مباشرة وصريحة باستعمال صيغة الأمر الصريحة، كما في هذين البيتين اللذين استشهدنا بهما في مورد التهديد المباشر للوجه الإيجابي:

إِلَيْكَ أَشْكُو مِنْكَ يَا ظَالِمِي إِذْ لَيْسَ فِي الْعَالَمِ مُعِدٌّ عَلَيْكَ

أَعَانَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ أَعِنَ مَنْ لَيْسَ يَشْكُو مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ^٢

وترد صيغة الأمر الصريحة تجاه سيف الدولة في قوله:

وَعَامِلْنِي بِإِنْصَافٍ وَظَلَمٍ تَجِدْنِي فِي الْجَمِيعِ كَمَا تُحِبُّ^٣

لقد استعمل أبو فراس أسلوب الأمر في هذه الأبيات، وبالنظر لفعلي الأمر (أعن/عاملني) في الأبيات السابقة التي قد تبدو لأول وهلة أنها تمثل طلبًا من المتكلم للمخاطب يؤدي به إلى انتهاك حرمة، يمكننا استنتاج أنّ المعنى في الفعل (عاملني) هو التخيير، وكذلك الفعل (أعن) لا يدل على أمر حقيقي، بل يخرج لمعنى الرجاء؛ فصيغتنا الأمر لا تدلان في هذه الموارد على تحقق معنى الأمر الحقيقي الذي يمكن أن يخرج الخطاب عن تأديبه، وهذا يدفعنا لملاحظة أنّ أبا فراس قد استعمل هذه الصيغة في بعض الموارد بحذر شديد يمكنه من إيرادها بلا حصول التهديد للوجه، وذلك عن طريق إخراجها من معناها لمعاني أخرى كالتخيير والرجاء.

^١ سيأتي شرح علة كونهما سببًا في انتهاك الوجهين الإيجابي والسلبي معًا.

^٢ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٧٢.

^٣ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٨.

كما ونجده يخاطب ابني سيف الدولة بصيغتي الأمر والنهي، فيقول:

لَا تُقْعِدَا بِي بَعْدَهَا وَسَلَا الْأَمِيرَ أَبَاكُمَا

وَحُذَا فِدَايَ جُعِلْتُ مِنْ رَيْبِ الزَّمَانِ فِدَاكُمَا^١

وفي أبيات أخرى يستعمل صيغة النهي الصريح، كما في قوله:

فَلَا تَحْمِلْ عَلَى قَلْبٍ جَرِيحٍ بِهِ لِحَوَاثِثِ الْأَيَّامِ نَدْبُ^٢

وقوله:

فَلَا تَتْرُكِ الْأَعْدَاءَ حَوْلِي لِيفْرَحُوا وَلَا تَقْطَعْ النَّسَالَ عَنِّي وَتَقْعُدِ

وَلَا تَقْعُدَنَّ عَنِّي وَقَدْ سِمْ فِدَيْتِي فَلَسْتُ عَنِ الْفِعْلِ الْكَرِيمِ بِمُقْعَدِ^٣

إنَّ التهديد في الشواهد السابقة اعتمد على أسلوبَي الأمر والنهي، وبالحديث عن منشأ كون أسلوبِ الأمر والنهي مهديين مباشرين للوجه وعلّة ذلك، نقول بداية إنَّ صيغة النهي تابعة في تأثيرها في الخطاب لصيغ الأمر، فالأمر والنهي يشتركان في تعريفهما في قيد مشترك، فقد عرّف أهل البلاغة الأمر بأنّه "طلب فعل غير كف على جهة الاستعلاء"^٤، وعرّفوا النهي بأنّه "طلب الكف عن الفعل استعلاءً"^٥، فنلاحظ أنّ الاستعلاء داخل في حد كل من الأمر والنهي؛ لذا إنّ استعمال هذين الأسلوبين في مخاطبة آخر ينطوي على معنى الاستعلاء، فإن لم يكن ذلك المخاطب أقل منزلة من المتكلم كان أحد هذين الأسلوبين في غير موضعه الذي يليق به؛ وبالتالي يخرج الكلام عن التأدّب الذي ينبغي أن يكون عليه، وهذا الأمر يمكننا عدّه تهديدًا للوجه الإيجابي للمخاطب، ولكنّ هذين الأسلوبين لا يقتصر تهديدهما على الوجه الإيجابي، بل يتعدى للوجه السلبي أيضًا؛ وذلك لوجود خصيصة أخرى فيهما.

والخصيصة الأخرى المشتركة لهذين الأسلوبين أنهما يشتركان في إلزام المخاطب بفعلٍ أو ترك فعل، وهذا تدخّل في المخاطب، ولكن صيغة الأمر تستعمل إمّا على نحو الوجوب أو الندب أو

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣٧١.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٨.

^٣ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٧٩.

^٤ التفتازاني، مسعود بن عمر: المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، ط ٣، تحقيق عبد الحميد هندوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٣م، ص ٤٢٤.

^٥ المصدر نفسه، ص ٤٢٧.

كليهما^١، والأظهر أنها في أصل وضعها للوجوب، واستعملت للندب والإباحة وغيرهما من الأغراض خروجًا عن الأصل لقريئة، وهذا ما بيّنه التفتازاني بقوله: "والأكثر على كونها حقيقة في الوجوب"^٢، وذلك أيضًا ما صرح به بعض علماء أصول الفقه، فقد قال الفقيه الأصولي المعاصر الشيخ محمد صنقور البحراني في معجمه الأصولي: "وقع الاتفاق على أنّ الأمر ظاهر في الوجوب،... نعم وقع الخلاف بين الأعلام فيما هو منشأ هذا الظهور،... أنّ منشأ الظهور هو الوضع وأنّ مادة الأمر كذلك صيغته وضعتا للدلالة على الطلب الوجوبي"^٣، وكما نعلم إنّ النهي تابع للأمر في هذه الخصيصة كذلك، والوجوب والحرمة هما طلبان إلزاميان، فهنا يكون الأمر والنهي مفيدين لمعنى الإلزام، فيرجع الأمر لكونهما يلزمان المخاطب بفعلٍ أو كفٍ، وهو ما يستلزم محاولة تقييد خيار المخاطب، وإجباره على الفعل أو الكف عن الفعل، وهذا في حد نفسه انتهاك مباشر للوجه السلبي الخاص به.

فنجد أن أسلوبَي الأمر والنهي يشتملان على وجهي التهديد للوجه معًا، فهما يهددان الوجه الإيجابي من جهة كون الاستعلاء سمة من سماتهما، فهو تقليل من شأن المخاطب، ويزيد هذا الأمر بالنسبة للمدونة المدروسة في بحثنا بسبب كون العلاقة بين المتكلم والمخاطب علاقة طولية يكون فيها المخاطب أعلى من المتكلم، وبذلك لا يتناسب الاستعلاء مع هذا الخطاب، إلّا إن كان ذلك الاستعمال على نحو المجاز، حيث يأتي بصيغ الأمر والنهي غير قاصد للأمر والنهي الحقيقيين، بل يقصد الالتماس أو الدعاء مثلاً، ولا يمكننا إخراج اللفظ إلى المجاز بلا وجود قريئة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، والأصل عدم وجودها. أمّا الوجه الآخر للتهديد فهو كما ذكرنا تهديد للوجه السلبي من جهة الإلزام الذي يوجبانه، ولذلك يمكننا القول إنّ هذين الأسلوبين يشتملان على كلا التهديدتين الإيجابي والسلبي، وهو ما رصدناه في الشواهد التي أوردناها.

ب- المقترحات والنصائح والتذكيرات

إنّ المقترحات والنصائح والتذكيرات هي طلبات أقل إلحاحًا من الأوامر والنواهي، إلّا أنّها تبقى مهددة للوجه السلبي للمخاطب بوصفها ضاغطة عليه لقبول هذه المقترحات والنصائح أو رفضها، ولا

^١ انظر التفتازاني: المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، ص ٤٢٤.

^٢ المصدر نفسه، ص ٤٢٤.

^٣ صنقور، محمد: المعجم الأصولي، ط ٣، مؤسسة السيدة المعصومة، قم، ٢٠١٣م، ج ١ ص ٣٢٩.

شك في كون هذا التهديد أقل أثرًا من التهديد في الأوامر والطلبات، ويمكن رصد هذه المقترحات والنصائح في شعر أبي فراس، فهو يقول:

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَدٌّ قَدِيمٌ نَعْدُهُ وَلَا نَسَبٌ بَيْنَ الرِّجَالِ قُرَابُ
فَأَحْوَطُ لِلْإِسْلَامِ أَنْ لَا يُضِيعَنِي وَلِي عَنْكَ فِيهِ حَوَاطَةٌ وَمَنَابُ^١

فالشاعر هنا يقدم النصيحة لابن عمه سيف الدولة بأن لا يتركه في الأسر ولا يضيعه، وطبعًا استدلّ لنصحه بالإسلام، فمقتضى الدين والإسلام يقضي بأن لا يترك سيف الدولة أيًا من رعيته ومعاونيه وجنوده في الأسر لدى الكفار، وهذه تكون نصيحة مهددة للوجه السلبي، فهو يفرض على المخاطب أن يمثل لهذه النصيحة كونه مسلمًا، أو رفضها وبذلك تعد نقيصة في دينه، ومما يدل على أن مثل هذه النصيحة مؤثرة ومهددة لوجه سيف الدولة قوله بعدها مباشرة:

وَلَكِنِّي رَاضٍ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ لِيُعْلَمَ أَيُّ الْحَالَتَيْنِ سَرَابُ
وَمَا زِلْتُ أَرْضَى بِالْقَلِيلِ مَحَبَّةً لَدَيْكَ وَمَا دُونَ الْكَثِيرِ حِجَابُ
وَأَطْلُبُ إِبْقَاءَ عَلَى الْوَدِّ أَرْضَهُ وَذِكْرِي مُنَى فِي غَيْرِهَا وَطِلَابُ^٢

فإن الشاعر أراد ألا يزيد مقدار تهديد الوجه السلبي للمخاطب فأتى بهذه الأبيات تعويضًا عما قاله قبلها، وذلك لتقليل شدة ذلك التهديد السابق لوجه المخاطب، فصرّح له بأنه راضٍ عما يختاره المخاطب، فإن أراد حرره من الأسر وإن أراد أبقاه، فإنّ هذا لن يغير الود الذي في قلب المتكلم تجاه المخاطب، وهذا وإن خفف من شدة هذا التهديد إلا أنه لم يلغّه، بل لا تزال النصيحة مهددة كونها ترتبط بالدين وليس برضا المتكلم.

ومن ذلك قوله لسيف الدولة أيضًا:

هَلْ تَعْطِفَانِ عَلَى الْعَلِيلِ لَا بِالْأَسِيرِ وَلَا الْقَتِيلِ
بَاتَتْ تَقْلُبُهُ الْأَكْفُ فُ سَحَابَةُ اللَّيْلِ الطَّوِيلِ^٣

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٣.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٣.

^٣ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٣٢١.

فاقتراح العطف وطلبه من المخاطب يهدد وجهه، كونه يستبطن لا مجرد العطف بل ما هو من لوازمه، كالعامل على إزالة ما يؤذيه مثلاً، وفي حالة أبي فراس الفداء والتحرير من الأسر، فهو مهدد لوجهه المخاطب، ونلاحظ أنّ أبا فراس استعمل أسلوب الاستفهام تخفيفاً لحدة الطلب من جهة، ومن جهة أخرى تعبيراً عن الأسى والحزن في قلبه، فأسلوب الاستفهام أكثر تعبيراً عن مشاعر الحزن والاستعطاف من الأسلوب الخبري.

إذن فالنصائح والتذكيرات والمقترحات تحمل معنىً مهدداً لوجهه المخاطب السلبي، وقد استعمل أبو فراس هذه الأساليب مع مخاطبه سيف الدولة، ولكنه كما نرى لم يترك هذه الأفعال المهددة بلا تخفيف أو تعويض، فهو يريد الوصول لغرضه وهو التحرر من الأسر، والإفراط في تهديد الوجه السلبي لمخاطبه لن يحقق له هذا الهدف، لكنّه مع ذلك ألزم نفسه بإيصال رغبته واقتراحها على سيف الدولة بأقل قدر من التهديد لوجهه، حتى يعلمه بما يريد منه.

ج- التهديدات والتحذيرات

التحذير والتهديد قد يكونان من أشد المهددات للوجه السلبي للمخاطب، حيث يكون التهديد أو التحذير مقيّداً للمخاطب، فالمتكلم لا يحترم رغبة المخاطب في الفعل أو الترك، بل يجبره ويرغمه على الفعل أو الترك من خلال تهديده أو تخويفه أو تحذيره، وهذا الأمر فيه استعمال للقوة التي يمكن أن يخضع بها المتكلم المخاطب لرغبته، وفي حالة أبي فراس مع سيف الدولة لا نجد أنّ أبا فراس يمتلك سلطة أو قوة يمكن أن يخضع بها سيف الدولة، فسيف الدولة هو الملك الذي بيده السلطة، إلا أنّ هذا الأسلوب ممكن التحقق، وذلك من خلال التهديد والتحذير من الأمور التي تكون أعلى من المخاطب، أو تكون مصدراً للخوف والقلق بالنسبة لسيف الدولة.

فمثلاً نجد أن أبا فراس يخوّف ويحدّر سيف الدولة من جيوش الأعداء، فيقول:

هَٰذِي الْجُيُوشُ تَجِيْشُ نَحْوَ بِلَادِكُمْ مَحْفُوفَةً بِالْكَفْرِ وَالصُّلْبَانِ

الْبَغْيُ أَكْثَرُ مَا تُقَلُّ خِيُولُهُمْ وَالْبَغْيُ شَرُّ مُصَاحِبِ الْإِنْسَانِ

لَيْسُوا يَنْوَنَ فَلَا تَنَوَا فِي أَمْرِكُمْ لَا يَنْهَضُ الْوَانِي لِغَيْرِ الْوَانِي^١

وقد يستخدم أبو فراس التخويف بفرح وشماتة الأعداء منه كما في البيت:

وَلَكِنْ أَنْفَعُ الْمَوْتُ فِي دَارِ غُرْبَةٍ بِأَيْدِي النَّصَارَى الْغُلْفُ مَيِّتَةً أَكْمَدِ

فَلَا تَتْرُكِ الْأَعْدَاءَ حَوْلِي لِيَفْرَحُوا وَلَا تَقْطَعْ النَّسَالَ عَنِّي وَتَقْعُدِ^٢

وتارة أخرى يستعمل التخويف بالعيب وقلة الشرف وتفوق العدو في الشرف، قال:

فَإِنْ مِتُّ بَعْدَ الْيَوْمِ عَابَتْكَ مَهْلَكِي مَعَابِ النَّزَارِينَ مَهْلَكٌ مَعْبَدِ

هُمْ عَضَلُوا عَنْهُ الْفِدَاءَ فَأَصْبَحُوا وَهْذُونَ أَطْرَافَ الْقَرِيضِ الْمُقْصَدِ

وَلَمْ يَكُنْ بِدَعَا هُلْكُهُ غَيْرَ أَنَّهُمْ يُعَابُونَ إِذْ سِيَمَ الْفِدَاءِ وَمَا فُدي

فَلَا كَانَ كَلْبُ الرُّومِ أَرَأَفَ مِنْكُمْ وَأَرْغَبَ فِي كَسْبِ الثَّنَاءِ الْمُخَلَّدِ

وَلَا بَلَغَ الْأَعْدَاءُ أَنْ يَتَنَاهَضُوا وَتَقْعَدَ عَنِ هَذَا الْعَلَاءِ الْمُشَيَّدِ

أَاضَحُوا عَلَى أَسْرَاهُمْ بِي عُوْدًا وَأَنْتُمْ عَلَى أَسْرَاكُمْ غَيْرُ عُوْدِ^٣

ف نجد هذه الأبيات تفصح عن أمور قد يخشى المخاطب من أن تحدث، كأن يعيب الناس سيف الدولة بسبب قعوده وعدم تخليصه لابن عمه أبي فراس، وكون العدو مع خساسته بحيث عبّر عنه بـ(كلب الروم) يكون أرف بأبي فراس من ابن عمه سيف الدولة، حيث تعد هذه الأمور منقصة في المخاطب، وهذه الأمور قد استغلها أبو فراس كعنصر تهديد وتحذير تجاه سيف الدولة، فسيف الدولة لا يملك دفع هذه المثالب والمناقص عنه إلاّ بفداء وتحرير أبي فراس، وهذا ما أكّد عليه، وهذا الأسلوب فيه تهديد شديد لوجه المخاطب السلبي كما ترى.

فكما يحتوي أسلوب التحذير على ما يهدد الوجه الإيجابي، له تأثير شديد على الوجه السلبي أيضًا، فهو تقليل من احترام المخاطب من جهة، وتقيد لاختياراته من جهة أخرى، فلا بد أن يقوم المتكلم بتجنب هذا الأسلوب قدر المستطاع حتى لا يؤثر على تأدب خطابه، وإن اضطر إليه لغاية ملحة -

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٤٠٧.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٧٦.

^٣ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٧٧.

كما في غاية أبي فراس - فيجب على المتكلم أن يشفع هذا الأسلوب بما يجعله مقبولا لدى الآخر. فاختيار الصيغ التعويضية المبجلة وإعادة صياغة التهديد بصورة غير محققة كالأستفهام والاحتمال وغيرهما، كل ذلك يمكن أن يجعل أسلوب التحذير أقل تهديدا للوجه.

لكنّا نجد تهديد أبي فراس لا يتعدى إلى مرحلة متقدمة من اللا تأدب، وذلك أنّه لم يذهب في تهديده لسيف الدولة مذهب الذي له قوة ويد وسلطة عليه، بل كان التهديد شبه ملمح له، فهو لم يصرح بأنّ سيف الدولة سيندم، إلّا أن كلامه يدل على ذلك؛ لأنّ الأمور المذكورة تعد إن حصلت فهي مثالب على صاحبها، فلا بد له من محاولة تنفيذها أو دفعها عنه، وبذلك يكون التهديد الذي هدده إياه مهددا لوجه مخاطبه السلبي من جانب، ومؤثرا في اتخاذ قرار تحرير أبي فراس وفديته من جانب آخر، فلا يرفضه المخاطب لكونه لم يكن فيه استعلاء عليه، بل هي من الأمور التي قد تحدث ويخشها المخاطب، فلا يحمل المتكلم تبعه حدوثها وإن صرح بها في خطابه.

إلّا أنّا قد نجد أبا فراس يهدد ويحذر سيف الدولة بما سيقوم به هو بنفسه خلافاً للأسلوب السابق، فيهدد سيف الدولة بقطع العلاقة معه، يقول:

إِذَا الْخِلُّ لَمْ يَهْجُرْكَ إِلَّا مَلَالَةً فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الْفِرَاقُ عِتَابُ
إِذَا لَمْ أَجِدْ مِنْ خُلَّةٍ مَا أُرِيدُهُ فَعِنْدِي لِأُخْرَى عَزْمَةٌ وَرِكَابُ
وَلَيْسَ فِرَاقٌ مَا اسْتَطَعْتُ فَإِنْ يَكُنْ فِرَاقٌ عَلَى حَالٍ فَلَيْسَ إِيَابُ^١

فتظهر شدة التهديد أكثر في هذه الأبيات، كون هذا التهديد يعتمد على فعل المتكلم نفسه، بذلك يعد هذا سوء أدب منه، وبالأخص مع كون المخاطب ملكا مقتدرا لا يجرؤ على تهديده أحد، فالتكلم هنا لا يملك سلطة كبيرة، إلّا أنّه يهدد بما يمتلكه، وهو الصداقة مع سيف الدولة، فهذه العلاقة مهددة بالقطع وعدم الرجوع إلى ما كانت عليه، وهذا من أشد ما يهدد وجه سيف الدولة في خطاب أبي فراس، إلّا أنّ أبا فراس أتى بالتهديد كحكم عام، وهذه استراتيجية تخفف من شدة تهديد هذا الفعل، فالمقصود الفعلي من الكلام ليس مصرح به.

ويمكننا أن نعدّ هذه الأساليب في المجموعة الأولى هي الأشد تأثيرا وتهديدا للوجه السلبي للمخاطب، فالأمر والنهي والطلب والتحذير والتهديد، هي أساليب شديدة التقيد، وتؤدي إلى فرض أمر قد لا يقبله

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢١.

المخاطب، وهذا ما لا يريده أو يرغب به، فيعد هذا الأمر عدم احترام لخصوصيته وحرية، ومما يزيد الأمر كون المخاطب ملكاً، فهذا الأمر يجعل التهديد أشد، فالملك طليق اليد، يرى نفسه حرّاً لا يقف بوجهه شيء، فإن مخاطبته بأساليب تقيدته وتلزمه بأفعال معينة لا يرغب بإنجازها يعد انتهاكاً خطيراً لحرمة، فأبو فراس باستعماله لهذه الأساليب قد تجاوز الخطوط الحمراء مع مخاطبه الملك، إلا أنه قد حاول التخفيف من هذا التجاوز بما أمكنه من طرق وأساليب واستراتيجيات، وهذا ما سيفصل في مكانه.

٢- تقديم العروض والوعود

المجموعة الثانية من الأفعال التي تهدد الوجه السلبي للمخاطب هي إسناد الأفعال الإيجابية للمتكلم لصالح المخاطب، حيث تقوم بالضغط على المخاطب لقبولها أو رفضها، وتولد عنده إحساساً بالمديونية، فيرى المخاطب بأن عليه أن يرد الجميل، فهذا ما قد يعد تقييداً لحرية، وهي تشمل (العروض / الوعود).^١

أفعال هذه المجموعة لا تبدو خارجة عن التأدب لأول نظرة، بل قد يراها المتلقي في غاية التأدب، وقد تكون في حد ذاتها تحمل تقديرًا واحترامًا للمخاطب، فهي تحمل قيمة تأدبية تجاه الوجه الإيجابي للمخاطب، إلا أننا بعد التفحص الدقيق نجد أن لها جانباً يهدد وجه المخاطب السلبي بالخصوص، فتقديم العروض أو الوعود للمخاطب يلزمه بأن يقوم بردها أو شكرها، وهذا تقييد وإلزام للمخاطب، وهنا يكون التهديد لوجهه السلبي؛ لأنّ المخاطب يشعر بأن عليه أن يرد بإيجابية تجاه ما قدّمه أو سيقدمه المتكلم، وإلا كانت منقصة فيه.

ويمكن أن تسري أحكام هذه المجموعة وخصوصياتها للخدمات والأعمال الإيجابية التي عملها المتكلم سابقاً لصالح المخاطب ثم تحدث عنها معه، فهي تعطي التأثير ذاته، فالمخاطب سيشعر بأن عليه أن يرد الجميل، فهذا الشعور بالمديونية قد يتحقق عندما يذكر المتكلم المخاطب بجميل سابق عمله له، أو يعرض عليه حالاً، أو يعده بفعله له في المستقبل، فإنّ هذا سيولد حالة الشعور بالمديونية التي تعد انتهاكاً للوجه السلبي للمخاطب.

^١ براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ١٦٥.

ونجد هذا الأمر كثيرًا في خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس تجاه سيف الدولة، يقول في بيان وعوده لسيف الدولة بعد أن يتحرر:

مَتَى تُخْلِفُ الْأَيَّامُ مِثْلِي لَكُمْ فَتَى طَوِيلَ نِجَادِ السَّيْفِ رَحْبَ الْمُقْلَدِ
مَتَى تَلِدُ الْأَيَّامُ مِثْلِي لَكُمْ فَتَى شَدِيدًا عَلَى الْبِأَسَاءِ غَيْرَ مُلْهَدِ
فَإِنْ تَقْتَدُونِي تَقْتَدُوا شَرَفَ الْعُلَا وَأَسْرَعَ عَوَادٍ إِلَيْهَا مُعَوَّدِ
وَإِنْ تَقْتَدُونِي تَقْتَدُوا لِعُلَاكُمْ فَتَى غَيْرَ مَرْدُودِ اللِّسَانِ أَوْ الْيَدِ
يُدَافِعُ عَنْ أَعْرَاضِكُمْ بِلِسَانِهِ وَيَضْرِبُ عَنْكُمْ بِالْحُسَامِ الْمُهَنْدِ^١

يتعهد أبو فراس بالدفاع عن سيف الدولة بالسيف واللسان، كما يبين أنه كان ولا يزال موردًا للعبة والمنعة لسيف الدولة وقبيلة بني حمدان، ويؤكد على ثنائية اليد واللسان والتي يعبر عنها تارة أخرى باللسان والسيف كذلك، فهو مكسب كبير لسيف الدولة، فهنا يحرص بذلك سيف الدولة لكي يرد جميل أبي فراس عليه وعلى قبيلته، وهذا الجميل لا يمكن رده إلا بالفداء والتحرير من الأسر كما كرر ذلك عدة مرات عندما قال (إن تقتدوني... تقتدوا)، فهذا العرض أو الوعد للمخاطب يجبره على محاولة رد هذا الوعد بالقبول بالفداء. ويكرر هذا المعنى في بيت آخر له:

وَعَامِلَنِي بِإِنْصَافٍ وَظَلَمٍ تَجِدْنِي فِي الْجَمِيعِ كَمَا تُحِبُّ^٢

فهو هنا يعقد اتفاقًا بهذا البيت مع سيف الدولة، بأنه سيرى منه ما يحب، وسيكون مطيعًا له غاية الطاعة مقابل أن يعامله بالإنصاف، ويقصد بالإنصاف أن يجازيه على خدماته تجاه سيف الدولة ودولته، وهذا الأمر فيه إلزام للمخاطب بقبول هذا الأمر. كما أن أبا فراس يبين إنجازاته السابقة في خدمة سيف الدولة، فيقول:

فَطَارَدْتُ حَتَّى أَبْهَرَ الْجَرِيَّ أَشْقَرِي وَضَارَبْتُ حَتَّى أَوْهَنَ الضَّرْبِ سَاعِدِي

وَكُنَّا نَرَى أَنْ لَمْ يُصِبْ مَنْ تَصَرَّمَتْ مَوَاقِفُهُ عَنْ مِثْلِ هَذِي الشَّدَائِدِ

جَمَعْتُ سُيُوفَ الْهِنْدِ مِنْ كُلِّ بَلَدَةٍ وَأَعَدَدْتُ لِلْهَيْجَاءِ كُلِّ مُجَالِدِ

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٧٧.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٨.

وَأَكْثَرْتُ لِلْغَارَاتِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ بَنَاتِ الْبُكَيرِيَّاتِ حَوْلَ الْمَزَاوِدِ^١

هنا يبين أبو فراس ما قام به سابقاً لخدمة الدولة وقائدها سيف الدولة، فيتفاخر بأمجاده السابقة التي علت وذاعت، فهو يريد أن يخلق عند سيف الدولة ذلك الشعور بالمديونية ووجوب رد الجميل من خلال تعداد مفاخره وما قام به خدمات جليلة ومهمة للدولة، وهذا ما يهدد الوجه السلبي لسيف الدولة، الذي يرى نفسه مرغماً على تحرير أبو فراس اعترافاً وتقديراً له على هذه الخدمات والمواقف، وإلا وجد نفسه ناكراً للجميل، وهذه الصفة مع كونها مثلبة في حق المخاطب، إلا إنها إضعاف لدولته كذلك، فالقائد الذي ينكر أفعال ومواقف أعوانه وجنوده يعرض نفسه ودولته للخذلان منهم؛ لأنهم لا يجدون فائدة من تضحياتهم لأجل تلك الدولة أو ذلك الحاكم. فسيف الدولة هنا وجهه السلبي مهدد من قبل أبو فراس بسبب هذا الأسلوب في الخطاب.

وقصيدة أبي فراس المشهورة التي يبين فيها هذا المعنى من أول بيت فيها فيقول:

أَمَّا لِجَمِيلٍ عِنْدَكَ ثَوَابٌ وَلَا لِمُسِيٍّ عِنْدَكَ مَتَابٌ^٢

هذا المطلع إعلان غير مباشر عن مطلب الشاعر من هذا التفاخر بالنفس، فهو يريد من مخاطبه سيف الدولة أن يقابل جميله بالثواب، ويقصد بالجميل هنا فعائلته الحسنة وخدماته وإنجازاته التي أنجزها لسيف الدولة، ويريد مقابل ذلك ثواباً، هذا الثواب يتمثل في الفداء من الأسر، ويضع سيف الدولة احتمال كون سيف الدولة غير راضٍ عنه لإساءته، ورغم أنه قد لا يرى نفسه مسيئاً إلا أن هذا الاحتمال والفرض إن كان حقيقة هو يعلن أنه تائب من إساءته ومعتذر منها، وهذا ما يدل عليه الشطر الثاني من البيت.

فالشطر الأول -وهو شاهد الكلام- يريد منه أبو فراس أن يؤكد هذا الشعور بالمديونية لدى سيف الدولة؛ لكي يهب لتحريره وفدائه من الأسر، وإثبات ذلك الجميل المذكور في البيت الأول تقوم بدوره الأبيات اللاحقة في هذه القصيدة، يقول بعده:

وَلَا شُدُّ لِي سَرَجٍ عَلَى ظَهْرٍ سَابِحٍ وَلَا ضَرْبَتٍ لِي بِالْعَرَاءِ قِبَابٍ

وَلَا بَرَقَتْ لِي فِي اللَّقَاءِ قَوَاطِعُ وَلَا لَمَعَتْ لِي فِي الْخُرُوبِ حِرَابُ

^١ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٨٢.

^٢ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢١.

سَتَذْكُرُ أَيَّامِي نُمَيْرٌ وَعَامِرٌ وَكَعَبٌ عَلَى عِلَاتِهَا وَكِلاَبٌ

أَنَا الْجَارُ لَا زَادِي بَطِيءٌ عَلَيْهِمْ وَلَا دُونَ مَالِي لِلْحَوَادِثِ بَابٌ^١

هنا يذكر لنا أبو فراس تاريخه وإنجازاته الماضية لقومه، وبعدها يزيد الأمر فيخاطب سيف الدولة بما يعمل له لأجله مما يزيد مكانته عنده، يقول:

بَنِي عَمَّنَا مَا يَصْنَعُ السَّيْفُ فِي الْوَعَى إِذَا قُلٌّ مِنْهُ مَضْرِبٌ وَدُبَابٌ

بَنِي عَمَّنَا لَا تُنْكِرُوا الْحَقَّ إِنَّنَا شِدَادٌ عَلَى غَيْرِ الْهَوَانِ صِلَابٌ

بَنِي عَمَّنَا نَحْنُ السَّوَاعِدُ وَالطُّبَى وَيُوشِكُ يَوْمًا أَنْ يَكُونَ ضِرَابٌ^٢

ويختم في الأبيات الأخيرة قصيدته بهذا البيت الذي يدل يلخص فحوى مطلبه وغرضه:

أَمِنْ بَعْدِ بَذْلِ النَّفْسِ فِيمَا تُرِيدُهُ أَثَابُ بِمَرِّ الْعَتَبِ حِينَ أَثَابُ^٣

يبين الشاعر أنَّ هذه الخدمات والتضحيات وصلت إلى أقصى حد وهو بذل النفس والتضحية بها لأجل سيف الدولة، وهذا الأمر لا يجازى بالعتب الذي يقابله به المخاطب، بل الأحرى به أن تقابل هذه التضحية الكبيرة بالثواب الجميل الذي ذكره في البيت الأول، ولل كلام هنا تهديد شديد للوجه السلبي للمخاطب، ففيه من الإرغام على الفعل تجاه المخاطب ما يجعله خارجاً عن التأدب بصورة عامة، إلا أنَّ أبا فراس كالعادة يحاول ألاَّ يوجِّه المعنى تجاه المخاطب بصراحة تامة، فنراه قد استعمل صيغة الاستفهام بدلاً من الصيغة الخبرية، وهذا ما يخفف درجة التهديد للوجه، كما لم يصرح بمن جازاه بالعتب، فجعل الفعل (أُثَابُ) مبنياً للمجهول، وهذا مما قد يجعل الخطاب أكثر مقبولية لدى المخاطب.

تقوم هذه المجموعة من الأفعال المهددة للوجه السلبي على تعزيز الشعور بالمديونية لدى المخاطب ليتجاوب مع ما يريده المتكلم، وهذا الأمر إن نظرنا له بتمعن ونظر فهو طلب مبطن يريد المتكلم من المخاطب تحقيقه، ولكن أسلوب هذا الطلب يأتي بطريقة غير مباشرة وواضحة، وكل فعل دلَّ على طلب كان مهدداً للوجه السلبي للمخاطب؛ لأنَّ الطلب يدفع المخاطب لفعل قد لا يرغب فيه، ولكنه هنا

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٢.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٣.

^٣ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٥.

أقل تهديدًا من الطلب الصريح لأن المتكلم يتوسل الفهم العرفي للمخاطب لفهم هذا الطلب والتفاعل معه، وهذا بذاته أيضًا منطبق على المجموعة الثالثة من الأفعال المهددة لوجه المخاطب السلبي، فهو تستبطن طلبًا غير مصرح به كذلك.

٣- الإفصاح عن الرغبات

المجموعة الثالثة من الأفعال التي تهدد الوجه السلبي للمخاطب هي الأفعال التي تعبّر عن رغبة المتكلم في أمر يمتلكه المخاطب أو يتعلق به، حيث يدفع هذا الأمر المخاطب لأن يعتقد بأنّ عليه أن يقوم بفعل ما لحماية ممتلكاته التي يرغب فيها المتكلم أو التنازل له عنها، وهذه الأفعال تشمل (الإطراءات والمدائح / التعبير عن الانفعالات السلبية تجاه المخاطب).^١

تقوم هذه المجموعة بتهديد الوجه السلبي للمخاطب من خلال إثارة توقّع حصول أمر قد لا يرغب فيه المخاطب؛ وبالتالي يكون المخاطب أمام خيارين صعبين، الأول محاولة منع حدوث هذا الأمر من خلال القيام بإجراءات معينة زائدة، وهذا الأمر قد يحمل كلفةً زائدةً على المخاطب كان في غنى عنها، والثاني القبول بحصول هذا الأمر الذي لا يرغب به المخاطب تجنبًا للكلفة الزائدة في الخيار الأول، فالتكلم يحصر المخاطب هنا في خيارين يقود كلٌّ منهما إلى وضع غير مريح له؛ لذلك عدّت هذه الأفعال مهددة لوجهه السلبي، فحرية المخاطب تم تحجيمها وتقييدها؛ لذلك تكون هذه الأفعال خارجة عن حدود التأدّب من هذه الجهة.

أ- المدائح والإطراءات

ولهذه الأفعال طريقتان يمكن أن تؤثر بهما على الوجه السلبي للمخاطب، أحد هذين الطريقتين يكون ألطف تعبيرًا، وأرقّ أسلوبًا، وهو طريق المدائح والإطراءات تجاه أمر معيّن يود المتكلم الحصول عليه، فالمدائح التي تعد من الأمور المعززة للوجه الإيجابي للمخاطب تتحوّل لمهدد لوجهه السلبي عندما تفرض عليه أمورًا وخيارات قد لا يرغب فيها، ولعلّ أبرز شاهد من التراث على هذا النوع من التحوّل قصة مقتل الشاعر أبو الطيب المتنبي؛ حيث ألزمه تذكير غلامه له بالأبيات التي مدح فيها نفسه،

^١ براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ١٦٥.

فجعله ذلك بين خيارين، إمّا أن يبرز لأعدائه فيقتل على أيديهم أو يفر فيكون غير مستحق للمدح الذي قاله عن نفسه، وقد اختار الخيار الأول فهلك^١.

وهذا الطريق استعمله أبو فراس ليحصل على مراده من سيف الدولة، فهو يمدح سيف الدولة في خصوص ما هو يريد منه تنفيذه؛ لأنّ أبا فراس يريد من مخاطبه أن يحرره من الأسر ويفديه فهو يركز على الصفات التي ترتبط بهذا الأمر في سيف الدولة، فيمدحه بها بغية إحراجه للعمل على وفقها فيما يخص رغبة المتكلّم في الخروج من الأسر، يقول في بعض أبياته مخاطبًا سيف الدولة:

وَأَنْتَ دَافِعُ كُلِّ خَطْبٍ مَعَ الْخَطْبِ الْمُلِمِ عَلَيَّ خَطْبٌ^٢

يمدح أبو فراس سيف الدولة بأنّه دافع كل خطب، فلا يستعصي عليه شيء، بل يؤكد الشاعر أنّ الخطب الذي ألّم به مدفوع من قبل سيف الدولة أيضًا، فالمتكلّم هنا أراد أن يوحى للمخاطب بأنّه يجب عليه أن يدفع الخطب الذي ألّم به، وهو وقوعه في الأسر بأيدي الأعداء، فيلزم هذا المدح المخاطب بالعمل وفق هذا المدح ليحققه، فيحصل المتكلّم على بغيته، أو يرفض تحرير أبي فراس من أسره ويتحمل تبعات هذا الأمر، وهي كونه غير مستحق لهذه المدائح والأوصاف، بالإضافة إلى الحاجة لتبرير موقف تجاه المتكلّم والجمهور المتلقي، فهنا يكون المخاطب محصورًا أمام أمرين يتوجب عليه الاختيار بينهما. يتوضح هذا الأسلوب أكثر في أبيات أخرى، يقول:

فَكَمْ شَأْنِي مِنْ قَعْرِ ظُلْمَاءَ لَمْ يَكُنْ لِيُنْقِذَنِي مِنْ قَعْرِهَا حَشْدٌ حَاشِدٌ

فَإِنْ عُدْتُ يَوْمًا عَادَ لِلْحَرْبِ وَالْعُلَا وَبَذَلَ النَّدَى وَالْجُودَ أَكْرَمُ عَائِدٍ

مَرِيرٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ لَكِنَّ جَارَهُ إِلَى خَصْبِ الْأَكْنَافِ عَذِبِ الْمَوَارِدِ^٣

يظهر المتكلّم المخاطب في صورة المنقذ الذي يساعد المتكلّم في كل ملمة تلم به، بل وينقذه من المصائب العظيمة التي لا يمكن أن يكشفها عنه (حشد حاشد)، فالمتكلّم هنا يمدح المخاطب بمدح عظيم، وفي ذلك دلالة إيجابية، إلّا أنّ هذا المدح الذي يرى في ظاهره معززًا للوجه الإيجابي للمخاطب يمكن أن تكون له جوانب مهددة للوجه السلبي له؛ لأنّه يلزم المخاطب بمسايرة هذا المدح الجزيل

^١ أنظر المتنبي، أحمد بن حسين: ديوان المتنبي، دط، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٦ وانظر عزام، عبد الوهاب: ذكرى أبي الطيب المتنبي بعد ألف عام، دط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م، ص ٢٠٨.

^٢ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٨.

^٣ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٨٢.

والتفاعل معه بإيجابية أو سلبية، ولكل خيار فوائده وعواقبه؛ لذلك يعد هذا الإلزام باختيار أحد الخيارين تهديدًا للوجه السلبي بالخصوص، ولكنّ هذا الطريق في تهديد الوجه السلبي يعدّ من أكثر الطرق لباقة في تهديد الوجه السلبي للمخاطب، فهنا يجمع المتكلم بين حالة التأدّب من خلال المدح وحالة اللا تأدّب من خلال إلزام المخاطب بمسايرة هذا المدح والتعاطي معه بغير ما يرغب، فهذا الأسلوب ذو وجهين، وجه يعزز الوجه الإيجابي وآخر يهدد الوجه السلبي؛ لذلك نرى بأنّ أبا فراس قد استعمله كثيرًا في خطابه تجاه سيف الدولة، فكونه خطابًا متوازنًا في تهديده لوجه مخاطبه.

ونجد أنّ أبا فراس قد وضع قاعدة شرطية في هذه الأبيات، هذه القاعدة تبني أساسًا للتعاقّد مع سيف الدولة، وهو أنّ المتكلم سيقوم للدفاع عن الدولة وبالمقابل سيكرمه سيف الدولة بالعطايا والكرم الذي تعودّه منه، هذا الأمر يجعل سيف الدولة أمام خيار قبول هذا العرض أو رفضه، وهذا يدخل كذلك ضمن أفعال المجموعة الثانية التي تبني تهديد الوجه السلبي على إحداث الشعور بالمديونية، ولكنه أيضًا يدخل ضمن هذه المجموعة كونه مدحًا لكرم المخاطب المرجو من قبل المتكلم، فإنّ عبارات الخطاب الواحد قد تتداخل فيها الأفعال الكلامية المختلفة مما يؤدي لتأثيرات مختلفة ناتجة عن ذات العبارة.

ب- التعبير عن الانفعالات السلبية تجاه المخاطب

الطريق الثاني الذي يمكن أن تسلكه أفعال هذه المجموعة لتهديد وجه المخاطب السلبي هو الطريق الأكثر تهديدًا والأقلّ تأدّبًا، وهو طريق التعبير عن الانفعالات السلبية التي تجعل المخاطب يتوقع حدوث ضرر بسببها من قبل المتكلم، وهذا مثل التعبير عن الغضب أو الحقد أو الكراهية أو الرغبة الجنسية تجاه المخاطب أو غيرها من الانفعالات التي تجعل المخاطب في موقف يحتاج فيه أن يقوم بعمل ما تجنبًا لوقوع الضرر المتوقع جرّاء هذه الانفعالات، ومن هنا يكون التعبير عن هذه الانفعالات مهددًا لوجه المخاطب السلبي؛ لأنّه يجبره أو يدفعه للقيام بإجراء قد لا يرغب في القيام بتنفيذه؛ لأنّ هناك أعمالًا غير مرغوبة قد تقع إن لم يقم المخاطب بذلك الإجراء، فهنا يكون المخاطب محصورًا بين أمرين غير مرغوبين، فيتهدد وجهه السلبي، وإنّ أشبه أسلوب بهذه الأفعال هو أسلوب التهديد الذي مر بيانه، فالتهديد والتحذير يجعل المخاطب متوقعًا لحدوث المهدّد به أو المحذّر منه، أو القيام بإجراء ما لمنع حدوثهما، وهما ذات الخيارين في أثر الانفعالات السلبية في هذه المجموعة من الأفعال المهددة.

فيمكننا أن نعد هذه الأفعال تهديدًا أو تحذيرًا غير مباشرين، يوصلها المتكلم بصورة غير صريحة من خلال التعبير عن مشاعره السلبية تجاه المخاطب، فلو قال متكلم لآخر مهددًا له: (سأضربك ضربًا مبرحًا)، وقال آخر له: (أنا غاضب منك جدًّا)، فكلا العبارتين قد تدلان على التهديد بإيقاع الضرب بالمخاطب، ولكن الأولى تعد تهديدًا مباشرًا للمخاطب، وهم أقبح من الثانية؛ لأنها مجرد تعبير عن الغضب تجاه المخاطب، وهذا التعبير قد يلزم أحيانًا إرادة المتكلم ضرب المخاطب وقد لا يلزمه، ويحكم هذا الأمر ظروف إنتاج هذه العبارة، كسياقها العام وطريقة التلقظ بالعبارة وطبيعة المتكلم ومكانته وغيرها من الجوانب المؤثرة في تحديد الدلالة للعبارة، فإنها حين نفرض دلالتها على نية المتكلم ضرب المخاطب لا تؤدي مجرد وظيفة التعبير عن المشاعر والانفعالات السلبية، بل تقوم بدور التهديد والتحذير للمخاطب.

إنّ تعبير أبي فراس عن مشاعره السلبية هو في حقيقة الأمر متحقق في خطاب الشكوى والعتاب بنفسه، فشكوى الشاعر وعتابه هو تعبير عن مشاعر سلبية تجاه سيف الدولة، ولكننا نجد أن هناك ألفاظًا وتعبيرات خاصة في خطاب أبي فراس تحمل دلالة على تأثير هذه المشاعر السلبية في تهديد أبي فراس للوجه السلبي لسيف الدولة، منها قوله:

أرى الغلّ من تحت النفاقِ وأجتني من العسلِ الماذي سُمّ الأسودِ
وأصبرُ مالم يُحسبُ الصبرُ ذلّةً وألبسُ للمذمومِ حُلّةً حامدٍ^١

يبدو من هذين البيت حجم القهر والألم الذي بداخل أبي فراس، وأنّ هذا القهر قد يؤدّ الغضب والحقّد تجاه من تسبب به، فهناك من يخدع الشاعر ويظهر له الود ولكنه يحمل في قلبه الغل والحقّد تجاه الشاعر، وهذا النفاق لا يعجب الشاعر بالطبع، فهذا المنافق يسقيه بالسم مع العسل، فيريد قتله، ولكنّ الشاعر صرّح بصبره، وهنا إلى هذه العبارة لا يوجد أي تهديد للوجه السلبي لأحد، بل مجرد تهديد للوجه الإيجابي لشخصية منافقة لم يصرح بها الشاعر، ويبدأ التهديد للوجه السلبي بقوله (مالم يحسب الصبر ذلة)، فجعل الشاعر الصبر مقيّدًا بعدم الذلة، وهنا يبيّن أنّه يحمل مستوى محدود من الصبر سينتهي قريبًا، فهذه المشاعر السلبية تهدد وتحذر المخاطب من عدم تلبية طلب أبي فراس؛ لأنّ ذلك قد يوقعه في الذلة وبالتالي يخرج المتكلم من حالة الصبر على الأذى إلى مواجهته.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٨٣.

قد يظن ظاناً بأن أبا فراس لا يملك ما يخوف به سيف الدولة، فتعبيره عن مشاعره السلبية لا يعدو كونه استجداءً للعطف من سيف الدولة، إلا أن هذه الفكرة جانبة للصواب، فأبو فراس يمكنه أن يقطع العلاقة مع سيف الدولة، بل ويسلط لسانه الحاد عليه، فالمتكلم هنا شاعر متمرس، يمتلك قوة اللسان وإن كان في الأسر، والشعر في ذلك الوقت له أهميته وتأثيره، كما يمكن أن يتعاون أبو فراس مع أعداء سيف الدولة ضده؛ لأنه يمتلك قدرات القتال والفروسية والخبرة العسكرية، وحتى لو افترضنا أن أخلاق أبي فراس تأبى عن ذلك، فمجرد انقطاع العلاقة بينه وبين سيف الدولة ستكون عاراً على سيف الدولة؛ لأنه سبب ذلك تركه في الأسر وخذلانه.

كما يظهر أبو فراس مشاعره السلبية حين حلّ عليه العيد في الأسر بقوله:

يا عيدُ ما عُدْتَ بِمَحْبُوبٍ عَلَى مُعْنَى الْقَلْبِ مَكْرُوبٍ
يا عيدُ قَدْ عُدْتَ عَلَى نَاطِرٍ عَنْ كُلِّ حُسْنٍ فِيكَ مَحْجُوبٍ
يا وَحْشَةَ الدَّارِ الَّتِي رُبُّهَا أَصْبَحَ فِي أَثْوَابِ مَرْبُوبٍ
قَدْ طَلَعَ الْعِيدُ عَلَى أَهْلِهِ بِوَجْهِ لَا حُسْنَ وَلَا طَيْبٍ^١

ويقوى ظهور هذه المشاعر السلبية في قصيدته التي قالها مخاطباً أمّه والتي مطلعها:

مُصَابِي جَلِيلٌ وَالْعَزَاءُ جَمِيلٌ وَظَنِّي بِأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُدِيلُ
جِرَاحٌ تَحَامَاهَا الْأُسَاءُ مَخُوفَةٌ وَسُقْمَانٍ بَادٍ مِنْهُمَا وَدَخِيلُ
وَأَسْرٌ أَقَاسِيهِ وَلَيْلٌ نُجُومُهُ أَرَى كُلَّ شَيْءٍ غَيْرُهُنَّ يَزُولُ^٢

نجد الشاعر في هذه الأبيات الكثيرة يعبر عن حزنه وكمده لما لاقاه من أسره، وهذا الحزن والتعبير عن الألم والضيق يمكن أن يترجمه المخاطب سيف الدولة كالإزام بفعل ما قبل فوات الأوان وحصول ما قد يخشاه المخاطب من انقلاب المودة إلى العداوة بين الطرفين، أو حتى موت الشاعر في أسره، فبالرغم من كون هذه الأبيات موجهة في ظاهر الأمر لوالدته إلا أن لها مخاطباً حقيقياً يريد أبو فراس

^١ أبو فراس: الديوان ج ٢ ص ٢٩.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٣١٢.

أن تصل له هو سيف الدولة، فهو تهديد غير مباشر للوجه السلبي لسيف الدولة، إلا أن الشاعر في أبيات عديدة يظهر رضاه عن مخاطبه سيف الدولة، وذلك كقوله:

وَلَكِنِّي رَاضٍ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ لِيُعْلَمَ أَيُّ الْحَالَتَيْنِ سَرَابٌ
وَمَا زِلْتُ أَرْضَى بِالْقَلِيلِ مَحَبَّةً لَدَيْكَ وَمَا دُونَ الْكَثِيرِ حِجَابٌ
وَأَطْلُبُ إِبْقَاءَ عَلَى الْوُدِّ أَرْضَهُ وَذِكْرِي مُنَى فِي غَيْرِهَا وَطِلَابٌ
كَذَاكَ الْوِدَادُ الْمَحْضُ لَا يُرْتَجَى لَهُ ثَوَابٌ وَلَا يُخْشَى عَلَيْهِ عِقَابٌ
وَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى الْهَجَرَ وَالشَّمْلُ جَامِعٌ وَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَفَنَةٌ وَخَطَابٌ^١

وهذه الأبيات بمثابة تطمين له بأنه رغم هذا الألم والحزن والأسى لم يقطع مودة سيف الدولة، وهذا مما لا غرابة فيه فالشاعر رغم ذلك يريد من سيف الدولة تحريره، وما يملكه سيف الدولة أقوى مما يملكه أبو فراس، فالسلطة بيد سيف الدولة، أما أبو فراس فهو عاجز في أسرهِ لا يملك سوى الشعر، فلا يرى أبو فراس أن من الحكمة أن يقطع العلاقة مع مخاطبه سيف الدولة بهذه السهولة، وإنما مجرد التلميح بذلك من بعيد قد يؤدي الغرض؛ لذلك كان التهديد باستعمال هذا الأسلوب معوّضاً عنه بتعبيرات الودّ والثناء والرضا التي أوردها أبو فراس.

فإنّ حضور هذه الانفعالات السلبية أمرٌ متوقع عند النظر إلى خطاب الشكوى والعتاب بصورة خاصة، فهو خطاب يتسم بالتعبيرية^٢، وهذه التعبيرية تحتم على منتج الخطاب أن يخرج ما بداخله من مشاعر، هذه المشاعر تتحوّل لمهددات لوجه الطرف الآخر بصورة تلقائية قد لا يحسب المتكلّم لها حساباً، وهذا ما يحتاج من المتكلّم أن يستعمل بعض تقنيات تخفيف تهديد الوجه، مثل ذلك التطمين في الأبيات السابقة، وهذا يندرج ضمن ما يعرف ضمن نظريات التأدّب بالأفعال التعويضية^٣ التي يأتي بها المتكلّم ليعوّض تهديد وجه مخاطبه.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٢.

^٢ راجع المهاد النظري.

^٣ براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ١٦٩.

لذلك تكمن أهمية هذه الإجراءات التي يسير عليها أبو فراس في خطابه في الحد من أثر الأفعال المهددة لوجه المخاطب، ولا يمكن الاستغناء عن تلك الإجراءات بتجريد الخطاب مما يمكن أن يحقق حالة التوازن اللازمة لمقبولية الخطاب.

خاتمة: التهديد للوجه بين الإيجابي والسلبي

في نهاية هذا الفصل نستنتج وجود تنوع في الأفعال المهددة لوجه المخاطب التي وردت في خطاب الشكوى والعتاب لدى أبي فراس، وقد كان المخاطب المستهدف بهذه الأفعال المهددة في أغلب الخطاب سيف الدولة الحمداني، وهذا يعود لكون الموضوع المشتكى منه هو الأسر، فصاحب الشأن في ذلك هو سيف الدولة؛ لذلك كان وجهه الأكثر عرضة للتهديدات في هذا الخطاب، وهذا التهديد شمل نوعي الوجه الإيجابي والسلبي.

قد تركّز تهديد الوجه الإيجابي على انتقاد واستنكار ورفض تقاعس سيف الدولة عن نجدة أبي فراس، وتوقفت الأفعال المهددة للوجه الإيجابي عند هذا الحد، فلم ينحدر الخطاب إلى الأفعال المهددة للوجه الإيجابي بشدة، فلم نجد السخرية والتهم والإهانة الشديدة في خطابه، كما احترمت المتكلم بصورة عامة العلاقة بين أطراف الخطاب، إلّا في مواضع يسيرة ذكرناها، هذه المواضع كان لها نصيب من الأفعال التعويضية، وهي الأفعال التي تعوّض تهديد الوجه، وبذلك أعاد ذلك الخطاب إلى حالته الطبيعية من التأدّب الإيجابي.

ونجد أنّ الأفعال المهددة لوجه المخاطب السلبي حضرت في خطاب أبي فراس لتدفع سيف الدولة إلى تحرير أبي فراس من الأسر، فقد استعمل الأساليب المتنوعة التي من شأنها أن تقيّد حرية الاختيار لدى سيف الدولة، ليحمّله ذلك على قبول فداء أبي فراس وتخليصه من الأسر، وهذا النوع من التهديد للوجه كان له حضور أكبر لأنه أقل حدة من التهديد للوجه الإيجابي، ومع ذلك كان استعمال الأفعال التعويضية حاضراً لتلافي أي من حالات الخروج عن التأدّب المفترض في الخطاب.

يمكن أن نلاحظ حضور هذه التهديدات بنوعيتها بصورة كثيفة نظراً لطبيعة الخطاب، فخطاب الشكوى والعتاب خطاب حساس يستهدف المخاطب بصورة قد تخرج عن مقتضى التأدّب؛ لذلك لا غرابة في وفرة المهددات للوجه في خطاب كهذا، وكما ذكرنا في الفصل الأول من البحث، إنّ غرض المتكلم من خطابه يؤثر في تحديد شدة التهديد للوجه، فالمتكلم في خطاب الشكوى والعتاب يريد عادة من خطابه هذا أن يؤثر على المخاطب بصورة ما تجعله يحاول رفع سبب هذه الشكوى أو ما نسميه المشتكى منه، وتحقيق هذا المطلب من خلال الخطاب يحتاج استعمال صيغ وأساليب تهدد وجه المخاطب، كأسلوب الأمر والنهي الذي يهدد بصورة أساسية الوجه السلبي للمخاطب، وأسلوب الاستنكار الذي يهدد الوجه الإيجابي للمخاطب بصورة كبيرة.

إنَّ وجود هذه الأفعال والأساليب المهددة هو ما يعطي للخطاب تحققه الفعلي، ومن هنا نقول إنَّ خطاب الشكوى والعتاب إن خلا من هذه الأفعال المهددة لم يحصل له تحققه الفعلي كخطاب شكوى وعتاب، بل سيتحول لخطاب آخر؛ لأنَّ الخطابات متقومة بأساليبها وأغراضها الخاصة، فعندما يحدث تغيير في تلك الأساليب أو الأغراض لا يصح أن يسمى الخطاب باسمه السابق، ولذلك نقرر حقيقة كون هذه الأساليب والأفعال المهددة عنصراً أساسياً في الخطاب، أمّا الاختلاف بين هذه الخطابات يكون في قوة هذه الأساليب ومدى مناسبتها لأغراض الخطاب.

فطبيعة الخطاب قد تفرض على منتجه هذه التهديدات والانتهاكات للوجه، كما لغايات الخطاب دور بارز في الدفع نحو انتهاك وجهي المخاطب الإيجابي والسلبي معاً، فالغاية خطاب الشكوى والعتاب هنا نظراً لكونها طلباً ملحاً بالنسبة إلى المتكلم، نجده يركز عليها بصورة تفرز تهديدات كبيرة لوجه المخاطب، فكلما كان الطلب عاجلاً وضرورياً يتخفف المتكلم عن قيود التأدب أكثر، فهذا ما جرى في خطاب أبي فراس، ذلك أنَّ الحاجة للخروج من الأسر حاجة ملحة وعاجلة لا يمكن تأجيلها، كما أنَّها استمرار بقاء أبو فراس في أسره يزيد من معاناته وبالتالي يزيد من شدة تهديده.

من الشواهد على هذا الأمر اختلاف شدة تهديد أبي فراس لوجه مخاطبه كلما تقدم به الزمن في الأسر، فقد قدّم أبو فراس أبياتاً فيها عتابٌ رقيق مراعيًا به وجه سيف الدولة، إلّا أن تجاهل سيف الدولة أو عدم تفاعله واستجابته لمعاتبه أبي فراس دفعته أن يزيد من حدة لهجته معه؛ وبالتالي يحدث التهديد بصورة أكبر، فقد قال في بعض عتابه اللطيف وطلبه الفداء:

دَعَوْتُكَ وَالْأَبْوَابُ تُرْتَجُّ دُونَنَا فَكُنْ خَيْرَ مَدْعُوٍّ وَأَكْرَمَ مُنْجِدٍ

فَمِثْلُكَ مَنْ يُدْعَى لِكُلِّ عَظِيمَةٍ وَمِثْلِي مَنْ يُفْدَى بِكُلِّ مُسَوِّدٍ^١

وقال بعد أن لم يجد جواباً لعتابه:

تَنَكَّرَ سَيْفُ الدِّينِ لَمَّا عَتَبْتُهُ وَعَرَّضَ بِي تَحْتَ الْكَلَامِ وَقَرَّعَا^٢

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٧٦.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٤٦.

بالمقارنة بين البيتين يتضح أنّ التهديد لوجه سيف الدولة يزداد نتيجة الضغوط التي يتعرض لها أبو فراس ببقائه في أسر العدو، ومع ذلك نجد أنّ هذا الأمر لا يخرج الخطاب عن تأدبه بصورة كلية، فأسلوب أبي فراس له جوانب أخرى قد حمت وجه سيف الدولة مع وجود هذه التهديدات له.

كما يمكن ربط هذه التهديدات بصورة خاصة بالعوامل التي تم بيانها في الفصل الأول، فالقيود الاجتماعية التي ترتبط بكون المخاطب ملكاً لا تبقى حينما يكون هذا الملك بعيداً عن المتكلم بحيث لا يؤثر المدح أو الذم فيه، فسيف الدولة هنا لا سلطة مباشرة له على أبي فراس، بل سلطته تكمن في الإقدام على تحرير أبي فراس من أسره من خلال الفداء فقط، وهذا وإن كان مهماً بنظر أبي فراس، إلا أنّ الأمر قد يصل لمرحلة يجد فيها أبو فراس مخاطبته سيف الدولة غير آبه بتحريره، فيقل رجاؤه منه، كما لا يكون هناك خوف من ضرر قد يقع من المخاطب، حيث لا يملك سلطة على المتكلم، وبهذا يكون المتكلم أكثر حرية في الكلام، فما سيخسره ليس كبيراً حينها.

على حين أنه في حالة وجود ذلك الرجاء بالخروج من الأسر تجد أنّ أبا فراس يحاول تليين الخطاب مع سيف الدولة؛ لأنّه عرضة لخسارة هذه الفرصة الوحيدة للحرية، فيكون ذلك مدعاة لتقييد الخطاب بصورة أكبر؛ وبالتالي تقليل تلك التهديدات المختلفة للوجه، وهذا الأمر يلمس عند النظر إلى الأبيات التي تم استعراضها وتحليلها في هذا الفصل، فالخطاب يزيد تهديده عندما تزداد مشاعر اليأس والاحباط التي يظهرها بصورة أكبر، أمّا عندما يملك الشاعر أملاً في الحرية نجده يلتزم بمقتضيات التأدب وقيوده بصورة أكبر.

ولا يمكننا أن نهمل العوامل الذاتية للمتكم وعلاقته بالمخاطب، والتي تفرض بعض القيود على طريقة إنتاج الخطاب وصورته، وهذا أمرٌ متوقع، فتلك الصفات تلقي ظلالها على تأدب الخطاب، حيث لا يتمكن المتكلم من الخروج عما تقتضيه شخصيته وصفاته، وهذا الأمر يبرز كثيراً حتى في حالات انعدام الأمل التي يمر بها أبو فراس.

ولكن نتحقق الفردة الحقيقية بالنسبة إلى خطاب الشكوى والعتاب في الإجراءات التي يتخذها حفظاً لوجه المخاطب وتخفيفاً من شدة التهديد لوجهه، وذلك ما يمكن أن يعد مزية¹ لخطاب أبي فراس عن غيرها خطابات الشكوى والعتاب، فكل متكلم له أسلوب خاص وطريقة يتبعها في شكواه، وتكمن مميزات الخطاب من جهات متعددة، ما يهمننا فيها هو جانب تأدب الخطاب، وهو الأمر الذي يبدو مؤثراً بصورة

¹ ليست المزية الوحيدة بالطبع.

ما في كيفية ظهوره للمتلقى، وهنا تتميز طريقة أبي فراس بجوانب كثيرة منها محاولة حفظ وجه المتكلم من خلال بعض الإجراءات والاستراتيجيات الخاصة التي ستكشف في ما يأتي من البحث.

الفصل الثالث:

خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس في ضوء قواعد مبدأ التأدب

- تمهيد
- المبحث الأول: تجليات قاعدة التعفف في خطاب الشكوى والعتاب
- المبحث الثاني: تجليات قاعدة التشكك في خطاب الشكوى والعتاب
- المبحث الأول: تجليات قاعدة التودد في خطاب الشكوى والعتاب
- خاتمة: في درجة امتثال خطاب الشكوى والعتاب لقواعد مبدأ التأدب

تمهيد

يحتوي خطاب الشكوى والعتاب على الكثير من الأفعال المهددة للوجه، لكننا نحتاج إلى ضوابط محددة لقياس هذه الأفعال المهددة، ومدى انتهاكها لحد التأدب، وهذا لا يتم بدون الرجوع لقواعد التأدب التي استنتجها علماء هذا المجال، وأبرز ما استنتج في مجال قواعد التأدب ذلك المبدأ الذي أتت به عالمة اللسانيات روبن لاكوف، مبدأ التأدب الذي اقترحته يقوم على ثلاثة قواعد للتأدب، هذه القواعد كلما التزم بها خطاب ما كان أقرب للتأدب والعكس بالعكس، فالخطاب الذي تظهر فيه المراعاة التامة لهذه القواعد يكون خطاباً متأدباً، أما الخطاب الذي يخالف أو ينتهك هذه القواعد فيعد خارجاً عن التأدب.

إن أهمية هذا النموذج قائم على كونه نموذجاً فريداً ومحددًا، بحيث يجمع العديد من الظواهر التي تؤثر في تأدبية الخطاب ويصنفها في قواعد ثلاث يمكن للدارس أن يتبين مدى انطباق كل قاعدة عليه، فكل قاعدة يمكن الاستفادة منها من خلال النظر إلى الأفعال والممارسات التي تتوافق مع القاعدة من جهة والأفعال الأخرى التي تخالف القاعدة، وبذلك يمكننا بدلاً من عملية الرصد العشوائية لهذه الظواهر أن نقيس مدى التزام الخطاب بحالة التأدب قياساً أكثر دقة.

كما تجب الإشارة إلى أن هناك نماذج أخرى قد وضعت بعض القواعد التي يمكن الاستفادة منها في هذا المجال، كمبدأ التعاون الذي أتى به غرايس الذي يتكوّن من أربع قواعد، والقواعد التي زادها جيوفري ليتش عليها في نموذجهِ^١. لكن بالرغم من أهمية هذه القواعد إلا أن لايكوف قد جمعت كل هذه القواعد ولخصتها في ثلاثة قواعد فقط، مما يسهل عملية تتبع حالة التأدب بشكل أدقّ، كما احتوت قواعد غرايس على جوانب قد لا تكون خاصة بتأدب الخطاب تحديداً، بل تشمل جوانب تداولية عامة للخطاب.

لذلك كان الاعتماد على مبدأ التأدب لروبين لايكوف بصورة أساسية، ويمكننا كذلك الاستفادة من القواعد التي أفادها ليتش في تحليل وقياس تأدب الخطاب المدروس، للخلوص بنتائج يمكننا من خلالها تحديد مميزات هذا الخطاب وخصائصه. فمبدأ التأدب عند روبين لايكوف يتكوّن من ثلاث قواعد، هي:

^١ بروان ولفنسن: نظرية التأدب، ص ٦٨.

١- قاعدة التعفف

٢- قاعدة التشكك

٣- قاعدة التودد

وسندرس المدونة المختارة وفق هذه القواعد الثلاث، حيث نفرد لكل قاعدة مبحثًا خاصًا لرصد وتحليل تجليات هذه القاعدة وتطبيقاتها في خطاب أبي فراس، مع التطرّق لبعض قواعد غرايس وليتش التي تتفق مع القاعدة التي ندرس الخطاب من خلالها، وهذا كفيل بتقديم صورة واضحة عن مدى الالتزام بالتأدّب في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس.

المبحث الأول: تجليات قاعدة التعفف في خطاب الشكوى والعتاب

القاعدة الأولى من قواعد مبدأ التأدب هي قاعدة التعفف، هذه القاعدة تفترض ألا يقوم المتكلم بفرض نفسه على المخاطب، حيث يتوجب عليه أن يترك للمخاطب مسافته الخاصة ولا يفرض عليه ما لا يطيق^١، هذه القاعدة تتعلق بشكل كبير بمفهوم التأدب السلبي، فهي تصب في نفس الهدف الذي يرمي إليه التأدب السلبي، والذي يهتم بالحفاظ على الوجه السلبي للمخاطب، بحيث يترك له حرمة الخاص ولا يتدخل فيه.

ويتحقق الالتزام بهذه القاعدة من خلال تجنب ما يزعج المخاطب، كعدم استعمال الصيغ الإلزامية المباشرة كالأمر والنهي، وعدم التحدث فيما لا يليق بالمخاطب، كما يجب مراعاة المسافة الاجتماعية بين طرفي الخطاب بما يعطي لكل طرف ما يناسبه من خطاب، فلا يخرج المتكلم عما وضعه المجتمع من أعراف وقيود لصالح المخاطب، كما ينبغي الالتزام بالسياق الرسمي في الكلام حين اقتضاء ظروف الخطاب لذلك.

ومن الأمور التي ينبغي استعمالها لتحقيق هذه القاعدة صيغ الاستئذان، حيث لا يدخل المتكلم في موضوع إلا بعد أن يكون قد استأذن المخاطب في الدخول فيه، وعندما نتكلم عن الاستئذان لا نقصد بالضرورة الاستئذان المباشر، بحيث يطلب المتكلم من المخاطب مباشرة أن يتكلم في موضوع ما، بل يتحقق الاستئذان بمجرد إبلاغ المخاطب بالرغبة في الدخول في ذلك الموضوع من خلال صيغ تمهيدية غير مباشرة يستكشف من خلالها رضا أو قبول المخاطب للخوض في ذلك الموضوع، وهذا ما شأنه أن يهيئ المخاطب للحديث في الموضوع المراد فتحه، فكل ذلك يصب في احترام رغبات المخاطب بشكل كامل.

إنّ هذه القاعدة كما ذكرنا تميل أن تحقق حالة التأدب السلبي بصورة أكبر، إلا أنّ التأدب الإيجابي يمكن أن يتحقق بها كذلك، فاستعمال الصيغ المناسبة ومراعاة المسافة الاجتماعية بين طرفي الخطاب وغيرها من مقتضيات هذه القاعدة، يمكن أن تسهم بشكل ما في تعزيز التأدب الإيجابي للخطاب أيضًا، فقواعد مبدأ التأدب تظهر مدى التداخل الكبير بين نوعي التأدب الإيجابي والسلبي، فإنّ كل نظرية

^١ أنظر كوياتي، سيكو: التأدب في شعر أبي الحسن الحصري القيرواني (دراسة تداولية)، المجلة الإندونيسية للدراسات العربية، المجلد ٤ العدد ١، ٢٠٢٢م، ص ٩١.

حاولت تقديم نموذجها الخاص لدراسة التأدب، وكلّ منها حاول تلافي نقاط ضعف الآخر، فحتى قواعد لايكوف سنجد فيها لونا من التداخل.

كما تتداخل هذه القاعدة مع بعض قواعد غوفري ليتش، الأولى هي قاعدة اللباقة التي تقتضي أن يقوم المتكلم بتقليل خسارة الغير وزيادة نفعه من خلال تجنب الخلاف والنزاع معه^١، هذه القاعدة تتفق مع قاعدة التعفف في اجتناب ما لا يرغبه المخاطب، فالقاعدتان تقتضيان الابتعاد عن الموضوعات الخلافية، وتجنب صيغ الأمر والنهي المباشرة، وتلزمان المتكلم باحترام حرف المخاطب وأخذ الإذن منه عند محاولة الدخول إليه.

القاعدة الثانية من قواعد ليتش التي تتداخل مع قاعدة التعفف هي قاعدة الاتفاق، وهي تختص بتقليل الخلاف بين المتكلم والمخاطب إلى أقصى درجة في التبادل القولي^٢، وهذا من شأنه كذلك أن يحقق حالة التأدب السلبي بإعطاء المجال والحرية للمخاطب؛ فلا يرى نفسه مجبراً على أن يتصرف وفقاً لذلك الخلاف، كما لا يجد نفسه محتاجاً لأن يدافع عن رأيه أو أن يقبل بالرأي المخالف عند الطرف الآخر، فهنا تسير هذه القاعدة في ذات الطريق التي تسير عليه قاعدة التعفف.

الالتزام بقاعدة التعفف

مدى التزام خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس بقاعدة التعفف يتوقف على إفساح المجال للمخاطب للاختيار واتخاذ الموقف الذي يراه دون ضغوط، وهذا الأمر إن تم تجاوزه في بعض ما سيأتي من خروقات، إلا أن هناك جانباً من الالتزام ببعض ما تقتضيه القاعدة في خطاب أبي فراس، هذه الحالات تمثل على النقيض من حالات خرق القاعدة أموراً تعزز احترام حرم المخاطب وتراعي المسافة الاجتماعية وتؤكد حضور قاعدة التعفف، وبذلك تزيد من تأدبية الخطاب.

وتأتي هذه الحالات في عدة سياقات مختلفة، فبعضها يأتي كفعل تعويضي لإصلاح أمر كان قد أفسده المتكلم في عبارة استعملها، أو تأتي لموازنة الخطاب بحيث يعوّض به عن شدة أسلوب مرّ

^١ أنظر كوياتي، التأدب في شعر أبي الحسن الحصري القيرواني (دراسة تداولية)، ص ٩١.

^٢ أنظر المرجع نفسه ص ٩١.

استعماله، وقد تأتي كمحاولة للتأكيد على مكانة المخاطب، مما يعزز احترام المسافة الاجتماعية التي بين الطرفين، كل ذلك يؤدي غرضًا مشتركًا بالنسبة إلى تأدب الخطاب، وهو الالتزام بقاعدة التعفف.

فالأبيات التي ذكرت ستذكر لبيان تعويض خرق قاعدة التعفف^١ تمثل خير دليل على محاولة إعطاء المتكلم لمخاطبه المساحة التي يحتاجها لاتخاذ قراره، وهنا تظهر مراعاة حرم المخاطب، فهو يصرح برضاه عن المخاطب، حتى لو اختار عدم تحريره، هذا الأمر يقلل الضغط على المخاطب ولا يفرض عليه أفعالًا محددة، مع بقاء رغبة أبي فراس في التحرر، وهذه الرغبة غير الملزمة يكون احترام المخاطب فيها جليًا، خلافًا للتصريح بلزومية تحقيق المخاطب لرغبة المتكلم، فذلك يؤدي لعدم التأدب في بيان هذه الرغبة.

ينبغي ملاحظة أن أبا فراس قد استعمل الطريقتين في بيان رغبته، فأحيانًا نجده يبينها على نحو الإلزام، وأخرى يحاول ألا يفرض تحقيق هذه الرغبة، وهذا التنوع في الأساليب يمثل حالات مختلفة من الشدة في الخطاب، مما يشير إلى اختلاف نهج سير الخطاب وتأديبه باختلاف رؤية المتكلم لطلبه وشدة رغبته في تحقيقه، وحالته النفسية تجاه مخاطبه كما مر، فكل هذه العوامل تنعكس بصورة ما في حالة تأدب الخطاب عند التصريح بهذه الرغبة، مما يولد خطابًا متأرجحًا بين التأدب واللا تأدب أحيانًا.

تظهر محاولة أبي فراس لاحترام مخاطبه من خلال مخاطبته بالطرق والأساليب التي تُخاطب بها الملوك، وهذا ما يعزز المحافظة على دور المخاطب كملك ذو سلطة أمام رعيته، هذه الأفعال والأساليب تمثل مراعاة للمسافة الاجتماعية، كما تخلق جواً من الود بين طرفي الخطاب، وهذا من شأنه أن يطمئن المخاطب بشأن إمكانية اختيار ما يريد، فمثلاً قوله:

فَفِي حَلَبٍ عُدَّتِي وَعِزِّي وَالْمَفْعَرُ

وَفِي مَنبِجٍ مَن رِضَا هُوَ أَنفُسُ مَا أَدْخَرُ

وَمَنْ حُبُّهُ زُلْفَةٌ بِهَا يُكْرَمُ الْمَحْشَرُ^٢

هنا يوجّه أبو فراس الأوصاف الكريمة والحميدة لمخاطبه سيف الدولة، وهذه الأوصاف هي الأوصاف التي يحب أن يمدح بها الملوك؛ لأنها تنسب للمخاطب العزة والقوة والكرامة والفخر، هذا

^١ راجع صفحة ١١٣.

^٢ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٠٦.

الأسلوب نجده في كثير من أبيات أبي فراس، مما يُلين الخطاب بصورة كبيرة، ويعطي للمخاطب مكانته التي يريدها، وبذلك لا يرى المتكلم لنفسه فضلاً أو حقاً في رقبة المخاطب، فهذا الأسلوب تأثير نفسي يرتبط بجعل المخاطب مطمئناً تجاه المتكلم، هذا الاطمئنان قد يدفع المخاطب لتفهّم حاجات المتكلم ورغباته بصورة أكبر، كما لا يجد نفسه ملزماً بتحقيقها، إلا من جهة كون تحقيقها مكسب للمخاطب نفسه.

فتأثير هذا المدح يضع الخطاب في مساره التأديبي الصحيح، كرجل من الرعية يطلب نجدة حاكمه، وهذا المسار هو ما يرغب فيه الملوك، وبذلك يكون هذا الخطاب ملائماً لما يريده سيف الدولة، خصوصاً مع كون المتكلم واقعاً في الأسر ويطلب الخلاص منه، فهذا الأمر يعزز فكرة أنّ المتكلم لا يلقي باللوم على المخاطب لحلول هذا الخطب به، فهذا يمنح المخاطب حرية أكبر في التعامل مع طلبات ورغبات المتكلم.

خرق قاعدة التعفف

نجد أنّ أبا فراس في شعره الخاص بالشكوى والعتاب يحاول أن يلتزم بهذا الأمر الذي يصب في هذه القواعد المذكورة، فالشكوى والعتاب في طبيعتها تخلق الخلاف وتظهره، فأبو فراس يريد بخطابه أن يرغم سيف الدولة على تحريره من الأسر، وهذا الأمر يعد مخالفاً لهذه القاعدة، فالقاعدة تقتضي عدم إلزام المخاطب بما لا يرغب، وهذا الطلب من أبي فراس يحمل مخاطبه على ما قد لا يرغب فيه، فقد قال:

فَلَا تَتْرُكِ الْأَعْدَاءَ حَوْلِي لِيفْرَحُوا وَلَا تَقْطَعْ النَّسَالَ عَنِّي وَتَقْعُدِ

وَلَا تَقْعُدَنَّ عَنِّي وَقَدْ سِيمَ فِدَيْتِي فَلَسْتُ عَنِ الْفِعْلِ الْكَرِيمِ بِمُقْعِدٍ^١

فهذا الطلب المتكرر من أبي فراس يخرق القاعدة بحيث يجعل هذا الأمر خارجاً عما تعدّه تأديباً؛ لأنّ الطلب في حد ذاته ضرر لوجه المخاطب إن كان لا يرغب فيه، ويمكننا الكشف عن عدم الرغبة

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٧٦.

فيه من خلال إلحاح أبي فراس بتكرار هذا الطلب كثيرًا في أبياته وقصائده، مما جعل هذا الطلب يخرج عن حد التأدب كما تقول القاعدة.

كما أنَّ أبا فراس لم يكتف بالطلب المجرد بل حاول إجبار سيف الدولة لقبول الطلب، وذلك من خلال تحذيره من تبعات هذا إهمال هذا الطلب، وهذا فيه مخالفة شديدة لقاعدة التعفف، فهي تقتضي ألا يقوم المتكلم بفرض نفسه على المخاطب، وهنا يظهر العكس من أبي فراس، قال بعد البيتين السابقين:

تَشَبَّثَ بِهَا أَكْرَمَةٌ قَبْلَ فَوْتِهَا وَثُمَّ فِي خَلَاصِي صَادِقَ الْعَزْمِ وَاقْعُدِ

فَإِنْ مُتَّ بَعْدَ الْيَوْمِ عَابَكَ مَهْلِكِي مَعَابِ النَّزَارِيِّنَ مَهْلَكَ مَعْبِدِ^١

فالأوامر والنواهي المشفوعة بالتحذير والتهديد الواضح في هذه الأبيات يجعل المخاطب ينفر من خطاب المتكلم؛ لأنَّه قد تجاوز الخطوط الحمراء التي ينبغي عليه مراعاتها معه، والتي أسمىهاها بالحرم، وهذا يؤدي إلى الدخول في خيارات المخاطب الخاصة والتدخل في شؤونه مما يبعد الخطاب عن التأدب ويجعله أقرب لعدمه، ولذلك نجد أن هذا الانتهاك يعد الأكبر لقاعدة التعفف، كما يمكن أن يعد انتهاكًا لقاعدة اللباقة كذلك؛ لأنَّه يزيد من خسارة المخاطب ولا يقلل منها، وهذا الخروج عن القاعدتين له تأثيره السلبي على تأدب الخطاب.

إلا أنَّ ذلك لم يمنع من وجود بعض الإجراءات لدى أبي فراس قد تحمي من مخالفة قاعدة التعفف، وتترك المجال للمخاطب لاختيار طريقه الذي يريد أن يسلكه، فنجد في بعض الأحيان لا يصر على طلباته التي يريد هما من مخاطبه سيف الدولة، بل يعرضها عليه بصورة غير مباشرة، يقول:

وَلَكِنِّي رَاضٍ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ لِيُعْلَمَ أَيُّ الْحَالَتَيْنِ سَرَابٌ

وَمَا زِلْتُ أَرْضَى بِالْقَلِيلِ مَحَبَّةً لَدَيْكَ وَمَا دُونَ الْكَثِيرِ حِجَابٌ^٢

كما نجده يلين معه الخطاب بحيث يدل ذلك على أنَّ موقفه منه لن يتأثر مهما حدث، قال:

فَقُلْ مَا شِئْتُ فِيَّ قَلِي لِسَانٌ مَلِيءٌ بِالنَّشَاءِ عَلَيْكَ رَطْبٌ^٣

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٧٦.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٢.

^٣ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٩.

فإنّ هذه الأبيات فيها دلالة على التزام ببعض ما تقتضيه قاعدتا التعفف واللباقة، بحيث يقلل من إلزام ذلك الطلب للمخاطب، ولكنّه مع ذلك لا يخرج الخطاب للالتزام الكامل بالقاعدتين، إلّا أنّه يخفف من مخالفة الخطاب لهما؛ لأنّ مجرد التصريح بالطلب والتلميح بكون عدم امتثاله مضرّاً للمخاطب يؤدي إلى الخروج عن مقتضى قاعدة التعفف، إلّا إذا جعلنا طبقاً الأمر في ذلك على الأبيات الأخيرة بمفردها، فحصل الأمر أنّ هذه الأبيات قد التزمت بمستويات عالية التأدّب وفقاً لقاعدتي التعفف واللباقة.

لكنّ ذلك لا يتم لأنّنا ننظر للخطاب بوصفه وحدة متكاملة، وبهذا لا بد حين الحكم عليه أن ننظر إلى جوانب الخطاب المتعددة، وجانب الطلب هو الأبرز في خطاب الشكوى والعتاب لدى أبو فراس، فهو الغالب على هذا الخطاب بحيث يهيمن عليه، أمّا المحاولات السابقة التي قام بها أبو فراس لتخفيف حدة خطابه فأدت إلى التقليل من مخالفة قاعدة التعفف لا الالتزام الكامل بها، خصوصاً مع استعمال المتكلم لأساليب الإلزام كالتحذير والتهديد والإلحاح.

فوجود بعض الإجراءات المتّبعة التي تتفق مع قاعدة التعفف لا يمكن أن تلغي الضرر أو التهديد الحاصل لوجه المخاطب بالكلية، ولكنها تقوي الالتزام بمبدأ التأدّب في الخطاب، وتقلل من خروج التهديدات عن حدّها المفترض أو المقبول اجتماعياً، فالسياق الخطابي قد يعطي المتخاطبين حيّزاً محدوداً يمكن أن يحدث فيه توجيه الضرر بوجه الأطراف الأخرى، وعندما يخرج الخطاب عن هذا الحيّز المسموح قد يحكم بخروج الخطاب عن تأدّبه.

عند ملاحظة أبيات أبي فراس في الشكوى والعتاب نستكشف العديد من حالات خرق قاعدة التعفف والخروج عنها بصور أخرى غير مباشرة. فإنّ أول هذه الخروقات هو ما ذكر سابقاً من محاولة فرض خيارات أو أفعال معيّنة على المخاطب، وذلك من خلال طلب أبو فراس من سيف الدولة أن يفديه ويخرجه من الأسر، هذا الأمر لكونه مركزياً في خطاب أبي فراس نجده يتكرر بصورة كبيرة، فبالإضافة إلى الأبيات المذكورة قبلاً، نجد أبياتاً كثيراً تؤكد وتلحّ على ذات المطلب، وإن كان لهذا الإلحاح صور مختلفة بعضها غير مباشر، إلّا أنّ هذا الإلحاح يؤدي بصورة ما إلى إرغام المخاطب، من تلك الصور غير المباشرة إبراز مصيبيته وألمه لسيف الدولة بقوله:

وَكَمْ مِنْ حَزِينٍ مِثْلِ حُزْنِي وَوَالِهِ وَلَكِنِّي وَحْدِي الْحَزِينُ الْمُرَاقِبُ^١

وقوله:

زَمَانِي كُلُّهُ غَضَبٌ وَعَتَبٌ وَأَنْتَ عَلَيَّ وَالْأَيَّامُ إِلْبُ

وَعَيْشُ الْعَالَمِينَ لَدَيْكَ سَهْلٌ وَعَيْشِي وَحْدَهُ بِفَنَّاكَ صَعْبُ^٢

فالشاعر في هذه الأبيات يحاول أولاً إبراز مصيبتَه وألمه في الأسر، وهذا يدخل ضمن الاستعطاف، فالاستعطاف يؤدي كذلك دوراً في التأثير والضغط على قرارات المخاطب، وهذا هو الدور الأول الذي يؤديه هذا الأسلوب، أما الدور الآخر وهو الأهم في الضغط على المخاطب هو كون هذا الألم الذي يعبر عنه المتكلم ثرماً مسؤولية على عاتق المخاطب، وهذا ما تؤديه الأبيات السابقة، ففي البيتين الأخيرين بعد التصريح بالألم والمعاناة بقوله (زماني كله غضب وعتب) أتى في الشطر الثاني من ذات البيت بقوله (وأنت علي والأيام إلب)، وهذا يمثل تشخيصاً لسبب المعاناة، فالمخاطب شريك في معاناة وآلام الشاعر.

فإشراك المخاطب في دائرة الإدانة والالتهام يدفعه لمحاولة نفي تلك التهمة من خلال تنفيذ ما أراد المتكلم، وهذا بنفسه كفيل بتقييد حرية المخاطب والتدخل في أفعاله من خلال ادعاء كونها سبباً لمعاناة المتكلم، وهذا الأسلوب يعد خروجاً عن قاعدة التعفف لكونه تدخلاً في خصوصياته، وتحملاً له لمسؤولية أمر قد لا يعتقد بأن له دخلاً بها منذ البداية. أما من جهة القواعد الأخرى نجد أنّ إلقاء اللوم والمسؤولية على المخاطب يخالف قاعدة اللباقة؛ لأنّ الكلام هنا يجعل المخاطب خاسراً في الخطاب، فهو يتعرّض لتهمة تجعله يبادر لنفيها عن نفسه بأسرع ما يمكن، فكل ذلك الضغط على المخاطب ليقوم بما يريد المتكلم لا يتفق مع مبدأ التأدّب، ويجعل من هذه الأساليب أفعالاً مهددة للوجه ومخرجة للخطاب عن حالة التأدّب التي ينبغي الالتزام بها.

فالانتهاكات لهذه القاعدة تتلخص في الطلب الذي يطلبه أبو فراس من سيف الدولة بأشكال وصيغ مختلفة، فتارة يستعمل أسلوب الأمر، وأخرى أسلوب النهي، وثالثة يحذّر ويتوعّد، ورابعة يحمل سيف الدولة مسؤولية ما وقع له نتيجة التأخر عن تنفيذ هذا الطلب، فكل التجاوزات لهذه القاعدة تتمحور

^١ أبو فراس، الديوان، ج ٢ ص ٣٢.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٨.

حول طلب أبي فراس للتحرر من الأسر، فطبيعة هذا الطلب تدفع أبا فراس لاستعمال صيغ وأساليب قد تكون شديدةً لدرجة التدخل في خصوصيات المخاطب وفرض الأوامر عليه، مما يחדش حرمة الخاص.

هذا مع استعمال أبي فراس للصيغ والأفعال التعويضية التي قد تقلل من التأثير السلبي لهذه الأساليب، وهذا ما حاول به أبو فراس ألا يخرج بخطابه إلى أقصى درجات اللاتأدب. كما نجده ينهج أساليب تراعي المسافة الاجتماعية مع المخاطب، وتعزز الاحترام، بل وتترك للمخاطب حرمة الخاصة مصوناً من التدخل والتهديد.

وفي المحصلة نجد أنّ أبا فراس قد التزم بصورة عامة ببعض مقتضيات قاعدة التعفف في خطابه، كما حاول ألا يجعل من طلبه مهدداً أو مقيداً للمخاطب بصورة كبيرة، إلا أنه قد خرق هذه القاعدة في حالات خاصة كان تتمحور حول طلب التحرر من الأسر، وكل هذه الخروقات ترجع لهذا السبب؛ لذلك نجد أنّ الخطاب قد خرج عن القاعدة وخالفها، ولكنه مع ذلك لم يكن خروجه عنها بتلك الصورة كاملة، فكان هناك قدر من الالتزام بالقاعدة حاول المتكلم إيجاده في الخطاب.

فمن أبرز ما يمكن أن يلاحظ من خلال النظر فيما مرّ أنّ هذه الحالات المذكورة ضمن هذه القاعدة تتداخل بصورة كبيرة مع القاعدتين الآتيتين، فإتاحة حرية الخيار للمخاطب يعد من مقتضيات قاعدة التشكيك، كما تعد عبارات المحبة والود تجاه المخاطب من مقتضيات قاعدة التودد، فهناك تداخل كبير ومتجذر بين هذه القواعد تحتم في بعض الأحيان أن يكون مثالاً واحداً مجالاً لامتنال القواعد الثلاثة جميعها كما في بعض الأمثلة السابقة.

المبحث الثاني: تجليات قاعدة التشكك في خطاب الشكوى والعتاب

تقوم قاعدة التشكك على منح المخاطب حرية الاختيار، فلا يعتمد المتكلم على إجبار المخاطب بالقيام بفعل أو ترك فعل، وهذا الأمر محل اتفاق مع قاعدة التعفف، إلا أن التركيز في قاعدة التشكك يكون على انتقاء العبارات التي تترك مجالاً للمخاطب أن يختار ما يريده، فلا ينبغي استعمال الأساليب التقريرية، فيجب بالمقابل استبدالها بالأساليب المفتوحة، والتي تقود إلى التشكك الذي يقوم على عرض الطلب المراد من دون فرضٍ أو إلزام تجاه المخاطب^١. أمّا قاعدة التعفف فهي تركز بصورة أكبر على التزام الصيغ والأساليب الرسمية المناسبة في مخاطبة الطرف الآخر؛ وهذا من شأنه ألا يجعل المتكلم فاضلاً لنفسه على المخاطب، وهنا يكمن الاختلاف بين القاعدتين^٢، إلا أنهما تتفقان على عدم إلزام المخاطب بفرض أمور قد لا يرغب فيها.

فتدعو كلٌّ من القاعدتين إلى عدم استعمال صيغ الطلب المباشر، وتقرّر قاعدة التشكك استعمال صيغ أخرى للطلب تكون بصورة غير مباشرة، مثل الصيغ الاستفهامية التي تترك مجالاً للتفاعل من جهة المخاطب، فمن يريد أن يطلب أمراً ما عليه ألا يستعمل عبارة (أعطني الكتاب) أو (عليك أن تعطيني الكتاب)؛ لأنّ هذه الصيغ إلزامية للمخاطب، ويجب استبدالها مثلاً بعبارة (هل تمنع لو أعطيتني هذا الكتاب؟) أو (قد يكون من الجيد أن تناولني الكتاب)، فهاتان الصيغتان تجعلان الطلب مفتوحاً بالنسبة للمخاطب؛ فلا تلزمه بقبول تنفيذ الطلب، بل تعطيه حرية الاختيار بين قبول الطلب أو رده، وهنا يكمن التشكك الذي سميت به القاعدة، فطرح الطلب يكون من خلال طرحه بصورة مشككة، بحيث لا يؤكد المتكلم تحقق هذا المطلوب، بل يكون متردداً في إمكانية تحقيقه، مما يفسح مجالاً للمخاطب للتجاوب بما يريد.

فقاعدة التشكك تقوم على هذا الأساس، فعلى المتكلم أن يراعي حرية اختيار المخاطب عندما يتوجه له بخطابه، وإلا لم يكن هذا الخطاب مخالفاً لمبدأ التأدب فحسب، بل يكون مخالفاً لقاعدة اللباقة لليتش كذلك، فقاعدة اللباقة تتداخل أيضاً مع قاعدة التشكك بصورة كبيرة؛ لأنها ترى وجوب أن يتجنب

^١ انظر كوياتي: التأدب في شعر أبي الحسن الحصري القيرواني (دراسة تداولية)، ص ٩١.

^٢ انظر عبد الرحمن، طه: اللسان والميزان، ص ٢٤٠-٢٤١.

المتكلم صيغ الطلب المباشر ويعتمد إلى الالتماس واللين عند الطلب^١، وهذا ما يتفق مع ما تدعو له قاعدة التشكك، فالقاعدتان متداخلتان من هذه الجهة.

الالتزام بقاعدة التشكك

عند محاولة قياس تمثل هذه القاعدة في خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس نجد أنه خطاب قد احتوى على بعض العبارات والأساليب التي حاول بها أبو فراس أن يترك المجال للمخاطب أن يختار طريقة تفاعله معها، وكما هو معروف فإن خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس يقوم على الشكوى من الأسر وطلب التحرر من سيف الدولة، وهذا الطلب في صورته الأولى البسيطة قد يخرج الخطاب عن تأدبه، وذلك إن لم يقم المتكلم بتعديل وتغيير صيغة هذا الطلب لتتناسب مع تلك الحرية التي يراد اعطاؤها للمخاطب.

وهذا الفرض متحقق في حالة خطاب أبي فراس، فهو قد حاول بالأساليب المذكورة ألا يلزم مخاطبه سيف الدولة بطلب التحرر والفداء، وذلك من خلال تخيير المخاطب بالقبول بالطلب أو عدمه، وهذا كان في عدد من الأبيات، بعضها ذكرت في مبحث قاعدة التعفف، وأخرى نذكرها هنا، منها أنه قد استعمل الاستفهام أسلوباً للطلب، فجعل هذا الطلب مشككاً مما أبعدته عن الإلزام، وذلك مثل قوله:

أَضَحُوا عَلَى أَسْرَاهُمْ بِي عَوْدًا وَأَنْتُمْ عَلَى أَسْرَاكُمْ غَيْرُ عَوْدٍ^٢

استعمل أبو فراس أسلوب الاستفهام في هذا البيت لغرض تحقيق طلبه، فهذا الاستفهام قد خرج إلى معنى الإنكار التوبيخي^٣، وهو يدل على أنّ من الأجدر أن يقوم سيف الدولة بتحرير وفداء أبي فراس كما يفعل الأعداء، فهو يقارن بين سيف الدولة وأعدائه الروم الذين يهتمون بشؤون أسراهم، فهذا الاستفهام وإن كان فيه من المقارنة والضغط على المخاطب ما فيه إلا أنّ صيغته الاستفهامية جعلت للمخاطب قدرًا من الحرية أكبر من مجرد الحكم المباشر الصريح، فهنا استعمال أبو فراس لهذه الصيغة قد يكون فيه التزام بهذه القاعدة.

^١ انظر كوياتي: التأدب في شعر أبي الحسن الحصري القيرواني (دراسة تداولية)، ص ٩١.

^٢ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٧٦.

^٣ انظر السامرائي، فاضل: معاني النحو، ط ٣، دار ابن كثير، بيروت، ٢٠٢٢م، ج ٤، ص ٢٧٤.

ويستعمل أبو فراس هذا الأسلوب كذلك في بيان مناقبه، فعندما يريد أن يبين قيمته للمخاطب يحتاج أن يتفاخر ببعض ما عنده من خصال حميدة وإنجازات قدمها، وهذا الأمر يفرض على المقابل أن يوافق على تحرير أبي فراس بأسرع وقت؛ لذلك نراه يلجأ لأسلوب الاستفهام في إثبات أفضاله وما قدمه لسيف الدولة، يقول:

أَلَمْ تَرَ أَنِّي فِيكَ صَافِحْتُ حَدَّهَا وَفِيكَ شَرِبْتُ الْمَوْتُ غَيْرَ مُصَرَّدٍ^١

عندما يجعل المتكلم الإلزام يخرج من المخاطب، فهذا أقوى في الحجة، ولكن السمة الأخرى أنه لا يكون محض ادعاء قد لا يقبله المخاطب، بل هو إقرار المخاطب في حق المتكلم، واستعمال أسلوب الاستفهام هنا قد يترك الأمر مفتوحاً للمخاطب ليوافق عليه أو يرفضه، فبدلاً من التباهي بالإنجازات بصورة مباشرة، لجأ أبو فراس لأن يجعل هذا الأمر بصورة السؤال؛ حتى لا يفرض هذه الحقيقة على المخاطب بصورة إلزامية، وإنما يسأله فيجعله يجيب إما بصحة هذه المعلومة أو غلطها، فإن كان مضمون البيت صحيحاً بالنسبة إلى سيف الدولة، فيجب عليه أن يرد الجميل بتحرير أبي فراس، وإن كان سيف الدولة ينكر هذا الادعاء، فالمجال مفتوح لديه.

ولكن هذا المجال ليس مفتوحاً بصورة كاملة؛ لأنه لو رفض صحة هذه المعلومة، قد يكون رفضه سبباً لوقوعه في نكران الجميل أو الكذب، وذلك أن مساندة أبي فراس لسيف الدولة ومحارته معه أمرٌ معروفٌ مشهورٌ، فلا يمكنه إنكاره إلا أن تكون هاتان الصفتان منطقتين عليه، وهذا ما سيدفع سيف الدولة لعدم إنكار هذه الحقيقة التي ذكرها أبو فراس في شكل سؤال، فيكمن الفارق الإضافي في استعمال هذه الصيغة هو أن استعمالها أكثر تأديباً من الإتيان بهذه المفاخر بصورتها المباشرة.

وكذلك حين يريد أبو فراس أن يذكر سيف الدولة بأنه قد عاتبه من قبل فلم يفد ذلك شيئاً معه، بل بقي على رفضه وصدّه، هذا المعنى أيضاً حضر فيه استعمال صيغة الاستفهام بصورة تحقق قاعدة التشكك، فقد قال:

أَتُنْكِرُ أَنِّي شَكَوْتُ الزَّمَانَ وَأَنِّي عَتَبْتُكَ فِيمَنْ عَتَبَ

فَأَلَّا رَجَعْتَ فَأَعْتَبْتَنِي وَصَيَّرْتَ لِي وَلِقَوْلِي الْعَلَبَ^٢

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٧٧.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٦.

يحاول أبو فراس أن يخلق ملازمة عقلية حوارية، فإنّه يريد أن يلزم سيف الدولة بأنّه لم يجبه حين عاتبه، وهذا يستدعي كون ما حصل لأبي فراس متسبباً عن صد سيف الدولة، هذا الأمر يشفعه أبو فراس باستلزام عقلي آخر في البيت الثاني، مفاده أنّ سيف الدولة لمّا لم يجب عتاب أبي فراس سابقاً أصبح لزاماً عليه أن يجيبه الآن حتى يكفّر عن صدوده السابق، وهذا المعنى كله عقلي يستنتجه المتلقي.

الأمر الأبرز هنا أنّه قد استعمل في هذا الاستلزام صيغةً تلتزم التشكك هي الاستفهام، فقد استعمل همزة الاستفهام مجدداً ليبين حقيقة كونه قد عاتب سيف الدولة فلم يجبه، وهذا الأسلوب يزيد من قدر الحرية الممنوحة للمخاطب لاختيار تصديق وإقرار المعنى أو رفضه وإنكاره، وحين ينكر المخاطب المعنى الوارد يفسد استلزام الخطاب، إلا أنّه وكما الأبيات التي مرت سيكون لهذا الإنكار كلفة قد لا يحتمل المخاطب تحملها، فإنّ هذا الاستعمال بشكل عام يمكن عدّه التزاماً بقاعدة التشكك.

إنّ استعمال هذه الصيغ المشككة هو أمر بارز في مواطن عدة من شعر أبي فراس، فلا يمكننا تجاهل استعمال هذه التقنية الخطابية التي تمنح الخطاب قدراً من التأدّب، هذا التأدّب الذي قد لا يلاحظ لأوّل وهلة، بسبب طغيان المعنى على الأسلوب، حيث يؤدي المعنى دور الطلب أو الإلزام، وبذلك يكون في مقيداً للمخاطب، ولكن لو نظرنا إلى الأسلوب لوجدناه يخفف من هذا التقييد للمخاطب؛ لأنّه لا يبت في الأمر المراد بصورة مباشرة، وذلك على مستوى الصيغة والشكل لا المضمون، فالمضمون يستلزم مخالفة قاعدة التشكك لكونه يلزم المخاطب بأمر ما.

فالبلاغيون يجعلون التقرير والإنكار والتوبيخ من الاستعمالات المجازية للاستفهام^١، وهذا الأمر يعني أنّ الاستفهام قد يحمل معنى التقرير الذي "هو حمل المخاطب على الإقرار بصدور الفعل منه"^٢، وهذا ما نجده في بعض الأبيات التي مرّت، فهي تريد حمل المخاطب على إقرار معنى يريده المتكلّم، فلذلك هي بمعناها مخالفة للقاعدة وبصيغتها توافقها، مما يحقق حالة من التوازن تجاه القاعدة، فالصيغة تعوّض وتجبر ضرر المعنى.

^١ انظر القزويني، محمد بن عبد الرحمن: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط٣، دار الجيل، ١٩٥٣، ص ٧٠-٧٣.

^٢ الفضلي، عبد الهادي: تلخيص البلاغة، ط٢، دار أطياف للنشر والتوزيع، القطيف، المملكة العربية السعودية، ٢٠١٧م، ص ٨٢.

استعمل أبو فراس طرقاً أخرى لدعم حرية مخاطبه سيف الدولة، منها أنه قد أعطى له العذر في عدم جوابه وإبطائه عن تحرير ابن عمه، هذا الأمر يزيد من مقدار الحرية الممنوحة للمخاطب، ونعد هذا الأسلوب من الأمور التي تدعم قاعدة التشكك؛ لأنها تعزز احترام قرارات المخاطب؛ وذلك يصب في مقصد القاعدة نفسه، وهذا كقوله:

فَلَمَّا بَعُدْتُ بَدَتْ جَفْوَةٌ وَلَا حَ مِنْ الْأَمْرِ مَا لَا أُحِبُّ

فَلَوْ لَمْ أَكُنْ بِكَ ذَا خَبْرَةٍ لَقُلْتُ صَدِيقُكَ مَنْ لَمْ يَغِبْ^١

فإنه قد أبلغه بأنه لا يشك فيه، وذلك لخبرته ومعرفة به، وهذا الأمر يعطي المخاطب كما من الاحترام والتقدير والحرية، فمهما اتخذ المخاطب من قرار لن يشك أبو فراس في نية ذلك القرار، وهذا الأمر وإن كان لا يحقق التشكك الذي تدعو له القاعدة بصورة مباشرة، إلا أنه يمكن عدّه من معززات هذه القاعدة؛ لكونه يصب في مصبها.

إذن اتسم خطاب الشكوى والعتاب بحد معين من الالتزام بقاعدة التشكك، بحيث يحاول المتكلم ألا يكون صريحاً أو مباشراً بصورة كاملة تجعل خطابه يلزم المخاطب بما لا يطيق، فاستعان على ذلك بصيغ تفيد التشكك أبرزها الاستفهام الذي ساهم في حضور القاعدة في الخطاب، كما دعم ذلك بما بعبارات تعطي حرية أكبر للمخاطب ليتخذ قراره؛ وبالتالي يتحقق التأدّب في الجملة من خلال هذه الأساليب.

خرق قاعدة التشكك

يتم خرق قاعدة التشكك من خلال إلزام المخاطب بمباشرة بالطلب^٢، حيث لا يترك له مجالاً لأن يختار ردة فعله تجاه ذلك الطلب، وهذا الأمر يكون من خلال استعمال صيغ الطلب المباشرة، والصيغ التقريرية التي تؤكد المعنى دون النظر إلى احتمالية عدم صحته، وبذلك يكون المخاطب ملزماً - بمقتضى الخطاب - بفعل الطلب وتصديق المعنى المراد، وهذان الأمران إن تحققا يفقدان الخطاب

^١ أبو فراس: الديوان، ج ١ ص ٢٧.

^٢ انظر عبد الرحمن: اللسان والميزان، ص ٢٤٠.

تأديبه؛ لأنّ هذا الأسلوب يدل على عدم احترام المتكلّم لشخصية مخاطبه وآرائه وتفضيلاته الخاصة، وبذلك يكون في حالة اللاتأدب.

هذا الأمر تحقق في عدة مواضع من خطاب الشكوى والعتاب لدى أبي فراس، فبالرغم من التزام بعض الصيغ الاستفهامية التي تقي من مخالفة هذه القاعدة، إلّا أنّ أبا فراس قد وقع في إلزام مخاطبه سيف الدولة من خلال طلبه المتكرر، فجميع ما مر من الأمثلة والشواهد على استعمال أسلوبه الأمر والنهي الصريحين^١ يدل على أنّ أبا فراس لم يستطع الالتزام بهذه القاعدة بصورة كاملة، فقد وقع في غير مرة في محاولة إلزام مخاطبه باستخدام الطلب المباشر.

فإنّ الأمر والنهي المباشرين يقومان بإلزام المخاطب بالقيام بمقتضى هذين الأسلوبين، وهذا ما يؤدي بالطبع لخرق القاعدة ومخالفتها، وهذا الأمر يتشابه مع ما رُصد بالنسبة إلى خرق قاعدة التعفف التي مرت، فالحالات التي تم خرق قاعدة التعفف فيها ينطبق فيها أيضًا خرق قاعدة التشكك، فالقاعدتان مرتبطتان ومتداخلتان.

وإن كان لا بدّ من التمثيل بأمثلة على حدوث هذا الخرق، فكل بيت يحتوي على طلب مباشر صريح يعد خير مثال لخرق قاعدة التشكك، وذلك كقول أبي فراس:

لَا نَتَيْمٌ وَالْمَاءُ تُدْرِكُهُ غَيْرُكَ يَرْضَى الصُّغْرَى وَيَقْبَلُهَا^٢

مثل هذا النهي الصريح يحقق خرقًا لقاعدة التشكك، فالمتكلّم قد ألزم المخاطب بعدم التيمم مع إمكانية تحصيل الماء، وهذا المعنى مجازي، فالشاعر يشير إلى طلب التحرير الذي يطلبه من المخاطب، ولكنّه شبه تحقيق طلبه بالماء، وشبه غيره من الأعمال الحسنة التي يعملها المخاطب كالتييم، فالتيمم باطل عند إمكانية تحصيل الماء^٣، فكذلك كل فعل حسن من المخاطب لا قيمة له مع إمكانية تحرير الشاعر من أسرهِ، فهو العمل الأهم والأولى بنظر أبي فراس.

فإنّ استعمال أسلوب النهي يتنافى مع مقتضى القاعدة، وإن كان المجاز الذي استعمله في هذا البيت يقوم بتخفيف حدة الخطاب وتهديده للمخاطب، إلّا أنّ ذلك لا دخل له بأسلوب النهي المستعمل، فبمجرد استعمال أسلوب النهي الصريح بهذه الصورة المباشرة يكون ذلك خرقًا لقاعدة التشكك، أمّا ما

^١ راجع صفحة ٨٢-٨٤.

^٢ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣٢٩.

^٣ وهو محل اتفاق المسلمين.

يخفف من شدة تهديد الخطاب من أساليب واستراتيجيات أخرى لا تغير من حقيقة تحقق هذا الخرق للقاعدة شيئاً، والبحث في هذه الاستراتيجيات سيكون في الفصل القادم.

ويتضح مدى تنافر أسلوب النهي مع أسلوب التأدب وفقاً لقاعدة التشكك من خلال النظر في الأبيات التي ذكر فيها الأمر والنهي بلا استعمال للمجاز كمخفف لشدة الخطاب؛ لذلك ينبغي النظر في الأمر أو النهي الصريح لدى أبي فراس، وإنَّ أشدَّ نهْي وأكثره صراحةً في بيان طلب الشاعر هذين البيتين الذين ذكرا سابقاً:

فَلَا تَتْرُكِ الْأَعْدَاءَ حَوْلِي لِيفْرَحُوا وَلَا تَقْطَعْ التَّسَالَّ عَنِّي وَتَقْعُدِ

وَلَا تَقْعُدَنَّ عَنِّي وَقَدْ سِمْ فِدِيَّتِي فَلَسْتُ عَنِ الْفِعْلِ الْكَرِيمِ بِمُقْعَدٍ^١

فهذان البيتان يحتويان على النهي الصريح المباشر من جهة، وعلى الطلب الذي يريده أبو فراس بصورة واضحة وصريحة من جهة أخرى، فهنا نلاحظ كون هذا الأسلوب مخالفاً بصورة واضحة لقاعدة التشكك، فلا يترك المتكلم للمخاطب قولاً أو رأياً في هذا الطلب، فيمكننا أن نعدَّ هذين البيتين من أشدَّ الأبيات خرقاً لقاعدة التشكك؛ وبالتالي أقلها التزاماً بالتأدب؛ ولهذا تكرر حضورهما في أكثر من موضع من مواضع الخروج عن التأدب في الخطاب.

هذا وقد ورد الأمر الصريح في موضع عدة من ذات القصيدة التي ينتمي لها هذان البيتان، منها قوله:

أَقْلَنِي أَقْلَنِي عَثْرَةَ الدَّهْرِ إِنَّهُ رَمَانِي بِسَهْمٍ صَائِبٍ النَّصْلِ مُقْصِدٍ^٢

يحضر الأمر هنا بصورة متكررة تدل على تأكيد المعنى، وهذا التأكيد وإن كان المقصود منه تعزيز الطلب ودفع المخاطب على الاستجابة له، إلا أنه في المقابل يزيد الخطاب مخالفةً لقاعدة التشكك؛ لكونه يشدد الضغط على المخاطب لفعل ما يريد المتكلم، فهذه الحالة كلما زادت وأكثرت ازداد معها مدى مخالفة الخطاب لقاعدة التشكك. فقد قال أيضاً مستعملاً الأمر والنهي:

فَلَا تَعْدِلَنَّ فِدَاكَ ابْنَ عَمِّكَ لَا بَلْ غُلَامُكَ عَمَّا يَجِبُ

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٥٣.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٥٣.

وَأَنْصِفَ فَتَاكَ فَإِنْصَافُهُ مِنْ الْفَضْلِ وَالشَّرَفِ الْمُكَتَسَبِ^١

استعمل أبو فراس في هذين البيتين أسلوبَي الأمر والنهي معاً، فالبيت الأول تضمّن أسلوب النهي (فلا تعدلن)، والثاني تضمّن أسلوب الأمر (أنصف)، وكلاهما مخالف لقاعدة التشكك كما مر، ولا ننكر احتواء البيتين على أمور أخرى تتوافق مع التأدّب وتقلل من مخالفته، كإطلاق أبي فراس لفظي (غلامك) و(فتاك) على نفسه؛ لأنّه تذلل وتواضع تجاه سيف الدولة، وذلك يتناسب مع قاعدة التواضع للبيتش، ولكن من جهة الأمر والنهي فإنّ هذين البيتين مخالفين لقاعدة التشكك للاكوف.

من الواضح أنّ استعمال الأمر والنهي أمرٌ مطرد في خطاب أبي فراس، فقد اعتمده أسلوباً دائماً في التعبير عن مطلبه وحثّ سيف الدولة عليه، وهذا الأسلوب هو الأسلوب البسيط الأولي والمباشر في التعبير عن الطلب، ولكنّه كما اتّضح ليس الأسلوب الأفضل من ناحية التأدّب، خصوصاً لو نظرنا لمكانة المخاطب الكبيرة، والمسافة الاجتماعية بين طرفي الخطاب، فالعلاقة العمودية بين الطرفين تفرض على الطرف الأدنى ألاّ يخاطب الطرف الأعلى بمثل هذا الأسلوب، وهذا ما وقع فيه أبو فراس في خطابه.

فالملاحظ عند النظر للخطاب بصورة عامة فيما مرّ أنّ قاعدة التشكك قد تم مراعاتها في العديد من الحالات في خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس، وفي المقابل تم إهمالها في حالات أخرى، وهذا يجعل الخطاب يتأرجح بين حالة التشكك والإلزام، هذه الحالة قد تكون وليدة اختلاف مشاعر أبي فراس تجاه مخاطبه سيف الدولة باختلاف أزمنة وظروف إنتاج الخطاب، مما أحدث عنده هذه الحالة الفريدة تجاه قاعدة التشكك.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٦.

المبحث الثالث: تجليات قاعدة التودد في خطاب الشكوى والعتاب

قاعدة التودد تقتضي أن يقوم المتكلم بإظهار الود والمحبة والصداقة تجاه المخاطب^١، هذا الأمر من شأنه أن يعزز قوة العلاقة بين الطرفين؛ مما يزيد من توافقهما في الخطاب، فالقاعدة تسعى لحصول الوفاق بين الطرفين، فيستعمل المتكلم عبارات المودة والصداقة والتضامن والإخاء مع المخاطب، ويتجنب عبارات الاختلاف والعداوة والبغضاء؛ فيأنس المخاطب ويطمئن من المتكلم^٢. وهذه القاعدة تتوافق مع التأدب الإيجابي عند براون ولفنسن^٣.

يشير طه عبدالرحمن إلى أنّ هذه القاعدة تتناسب أكثر مع مخاطبة الند للند^٤، حيث يكون المتكلم في مستوى المخاطب أو أعلى منه، إلّا أنّ هذا الأمر قد لا يكون دقيقاً؛ فاستعمال صيغ المودة من الأدنى إلى الأعلى يعد جزءاً من تأدب الخطاب، بل إنّ استعمال هذه الصيغ في هذه الحالة قد يكون ألحّ وأولى من حالات أخرى يكون فيها المتكلم أعلى من المخاطب أو متساوٍ معه في المرتبة؛ فأساس هذه القاعدة هو إظهار المودة والتقدير للمخاطب والبعد عما يؤدي للعداوة والخلاف معه^٥، وهذا الأمر ينطبق في جميع حالات الخطاب، سواءً تساوت مرتبة كلّ من المتخاطبين أم كان أحدهما أعلى من الآخر، فإنّ الملاك في هذه القاعدة متحقق في كلّ الحالات؛ فلا مسوغ لتخصيصها بحالة دون أخرى.

توافق هذه القاعدة مع التأدب الإيجابي من جهة كون التأدب الإيجابي يسعى إلى تثمين وتقدير وجه المخاطب، باستعمال الصيغ التي تعزز التوافق وتقويم الروابط بينهما، هذا الأمر نجده في قاعدة التودد أيضاً. كما يمكن أن تتوافق قاعدة التودد مع قاعدتي الكرم والاتفاق عند ليتش، فقاعدة الكرم تقتضي جلب النفع للمخاطب^٦، وتحقق النفع قد يكون من خلال المدح والتودد، أمّا قاعدة الاتفاق فهي تقضي تقليل الخلاف وتقوية مواطن الاتفاق مع المخاطب^٧، وهذه الأمور تدعو لها قاعدة التودد كذلك.

إنّ من أبرز ما تدعو له القاعدة هو المدح والثناء، فالمدح والثناء من أبرز الأمور التي تبعث الممدوح على السرور والبهجة، كما تؤدي إلى إثارة المشاعر الإيجابية منه تجاه مادحه، وهذه الحالة

^١ انظر عبد الرحمن: اللسان والميزان، ص ٢٤١.

^٢ انظر المرجع نفسه، ص ٢٤١.

^٣ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ٢٢٠.

^٤ انظر عبد الرحمن: اللسان والميزان، ص ٢٤١.

^٥ انظر يوسف، بن زحاف: قواعد التخاطب في اللسانيات التداولية، مجلة أبحاث، الجزائر، مجلد ٦، العدد ٢، ٢٠٢٠م، ص ١١٧.

^٦ انظر عبد الرحمن: اللسان والميزان، ص ٢٤٦.

^٧ انظر المرجع نفسه، ص ٢٤٦.

تقوي العلاقة بين الطرفين؛ حيث تسود نظرة إيجابية بينهما، ويكون ذلك مدعاة للوفاء والوفاء. هذا الأسلوب المهم إن حضر في كلام أي شخص يلطف كلامه، فحتى الطرفان المتخالفان يمكن أن يتقاربان ويحلّ خلافهما بانتهاج هذا الأسلوب في كلامهما تجاه بعضهما، ومن هنا كانت هذه القاعدة أساسًا في قواعد التأدب القولي.

والتودد لا يكون بأسلوب واحد مع كل طرف، فلكل شخصية وعلاقة توددهما المناسب لهما، فلا يمكن أن يتودد الرجل لقاضي في المحكمة أو أستاذ جامعي في سياق عملهما باستعمال صيغ وعبارات المحبة والتعلق التي يخاطب بها الرجل صديقه المقرب أو ابن عمه؛ فلكل مقام مقال مختلف يناسب ذلك المقام، فاستعمال صيغ وعبارات التودد يكون محكومًا بأمور عرفية اجتماعية لا يمكن تجاوزها، فإن استعمال المتكلم عبارات الود والمحبة التي يستعملها مع صديقه تجاه القاضي في المحكمة فذلك يخرج عن كونه تأدبًا، بل قد يتحول إلى سخرية أو تهكم أو غير ذلك؛ لذا يتوجب على المتكلم انتقاء عبارات التودد المناسبة وإلا انقلب مدحه إلى ذم، واستحال تأدبه إلى عدمه.

عندما يريد المتكلم أن يعمل وفقًا لهذه القاعدة في السياقات الرسمية كالتي مر ذكرها عليه أن يبتعد عن عبارات المحبة والمودة غير الرسمية، يختار من العبارات ما يظهر المودة والتوافق مع الطرف الآخر، وذلك من خلال تضمين كلام الطرف الآخر وتعتيم أفكاره وآرائه، باستعمال عبارات تدل على الإعجاب بشخصيته وتتمين مكانته. وإن رجعنا إلى مثال قاضي المحكمة السابق، فمخاطبته وفق قاعدة التودد تتم من خلال عبارات مثل (نحن نثق في حكمة سيادتكم ودقة النظر لديكم)، فإن عبارة كهذه من شأنها أن تعطي المخاطب انطباعًا إيجابيًا تجاه المتكلم، وتضمن وجه المخاطب وتقلل من الخلاف المحتمل معه. أما لو استعمل المتكلم عبارات تودد غير رسمية معه مثل (لا يمكن أن يجاريك قاضي آخر في أناقتك)، فقد تعدّ مثل هذه العبارات خارجة عن التأدب والذوق الخاص بسياق الكلام؛ من هنا كانت معرفة المتكلم ومراعاته للشخصية المخاطب أمرًا مهمًا قبل محاولة تطبيق ما تدعو له قاعدة التودد، وهذا الأمر يسري بصورة عامة في جميع القواعد السابقة، إلا أنه أكثر إلحاحًا في هذه القاعدة؛ لحساسية هذه القاعدة بصورة خاصة.

الالتزام بقاعدة التودد

المخاطب الرئيس في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس هو سيف الدولة الحمداني، ومعرفة هذا الأمر مهمة في تحديد عبارات التودد المناسبة لسياق العلاقة بين أبي فراس وسيف الدولة، وقد جرى

التعرّض لدراسة طبيعة هذه العلاقة في الفصل الأول، فاتّضح أنّ سيف الدولة يمتلك خصالاً يتميّز فيها عن أي مخاطب آخر ؛ فهو ملكٌ يندرج ضمن ذوي السلطة والحكم، وهذه الصفة لوحدها تجعل من شخصية المخاطب أعلى من شخصية المتكلّم اجتماعيًا، هذا بالإضافة إلى صفات أخرى تتعلق بالعلاقة بين أبي فراس وسيف الدولة، ككونهما أبناء عمومة، وخدمة أبي فراس كقائد عسكري في دولة سيف الدولة، فكل ذلك يحدد لنا السبيل الأمثل لنهج الخطاب بين الطرفين.

فقياس المسافة الاجتماعية يحيلنا إلى عاملين مهمّين، فأولاً إنّ كون المخاطب ملكًا يعني أنّ المتكلّم ملزم باستعمال عبارات التودد التي تتناسب مع الملوك، وهذا الأمر يحتاج التذلل والتواضع من المتكلّم للمخاطب في الكلام، فيجب عليه أن ينتقي عبارات تدل على المحبة والولاء، مما يتناسب مع مخاطبة ملكٍ كسيف الدولة. وثانيًا إنّ وجود علاقات سابقة بين أبي فراس وسيف الدولة، كعلاقة الصداقة والنسب ورفقة السلاح وغيرها، كلّ هذه العلاقات تقلّص من المسافة الاجتماعية المفترضة بين الملك ورجل من رعيّته؛ فهذه العلاقات تعمل على جعل المتكلّم أقرب منزلة من المخاطب، فتحرره من بعض القيود التي تنتج من كون مخاطبه ملكًا، ولكن مع ذلك تبقى العلاقة بصورتها العمودية قائمة؛ مما يستدعي مراعاة كون المخاطب ملكًا أثناء تأدية المتكلّم لكلامه، وإلا عدّ هذا خروجًا عن التأدّب.

ينبغي أن تكون عبارات التودد التي يستعملها أبو فراس مناسبة لطبيعة كون مخاطبه ملكًا، ومع ذلك يمتلك أبو فراس بعضًا من الحرية في التعبير نتيجة العلاقة الخاصة التي تربطه بالمخاطب، وهذا يجبره على محاولة الموازنة عند انتقاء عبارات التودد المناسبة لهذين الأمرين، وهنا تكمن دقة اختيار العبارات والألفاظ التي تقوم بدور التودد، وإلاّ لن تكون هذه العبارات مؤدية لمرامها؛ وبالتالي ستقود لسوء الفهم أو الخروج عمّا تقتضيه القاعدة، مخرجةً الخطاب من حالة التأدّب إلى حالة اللاتأدّب.

ما نجده في خطاب الشكوى والعتاب هو ذلك إقامة هذه الموازنة الدقيقة في اختيار عبارات التودد، فهو يختار من العبارات ما يؤدي المعنى المراد ويعزز العلاقة مع المخاطب، فينتقي من أساليب الثناء والتودد والتضامن ما لا يخرج إلى التهكم أو سوء الفهم، وهذا كقوله:

وَأَنْتَ الْكَرِيمُ وَأَنْتَ الْحَلِيمُ وَأَنْتَ الْعَطُوفُ وَأَنْتَ الْحَدِيبُ

وَمَا زِلْتَ تَسْقِنُنِي بِالْجَمِيلِ وَتُنْزِلُنِي بِالْجَنَابِ الْخَصِيبِ

وَتَدْفَعُ عَنْ حَوَزَتَيَّ الْخُطُوبِ وَتَكْشِفُ عَنْ نَاطِرِي الْكُرْبِ

وَإِنَّكَ لِلْجَبَلِ الْمُشْمَخِ رُ لِي بَلْ لِقَوْمِكَ بَلْ لِلْعَرَبِ

عَلَى تَسْتَفَادُ وَمَالٌ يُفَادُ وَعِزٌّ يُشَادُ وَنُعْمَى تُرَبُ^١

هذه الأبيات التي ينعت من خلالها أبو فراس سيف الدولة بأفضل النعوت والأوصاف هي أبيات من قصيدة عتابٍ لسيف الدولة، لكنّه يذكر في أولّها هذه الأبيات التي تلطف الخطاب، فتقوم هذه الأبيات بدور تلطيف الخطاب وزيادة المودة، فالمدح يعد من أهم الأساليب التي يكسب بها المتكلّم وفاق المخاطب ؛ لأنّ المخاطب يشعر بأنّ المتكلّم يكن له التقدير والإجلال لوجود هذه الصفات فيه ؛ لذا نجد أبا فراس يذكر صفات يحب سيف الدولة أن يتصفّ بها، وذلك لكونه ملكًا، وهذه الصفات هي صفات العزة والكرام والشجاعة والكرم والعطاء والحلم وغيرها، فالببيت الأول من هذه الأبيات لوحده قد أتى بأربعة صفات بصورة مباشرة (الكريم/الحليم/العطوف/الحدب)، وكلها صفات تعظم المخاطب وتجلّه كملك، مما يؤدي لكسبه والتوافق معه. ويواصل الشاعر مدحه للمخاطب بصفات أخرى تدل عليها الأبيات بصورة أقلّ مباشرة، كالكرم والعطاء المفهوم من قوله (وَتُنْزِلُنِي بِالْجَنَابِ الْخَصْبِ)، وكصفات النجدة والقوة والوفاء للإخوان المفهومة من قوله (وَتَدْفَعُ عَنْ حَوَزَتَيَّ الْخُطُوبِ/ وَتَكْشِفُ عَنْ نَاطِرِي الْكُرْبِ)، وكصفتي العزة والعطاء العميم المفهومان من قوله (وَإِنَّكَ لِلْجَبَلِ الْمُشْمَخِ رُ لِي بَلْ لِقَوْمِكَ بَلْ لِلْعَرَبِ)، فكل هذه العبارات تشير إلى صفات كريمة يتحلّى بها المخاطب في نظر أبي فراس.

فمن أهمية هذا الأسلوب أنّه يمهد الأرضية للشكوى والعتاب اللذين قد يأتيان بعد ذلك في الخطاب، فإنّه قد مرّ بأنّ الشكوى والعتاب في طبيعتهما مهددان لوجه المخاطب^٢، وهذا التهديد يحاول المتكلّم أن يقلله أو ينفيه، ومن تلك الأساليب امتثال قاعدة التودد، التي تقي من الفهم الخاطئ الذي قد يقوم لتهديد الوجه، فالشاعر يحاول أن يبعد عن ذهن المخاطب احتمال العداوة الذي قد يثار في ذهن المخاطب جرّاء أبيات الشكوى والعتاب، فيريد أن يبين للمخاطب أنّه يراه شجاعًا وقويًا وكريمًا ولا يرى فيه العيب والنقص، وإنما شكواه وعتابه إنما هو بمثابه بيان المعاناة وطلب الخلاص منها لا أكثر،

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٦.

^٢ راجع المهاد النظري.

فبهذا الأسلوب يحمل المتكلم المخاطب على هذا النوع من الفهم الذي يجنب الطرفين العداوة الناتجة من تهديد وجه المخاطب بفعل الشكوى والعتاب.

فالمدمح من أهم تلك الأساليب التي يتودد بها المتكلم لمخاطبه، ولكنه ليس الأسلوب الوحيد، فهناك أساليب أخرى تقوم بدور التودد كذلك، منها أسلوب التعبير عن المحبة والمكانة العالية في نظر المتكلم، وقد استعمل أبو فراس هذا الأسلوب، وذلك في قوله:

وَكُنْتُ الْحَبِيبَ وَكُنْتُ الْقَرِيبَ لِيَالِي أَدْعُوكَ مِنْ عَن كَثْبٍ

فَلَمَّا بَعُدْتُ بَدَتْ جَفْوَةٌ وَلَاخَ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا أُحِبُّ^١

يبين الشاعر مدى تعلقه وحبه لمخاطبه، وذلك من خلال استعمال مفردات مباشرة مثل (الحبيب/القريب)، فهذه المفردات تعطي المخاطب انطباعاً بأن المتكلم يكن له المشاعر الإيجابية، فهو وإن شكاه أو عاتبه فلا يضر ذلك بعمق العلاقة؛ لأنها علاقة تحتوي على الحب والمودة، وهذا المعنى هو ما تشير إليه قاعدة التودد، فاسم القاعدة مأخوذ من إظهار المودة للمخاطب؛ لأنّ هذا الأسلوب هو أوضح وأصرخ صورة من صور التأدب الذي ترمي له القاعدة، فالمخاطب يميل لمباداة المتكلم بالمشاعر التي يكنها المتكلم له، وهنا يبرز دور إعلام المتكلم للمخاطب بأنّ المشاعر تجاهه هي مشاعر الحب والود لا العدا والمنافرة؛ وبذلك يميل المخاطب لأن يقابل المتكلم بذات هذه المشاعر، وهذا الأمر يفيد في زيادة إمكانية تلقي المخاطب للخطاب المهذب للوجه، بحيث يكون الخطاب أقل تهديداً نتيجة نظرة المخاطب الإيجابية لمقاصد وحقيقة ذلك الخطاب.

كما أنّ لهذا الأسلوب مقاصد يستفيد منها المتكلم لتحقيق الفائدة المرجوة من خطابه، فأبو فراس يريد أن يقوم سيف الدولة بتحريره من الأسر، وهذا الأمر يسعى أبو فراس لتحقيقه والدفع باتجاهه بما أمكنه، واستعماله لعبارات التودد يقود نحو تحقيق غايته؛ لأنّه بذلك يلين قلب سيف الدولة تجاه قبول الطلب، كما يخرجه بذلك من خلال بيان أنّه يحبه ويكن له المودة، وهذا دليل على الوفاء له، مما يجعل سيف الدولة يقع في حرج في حال أراد رفض الطلب، فرفضه سيؤدي لشينه وعيبه، وهذا ما صرّح به أبو فراس بصورة في أحد أبياته التي مرّت، فقد قال:

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٧.

فَإِنْ مُتَّ بَعْدَ الْيَوْمِ عَابَكَ مَهْلَكِي مَعَابِ النَّزَارَيْنِ مَهْلَكَ مَعْبِدٌ^١

فتحذير الشاعر هنا إشارة إلى أن هذا العيب سيكون نتيجة تركه في الأسر رغم ولاءه ووفائه ومحبه لسيف الدولة، فإن مثل هذا الأمر يؤدي للعيب في الأعراف العربية على أقل تقدير، ومن هنا كان استعمال عبارات التودد لا يقوم بدور تلطيف الخطاب فحسب، بل يقوم بإجراج وتقييد المخاطب لدفعه لقبول تنفيذ طلب المتكلم.

ويحاول أبو فراس أن يربط الخصال الحميدة التي ينحليها لسيف الدولة بنفسه، وذلك من خلال بعض الأبيات التي يبين فيها أن هناك أفضلًا محامد لسيف الدولة تختص بأبي فراس، وهذا يقوي العلاقة بينهما ويمنح المخاطب نظرة خاصة للمتكلم، فهو قد قال:

وَإِنَّكَ لِلْمَوْلَى الَّذِي بِكَ أَقْتَدِي وَإِنَّكَ لِلنَّجْمِ الَّذِي بِكَ أَهْتَدِي
وَأَنْتَ الَّذِي عَرَفْتَنِي طُرُقَ الْعُلَا وَأَنْتَ الَّذِي أَهْدَيْتَنِي كُلَّ مَقْصِدٍ
وَأَنْتَ الَّذِي بَلَغْتَنِي كُلَّ رُتَبَةٍ مَشَيْتُ إِلَيْهَا فَوْقَ أَعْنَاقِ حُسْدِي^٢

جعل أبو فراس سيف الدولة قدوته الذي يقتدي به، ونجمه الذي يهتدي به إلى طريق المعالي، وسيده الذي يرفعه رغم الحاسدين. فكل هذه الصفات هي أفضال تفضل بها سيف الدولة على أبي فراس، ويرمي أبو فراس من ذكرها هنا إلى أن يذكر سيف الدولة بهذه الأفضال ليواصل عليها، فمواصلته عليها تعني القبول بتحرير الشاعر من الأسر، ويدل على هذا المقصد من الأبيات البيت الذي يليها مباشرة:

فَيَا مُلْبِسِي النُّعْمَى الَّتِي جَلَّ قَدْرُهَا لَقَدْ أَخْلَقْتَ تِلْكَ الثِّيَابَ فَجَدِّدِ^٣

فهذه النعم والأفضال قد أصبحت قديمة كالثياب الخلقة، وهذا يدل على أنها تحتاج إلى تجديد، فالشاعر يشير إلى أن مطلبه يجب أن يحقق؛ لأنها جزء متواصل من أفضال سيف الدولة القديمة التي تحتاج إلى تجديد. وكل تلك أساليب يحاول أبو فراس من خلالها أن يدفع مخاطبه لقبول طلبه، وقد توسل التودد وعبارات المودة التي قد تسهل عليه تنفيذ هذا الأمر، فلا يمكن أن نعدها مجرد عبارات

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٧٦.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٧٧.

^٣ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٧٧.

تدل على محبة وورد تجاه المخاطب، بل هي وسائل يتوسلها المتكلم للوصول لمقصده من الخطاب، وهذه الوسائل تقيد فائدة تأديبية كذلك؛ لأنها مع كونها طريقاً لتنفيذ طلب وغاية الشاعر فهي تلتزم التأدب والاحترام، وتقوي العلاقة بين طرفي الخطاب بصورة تجعل التهديدات لوجه المخاطب ضعيفة؛ لانصراف الذهن كن كونها نابعة عن الحقد والكراهية.

فكل خطاب يتأثر بسياق صدره، فإن كان سياق لا بدّ وأن يؤثر في الخطاب، فعندما يكون سياق الخطاب مشبعاً بمشاعر الكراهية والحقّ يمكن تتحول أي عبارة من المتكلم إلى هجوم على المخاطب، فحتى عبارات المدح والثناء قد تفسّر بأنها تهكم واستهزاء إن صدرت في سياق الكراهية والعداوة، والعكس كذلك خاص؛ فعبارات السخرية قد تحمل على المزاح والدعابة إن صدرت في سياق المودة والمحبة والصدقة. لذلك نجد أنّ عبارات التودد التي يذكرها أبو فراس تخلق سياقاً من الودّ والوئام، هذا السياق سيكون ركيزة مهمة في تفسير العبارات الأخرى الواردة في الخطاب، فهي تساعد على إعطائها المعنى المناسب لسياق المودة والمحبة؛ وبالتالي يكون تأثير ذلك على تأدب الخطاب كبيراً، بحيث تساهم هذه الأساليب في تقليل شدة تهديدات الخطاب؛ وبالتالي زيادة مستوى تأدبه.

ونجد عبارات التودد في أكثر أبيات أبي فراس الموجهة لسيف الدولة، فإنها سمة بارزة وواضحة في خطابه، فإنّ ذلك أسلوب مطرد عنده، وذلك أيضاً كقوله:

أَنْتَ سَمَاءٌ وَنَحْنُ أَنْجُمُهَا أَنْتَ بِلَادٌ وَنَحْنُ أَجْلُهَا

أَنْتَ سَحَابٌ وَنَحْنُ وَابِلُهُ أَنْتَ يَمِينٌ وَنَحْنُ أُنْمُلُهَا^١

الملاحظ في هذه الأبيات أنّ الشاعر يحاول دائماً أن يربط بينه وبين مخاطبه، فيختار الأوصاف التي تشير إلى وجود علاقة قوية بينه وبين المخاطب، فهذه الأبيات تعبّر فيها عن هذا المعنى من خلال التشبيه والمجاز، فيجعل المخاطب سماءً، ويجعل نفسه نجوم تلك السماء، وكذلك يجعل المخاطب بلاداً، ويجعل نفسه جبالها، وهكذا في بقية الأمثلة المجازية التي ذكرها. وهذا المعنى يعمّق العلاقة ويقويها بين الطرفين؛ لأنّ المخاطب ينظر للمتكلم كشخص قريب منه ينتمي إليه.

فالشاعر يظهر هذه المشاعر الإيجابية في كل فرصة، للأسباب التي دُكرت، وذلك يتوافق أيضاً مع الطريقة المثلى لمخاطبة الملوك، فإنّ الداخل على ملك من الملوك عليه أن يحشو كلامه بالمدائح

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣٣٠.

حتى يكون كلامه مقبولاً بمحضر الملك، وهذا بالإضافة للأسباب سالفة الذكر لانتهاج هذا الأسلوب في أغلب مخاطبات أبي فراس لسيف الدولة، فالالتزام بمقتضيات التأدب التي تفرضها أعراف ذلك المجمع أمر مهم لتحقيق تأدب الخطاب، فمقبولية الخطاب قد تكون مرتبطة ببعض تلك التعارف الاجتماعية، وهذا يصب في نهاية المطاف في تأدب الخطاب.

فالتزام قاعدة التودد في خطاب أبي فراس كان كبيراً، لدرجة أن المطلع على هذا الخطاب قلما يجد قصيدة تنتمي لخطاب الشكوى والعتاب موجهة إلى سيف الدولة إلا ويجد فيها عبارات الود والمحبة والصدقة، وذلك يشير إلى حضور تجليات هذه القادة بصورة واضحة في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس.

خرق قاعدة التودد

إنّ الحضور الكبير لقاعدة التودد في خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس قد طغى على أيّ مخالفات للقاعدة قد ترد في الخطاب، إلا أن ذلك لا يعني عدم وجود هذه المخالفات مطلقاً، فأبو فراس قد يخرج أحياناً عن مقتضى القاعدة، وهذا قد يرجع لأسباب مختلفة، كشدة الانفعال واليأس التي أصابت أبا فراس نتيجة طول مدة البقاء في الأسر، فهذه المشاعر السلبية قد تتسرب إلى الخطاب فتظهر وتتجلى في بعض عباراته؛ مما يؤدي لحدوث مخالفات لقاعدة التودد في بعض أنحاء الخطاب.

خرق ومخالفة قاعدة التودد يكون بالعمل بما يضادّ هذه القاعدة، فكما هو معلوم من أنّ قاعدة التودد تقتضي استعمال عبارات المودة والصدقة والتضامن مع الطرف الآخر^١، فإنّ عكس ذلك ينقسم لمستويين، الأول منهما أقلّ من الثاني، وهو عدم استعمال هذه العبارات التوددية، فيكون الخطاب خالٍ من كل عبارات التودد والتضامن والمودة، وهذا يعدّ مخالفاً للقاعدة، فإنّ الخطاب الجاف بخلوه من عبارات التودد يعدّ مخالفاً لما تدعو له قاعدة التودد؛ وبالتالي يخرج عن التأدب.

وهذا المستوى حاضر في بعض أبيات وقصائد أبي فراس، فهو يشكو ألمه وما يلقاه في أسره، ويطلب الخلاص من ذلك دون أن يتودد لمخاطبه بأساليب التودد التي مرت، ونجد ذلك في قصيدة له يطلب من سيف الدولة أن ينقذه، ولكنّه يقلل من مستوى المدح والتودد تجاهه، بل ويبدأ باتهامه بالنتكر

^١ انظر عبد الرحمن: اللسان والميزان، ص ٢٤١.

له، ثم يعطف ذلك ببعض عبارات التودد البسيطة، التي عبّر بها عن أنه كان يحبه، وذلك في بيت أو بيتين فقط، فقد قال:

تَنَكَّرَ سَيْفُ الدِّينِ لَمَّا عَتَبْتُهُ وَعَرَّضَ بِي تَحْتَ الْكَلَامِ وَقَرَعَا
فَقُولَا لَهُ مِنْ أَصْدَقِ الْوُدِّ أَنَّنِي جَعَلْتُكَ مِمَّا رَابَنِي الدَّهْرَ مَفْرَعَا
وَلَوْ أَنَّنِي أَكْنَنْتُهُ فِي جَوَانِحِي لِأُورِقَ مَا بَيْنَ الصُّلُوعِ وَقَرَعَا^١

لا تحتوي هذه القصيدة ذات الخمسة والثلاثين بيتاً على تودد سوى في هذين البيتين اليتيمين^٢، وهذا خلاف الأبيات السابقة التي احتوت على عبارات التودد في مواضع مختلفة ومتفرقة منها، كما أنّ الملاحظ أن هناك اختلافاً في طريقة التودد الموجودة في هذين البيتين والأبيات السابقة التي مرت؛ فشتان بين أساليب التودد في الأبيات السابقة وأسلوب التودد هنا؛ فهو هنا يذكر الود الذي في قلبه تجاه سيف الدولة، وأنّ هذا الود جعله يحتمي به من الدهر، ثم يكتفي بهذا المعنى فقط في كل القصيدة. هنا يتحقق التودد ولكنه ليس بصورته الكاملة؛ فإنّك لا تجد مدحاً واضحاً للمخاطب كالذي مر في الأبيات السابقة التي مجّدت المخاطب ومنحته أوصافاً كالعزة والقوة والكرم.

كما يظهر لكل متتبع دقيق أنّ الشاعر قد استعمل صيغة الفعل الماضي (جعلتك)، هذا الأسلوب قد يفيد كون هذا الأمر في الماضي، وخصوصاً أنّ هذين البيتين قد وردا بعد بيت شديد التهديد لوجه سيف الدولة، وهو اتهامه بالتتكّر له، وهذا الأمر قد يحمل دلالة على أنّ هذا الود قد تزلزل أو هو معرض للتزلزل والزوال نتيجة ما فعله ويفعله سيف الدولة تجاه أبي فراس، فيمكن أن يكون الغرض من هذه العبارة إحراج المخاطب والضغط عليه أكثر من كونها تودداً له؛ ولذلك يعدّ التودد هنا غير كافٍ بالنسبة إلى خطاب كهذا، فلا يمكننا أن نعد ذلك امتثالاً كاملاً للقاعدة، وهذا ما يدفع لتصنيف ذلك كمخالفة لقاعدة التودد.

فهناك قصائد وأبيات من هذا النوع قد وردت ضمن خطاب الشكوى والعتاب، فإنّك لا تجد فيها مخالفة صريحة للقاعدة، وربما قد تجد فيها شيئاً من التودد وتلطيف الخطاب، إلّا أنّك ستلاحظ أنّ كم وأسلوب التودد مختلفان اختلافاً كبيراً عن بقية القصائد التي تنتمي لذات الخطاب، فلا تجد أنّ ما يأتي

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٤٦.

^٢ انظر المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٤٥.

من تودد فيها يكفي ليخلق حالة من الانسجام والأريحية بين طرفي الخطاب، وهذا ما يدعو لاعتبار هذا الأمر مخالفة للقاعدة.

أما المستوى الثاني لخرق ومخالفة قاعدة التودد، فهو المستوى الأشد والأكثر خرقاً للقاعدة؛ لأنه لا يستلزم عدم استعمال عبارات التودد بصورة كافية فحسب، بل يقوم على استعمال عبارات الخلاف والكرهية والبغضاء؛ فإنَّ استعمال هذه العبارات له أثر سلبي كبير في تأدب الخطاب، فعندما يقوم المتكلم بتوجيه عبارات تحمل مشاعر سلبية تجاه المخاطب، فهذا يخلق -على العكس من عبارات التودد- جوّاً سلبياً في الخطاب، وقد يؤدي ذلك لتفسير الشكوى والعتاب كتهجم واتهام للمخاطب، وبذلك يقل تقبله للخطاب.

هذا الأمر قد نجده في بعض أبيات أبي فراس، وهذه الأبيات قليلة ولكنها موجودة؛ فأبو فراس قد حاول الالتزام بما يرضى العلاقة بينه وبين مخاطبه سيف الدولة، وذلك جنبه الوقوع في مخالفة شديدة كهذه، ولكنه مع ذلك قد انزلق إلى بعض التعبيرات التي تحمل هذه المعاني السلبية تجاه المخاطب، وذلك كالقصيدة المذكورة سابقاً، فالببيت الذي انتهم فيه أبو فراس سيف الدولة بالتكبر له يعد مثلاً على حصول هذه المخالفة، فإنَّ هذا الاتهام يسهم في تراجع العلاقة بين طرفي الخطاب.

يخالف أبو فراس هذه القاعدة في بعض الأبيات بصورة غير مباشرة، فبعض أبياته في الشكوى والعتاب يحاول أن يظهر فيها أنَّ أنسابه لم ينصروه، وأنَّ علاقة النسب التي تربطه بأقربائه لا فائدة منها، بل قد يصرّح بأنَّ الأبعد والأعداء خير من الأقارب بالنسبة له، كل هذه التعبيرات تصب في إشاعة جو العداوة بين الشاعر وأقاربه، وأقرب قريب له كما هو معلوم سيف الدولة الذي يبعث بخطاباته له، فإنَّ مثل هذه التعبيرات المهددة والجارحة تعد مخالفة لقاعدة التودد، ومن ذلك قوله:

أَرَانِي وَقَوْمِي فَرَّقْتَنَا مَذَاهِبُ وَإِنْ جَمَعْتَنَا فِي الْأُصُولِ الْمَنَاسِبُ

فَأَقْصَاهُمْ أَقْصَاهُمْ مِنْ مَسَاءَتِي وَأَقْرَبُهُمْ مِمَّا كَرِهْتُ الْأَقَارِبُ

غَرِيبٌ وَأَهْلِي حَيْثُ مَا كَانَ نَاطِرِي وَحَيْدٌ وَحَوْلِي مِنْ رِجَالِي عَصَائِبُ

نَسِيبُكَ مَنْ نَاسَبْتَ بِالْوَدِّ قَلْبَهُ وَجَارُكَ مَنْ صَافَيْتَهُ لَا الْمُصَاقِبُ

وَأَعْظَمُ أَعْدَاءِ الرِّجَالِ تِقَاتُهَا وَأَهْوَنُ مَنْ عَادَيْتَهُ مَنْ تُحَارِبُ

وَشَرَّ عَدُوِّكَ الَّذِي لَا تُحَارِبُ وَخَيْرُ خَلِيلِكَ الَّذِي لَا تُنَاسِبُ^١

من الواضح أنّ هذه الأبيات تدل على ألم عميق في قلب الشاعر، هذا الألم تت ترجمه هذه الكلمات بصورة عدائية، فالشاعر يذم الأنساب والأقارب لخذلانهم له، فقد فرّقت بينه وبينهم الآراء والمذاهب، فلا يعد علاقته معهم علاقة إيجابية، بل وصل به الأمر لأن يعطي تعريفاً آخر للأقارب الحقيقيين عندما يقول: (نَسِيبُكَ مَنْ نَاسَبْتَ بِالْوَدِّ قَلْبُهُ)، فالقريب الحقيقي هو من يكون بينك وبينه اتفاق ومودة، أمّا الذي يخالفك فهو ليس بقريبك حقيقة وإن كانت الأنساب تجمع بينكما. هذا التعريف يخرج سيف الدولة من خانة الأقارب والأنساب، لمخالفته له وعدم الإقدام على تحريره من الأسر. كما يحكم الشاعر بأنّ الأعداء المحاربين أهون وأقلّ عداوة ممن يثق به فلا يكون محلاً للثقة، وذلك مستفاد من قوله: (وَأَعْظَمُ أَعْدَاءِ الرِّجَالِ تَقَاتُّهَا/ وَشَرُّ عَدُوِّكَ الَّذِي لَا تُحَارِبُ). ويرى أيضاً أنّ الخليل والصاحب إن كان من غير الأنساب فهو أفضل، وذلك قوله: (وَخَيْرُ خَلِيلِكَ الَّذِي لَا تُنَاسِبُ).

كل ذلك يدل على سخط أبي فراس من أقاربه، وسيد أقاربهم وأقربهم له هو سيف الدولة، فالسخط متوجه إليه كذلك، وهذا مما يعارض التودد له، فكما تقول القاعدة: لا بد للمتكلم أن يلطف الخطاب مع مخاطبه ويتودد إليه، لا أن يذمه ويلمزه بالخطاب؛ لأنّ ذلك مدعاة العداوة والمنافرة بين الطرفين، وهذا خارج عن التأدّب كما هو معروف وواضح. فالشاعر أثار بذلك مشاعر الكراهية والسخط مع مخاطبه سيف الدولة، وأحدث بذلك خرقاً لقاعدة التودد التي التزم بها في كثير من أبيات خطابه الأخرى.

وفي قصيدة له من القصائد الرّوميات عاتب فيها أقاربه وأنسابه بأسلوب خشن، قال في مطلعها:

تَمَنِّيْتُ أَنْ تَقْعِدُونِي وَإِنَّمَا تَمَنِّيْتُ أَنْ تَقْعِدُوا الْعِزَّ أَصِيدَا

أَمَا أَنَا أَعْلَى مَنْ تَعْدُونَ هِمَّةً وَإِنْ كُنْتُ أَدْنَى مَنْ تَعْدُونَ مَوْلِدَا^٢

يظهر الشاعر أنّ أنسابه يريدونه أن يهلك ويفنى، وهذا الأمر لا يتحقق بسبب قوة وعزة الشاعر، فهو يتهمهم بأنهم ينظرون إليه نظرة دونية في قوله: (وَإِنْ كُنْتُ أَدْنَى مَنْ تَعْدُونَ مَوْلِدَا)، وهذين البيتين الأولين في القصيدة لا يظهر منهما ذكر للأقارب، وإنما استعمل ضمير المخاطب في وصفهم، ولكنّه سيصرح بهم بعد هذين البيتين، حيث يقول:

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٠.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٨٥.

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو عُصْبَةً مِنْ عَشِيرَتِي يُسَيِّوُونَ لِي فِي الْقَوْلِ غَيْبًا وَمَشْهَدًا

وَإِنْ حَارَبُوا كُنْتُ الْمَجْنَّ أَمَامَهُمْ وَإِنْ ضَارَبُوا كُنْتُ الْمُهَنْدَ وَالْيَدَا

وَإِنْ نَابَ حَطَبٌ أَوْ أَلَمَّتْ مُلِمَّةٌ جَعَلْتُ لَهُمْ نَفْسِي وَمَا مَلَكَتْ فِدَا

يَوَدُّونَ أَنْ لِيُبَصِّرُونِي سَفَاهَةً وَلَوْ غِثْتُ عَنْ أَمْرِ تَرَكَتُهُمْ سُدى

مَعَالٍ لَهُمْ لَوْ أَنْصَفُوا فِي جَمَالِهَا وَحَظُّ لِنَفْسِي الْيَوْمَ وَهَوَ لَهُمْ غَدًا^١

يشكو أبو فراس أقرابه إلى ربه، وهذا الفعل يدل على الجرائم العظيمة التي ارتكبوها بحقه، وأول هذه الجرائم ما يصرح به عندما يقول: (يُسَيِّوُونَ لِي فِي الْقَوْلِ غَيْبًا وَمَشْهَدًا)، فيتهمهم بالإساءة له في كل حال، وهذا أول وأساء جرمهم. ثم يبين أوصافًا تشير لعلاقته معهم، هذه الأوصاف تدل على كونه محاميًا ومنجذًا لهم، حتى وصل الأمر إلى أن يفديهم بنفسه، كل ذلك يقود لمعرفة حقيقة المقصود من رواء هذا الكلام القاسي، فبالرجوع لسيرة الشاعر أبي فراس، نلاحظ أنه قد قاتل وحارب بين يدي سيف الدولة وخدمة له ولدولته، وهذه الأوصاف المذكورة أكثر انطباقًا على سيف الدولة وإن لم يصرح باسمه أبو فراس؛ وهذا أيضًا يجعل هذه الأبيات مهددة لوجه سيف الدولة.

فحتى لو قلنا بأن المقصود من الأبيات هم أقارب وأنساب الشاعر عمومًا، فإن أبا فراس داخل في ضمنهم، بل هو سيدهم، فاستثناؤه يحتاج قرينة، والحال أنه لا توجد قرينة على ذلك، فيدخل ضمن هذا الذم المذكور. فعلى العموم يكون هذا الأسلوب في الخطاب مخالفًا لقاعدة التودد كما مر، ويعد خرقًا لهذه القاعدة؛ ذلك أنه مدعاة للمنافرة بين أبي فراس وسيف الدولة، أو حتى بين أبي فراس وأقرابه بصورة عامة. هذا وقد ختم أبو فراس قصيدته هذه بببيت قد يفهم منه التودد، فقد قال:

فَلَا تَعِدُونِي نِعْمَةً فَمَتَى غَدَتْ فَأَهْلِي بِهَا أَوْلَى وَإِنْ أَصْبَحُوا عِدَا^٢

وهذا البيت الأخير يريد من خلاله أبو فراس أن يظهر وفاءه وولاءه لهم، وهذا من شأنه أن يخفف شدة الخطاب عليهم، وقد نعدّه توددًا، وبالرغم من تسميتهم بالأعداء، إلا أنه عبّر عن الوفاء لهم مهما حصل. وهذا المعنى وإن كان يوافق ويعزز حضور قاعدة التودد إلا أنه لا يلغي الخرق السابق في الأبيات السابقة.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٨٥.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٨٥.

هذه الأساليب التي وقع فيها خرق قاعدة التودد، ففي خطاب الشكوى والعتاب تقع المخالفة للقاعدة بصورة غير مباشرة؛ لأن ذلك من شأنه أن يقلل من شدة هذه المخالفة. كما نجد التزامًا عامًا بهذه القاعدة ومراعاة لمقتضياتها في الخطاب؛ ذلك أن طبيعة العلاقة الحاكمة بين طرفي الخطاب وأغراضه تفرض قيودًا عليه، وهذه القيود قد أثرت بصورة واضحة في منع أو تقليل وقوع المخالفات لهذه القاعدة، هذا ما انعكس جليًا في قلة الخروقات وحتى أساليبها التي لم تكن صريحة ولا مباشرة.

خاتمة: في درجة امتثال خطاب الشكوى والعتاب لقواعد مبدأ التأدب

بعد النظر في تجليات كل قاعدة من قواعد مبدأ التأدب، يظهر التزام خطاب الشكوى والعتاب لدى أبي فراس بمستوى جيد من التأدب الذي يفرضه مبدأ التأدب عند لايكوف، وذلك مع وجود تفاوت في مدى الالتزام بين القواعد الثلاث، فكل قاعدة من هذه القواعد كان لها حضورها الخاص في الخطاب؛ وهذا ما جعل للخطاب توازنًا خاصًا بين القواعد الثلاث، مما شكّل المشهد التأديبي للخطاب. إنّ الخطاب قد احتوى على قدر من الالتزام العام بهذه القواعد مكّنه من أن يبقى مقبولا لدى المتلقي، بحيث لم تتسبب الخروقات في استيحاش المخاطب من الخطاب نتيجة بعده عن التأدب؛ ذلك أن التأدب الذي التزمه الخطاب مكّن من احتواء الخروقات والمخالفات التي صدرت منه، باستعمال عدة طرق واستراتيجيات أعطت للمتكلم حرية أكبر في التعبير تصل لدرجة مخالفة بعض قواعد مبدأ التأدب خلال بعض سياقات الخطاب المختلفة.

يمكن تقييم ذلك الالتزام بمبدأ التأدب بصورة عامة من خلال النظر في مدى التزام الخطاب بكل قاعدة من هذه القواعد الثلاث، فبالنظر لقاعدة التعفف التي تمنع المتكلم من فرض نفسه على مخاطبه، نجد أنّ الخطاب التزم بهذه القاعدة بصورة ما، ولكنّ الخروقات لهذه القاعدة كثيرة في الخطاب؛ وهذا يعود لطبيعة الخطاب ومقاصده، فكما استبان من أنّ مقاصد الخطاب كانت حاكمة ومؤثرة في امتثال هذه القاعدة؛ لأنّ خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس كان يهدف لإيصال حقيقة المعاناة التي يمر بها المتكلم للضغط على المخاطب بغية المبادرة بتحريره من الأسر، هذا الأمر في حد ذاته يخالف القاعدة، ولذلك حاول أبو فراس أن يعبر عنه بأقل الأساليب تهديداً لوجه المخاطب، وهذا وإن كان نافعا إلا أنّه لم يوقف حدوث هذه الخروقات؛ مما أدّى لمخالفة القاعدة في مواطن كثيرة من الخطاب. فإنّ وجود هذه المخالفات كان الهدف منها فرض خيارات المتكلم على المخاطب، وهذا ما تسبب بحدوث الخرق العام للقاعدة في خطاب الشكوى والعتاب ككل.

أمّا بالنسبة لقاعدة التشكك فهي تشترك بصورة ما مع قاعدة التعفف بهدفها، فهي ترى أنّ للمخاطب الخيار الذي يختاره، فلا يجوز للمتكلم أن يجبر مخاطبه على خيار قد لا يرغب به، وهنا يتضح كذلك أنّ طبيعة الخطاب ومقاصده لها الأثر في تمثّل والالتزام هذه القاعدة، ولذلك نجد حالة الالتزام بقاعدة التشكك تشابه حالة الالتزام بقاعدة التعفف، فقد التزم الخطاب بقدر ما من هاتين القاعدتين، ولكنّه في مقابل ذلك قد خرّقهما في مواطن كثيرة من الخطاب، إلا أنّ الفرق الجلي بين هاتين القاعدتين هو اهتمام

قاعدة التشكك بحرية المخاطب في الاختيار، وذلك من خلال افساح المجال له لأن يختار ما يريد باستعمال الصيغ المشككة التي لا جزم فيها، أمّا قاعدة التعفف فهي تفرض على المتكلم حالة من احترام ذات المخاطب بحيث لا يفرض عليه ما لا يحب عموماً، ويكون هذا باجتناب بعض الصيغ التي لا تناسب ذلك.

من هنا يظهر أنّ الخطاب قد التزم بالقاعدتين المذكورتين بمقدار متقارب، وهذا لأنهما مرتبطتان ارتباطاً قوياً، هذا على عكس القاعدة الثالثة التي تختلف عنها، فتوجب قاعدة التودد استعمال أساليب وعبارات التودد والتضامن والصدقة مع المخاطب، وهذا الأمر نجده كثيراً في خطاب أبي فراس، وهذا يدفع لاعتبار قاعدة التودد القاعدة الأكثر امتثالاً في الخطاب، حيث تنوعت وانتشرت عبارات التودد في أغلب قصائد أبي فراس، وهذا يمكن تفسيره بأنّ خطاباً كخطاب الشكوى والعتاب يحتاج لقدر أكبر من التودد ليحقق مقاصده وأهدافه، كما تعد مكانة المخاطب الخاصة وعلاقتها بالمتكلم سببين رئيسين يلحان على المتكلم لاستعمال عبارات وأساليب التودد مع المخاطب، وهذا ما كان بالفعل.

وإنّ وجود بعض الخروقات لقاعدة التودد لم يكن ذا أثر كبير، فقد عوّضت عبارات التودد عن أكثر الخروقات الحاصلة للقاعدة، مما يجعلنا لا نلتفت لأثر هذه الخروقات بصورة واضحة في الخطاب. فبالإمكان عدّ هذه القاعدة ألحّ قاعدة تطبيقاً في خطاب الشكوى والعتاب، وتليها القاعدتين السابقتين. وبصورة عامة إن امتثال مستوى امتثال هذه القواعد كان متقارباً، إلّا أنّ قاعدة التودد كان لها النصيب الأكبر في الامتثال، وذلك لأسباب ذكرت.

وخلاصة الأمر أنّ خطاب الشكوى والعتاب قد التزم بقدر عالٍ من التأدّب وفق مبدأ لايكوف، وهذا لتحقيقه وامتثاله للقواعد الثلاث مع تفاوت مستوى ذلك الامتثال بين كل قاعدة والأخرى، وذلك بتصدر قاعدة التودد كأكثر قاعدة امتثالاً في الخطاب؛ وهذا ما أعطى الخطاب مميزات وخصائص جعلته مقبولاً ومتأدّباً في سياقه العام. وإنّ هذا القدر من الالتزام قد غطّى وعوّض بعض المخالفات والخروقات التي وردت ضمن الخطاب، والتي يمكن تبريرها باستلزام خطاب الشكوى والعتاب الطبيعي لوجود مثل هذه الخروقات؛ وبالتالي لا تخرجه عن الدائرة المقبولة لحالة اللا تأدّب.

الفصل الرابع:

استراتيجيات التأدب في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس

- تمهيد
- المبحث الأول: استراتيجيات التأدب الإيجابي في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس
- المبحث الثاني: استراتيجيات التأدب السلبي في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس
- المبحث الثالث: استراتيجيات الإنجاز غير المباشر في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس

تمهيد

ظهر في الفصول السابقة حجم الأفعال المهددة للوجه التي يمكن أن يتضمنها خطاب الشكوى والعتاب، وهذه الأفعال المهددة للوجه كانت متنوعة في طرقها، وقد بان أن لهذه التهديدات للوجه نوعين رئيسيين، وهذان النوعان انبثقا من انقسام مفهوم الوجه لنوعين كذلك، أولهما هو الوجه الإيجابي الذي يتعلّق برغبة الفرد بأن يكون موضع استحسان الآخرين ورضاهم^١، وثانيهما هو الوجه السلبي الذي يتعلّق برغبة الفرد في أن لا يعوق الآخرون أفعاله^٢، فهذان القسمان من أقسام الوجه يجعلان الفعل المهدد لهما ينقسم وفقهما إلى فعل مهدد للوجه الإيجابي وآخر للوجه السلبي. كلّ واحد من هذين الفعلين المهددين للوجه له خصائص مميزة له؛ فالتهديد للوجه الإيجابي يقوم على التقليل من قدر الطرف الآخر وعدم تحقيق رغباته^٣، أمّا التهديد للوجه السلبي فيقوم على إعاقة أفعال ورغبات الطرف الآخر^٤.

التأدّب يقوم على منع أو تقليل وقوع التهديدات للوجهين الإيجابي والسلبي؛ لذا نصطلح على التأدّب الذي يتحقق من خلال منع أو تقليل التهديد للوجه الإيجابي بالتأدّب الإيجابي^٥، وعلى التأدّب الذي يتحقق من خلال منع أو تقليل التهديد للوجه السلبي بالتأدّب السلبي^٦، ويتحقق هذان النوعان من التأدّب من خلال القيام بعدة إجراءات واستراتيجيات لإقامة حالة التأدّب بنوعيه في الخطاب، ولكل نوع من نوعي التأدّب استراتيجياته وطرقه الخاصة، تقوم هذه الطرق والاستراتيجيات إمّا على القضاء على التهديد للوجه أو تقليله لأقصى درجة أو تعويضه من خلال فعل تعويضي، كل تلك الأمور يمكن القيام بها للمحافظة على تأدّب الخطاب بأكبر قدر ممكن.

من هنا قام كلّ من بنيلوبي براون وستيفن لفنسن بدراسة هذه الاستراتيجيات وتصنيفها في كتابهما (نظرية التأدّب)، وخرجا بعدد كبير من الاستراتيجيات والإجراءات التي يمكن أن تقلل من حدوث التهديد للوجهين الإيجابي والسلبي؛ ولذلك قام العالمان بتقسيم وتصنيف هذه الاستراتيجيات إلى ثلاثة أقسام،

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ٨١.

^٢ انظر المصدر نفسه، ص ٨١.

^٣ انظر المصدر نفسه، ص ١٥٨.

^٤ انظر المصدر نفسه، ص ١٥٨.

^٥ انظر المصدر نفسه، ص ٢٢٠.

^٦ انظر المصدر نفسه، ص ٢٦٧.

الأول يتعلق باستراتيجيات التأدب الإيجابي، أما الثاني يتعلق بالتأدب السلبي، ثم أدرجا قسمًا ثالثًا خاصًا بالاستراتيجيات التي تتعلق بالإنجاز غير المباشر، وأسمياه بـ(لا قطعية القصد)^١.

وعلى هذا الأساس جرى تقسيم الاستراتيجيات إلى هذه الأقسام الثلاثة عند براون ولفنسن، وقد اتسم تقسيمهما بالدقة؛ وهذا ما جعل مجهودهما في قمة الدراسات في مجال التأدب؛ فإنّ نظريتهما في تعدد أكمل وأنضج النظريات في هذا المجال. ومن هنا كان التزامًا على الدارس في هذا المجال المعرفي أن يستفيد مما قدّمه براون ولفنسن في مقارنة وتحليل الأساليب المستخدمة في الخطابات المختلفة.

إنّ خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس هو أحد تلك الخطابات التي ظهر احتواؤها على تهديدات كثيرة للوجهين الإيجابي والسلبي، وبالمقابل ظهر أنّ منتج الخطاب حاول بطرق شتى أن يخفف من هذه التهديدات ويعوضها بطرق مختلفة، هذه الطرق يجب على الدارس أن يحللها ويدرسها بصورة دقيقة ومفصلة، فقد جرت دراستها بصورة تقييمية عامة وفق مبدأ التأدب في الفصل السابق، لكن الصورة الأولية التي تظهر بعد تلك النظرة التقييمية العامة للخطاب لا تكفي لفهم خصائص الخطاب فهمًا كاملاً ودقيقًا، فكان لا بدّ للباحث هنا أن يدخل في أعماق الخطاب مستخرجًا هذه الأساليب والطرق والاستراتيجيات مهتديًا ومعتمدًا على نظرية براون ولفنسن في تحليل وتصنيف استراتيجيات التأدب بقسميه.

وهذا ما سيكون العمل عليه في هذا الفصل، فبناءً على نظرية براون ولفنسن جرى تقسيم الفصل إلى ثلاثة مباحث، خصص الأول باستراتيجيات التأدب الإيجابي في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس، والثاني باستراتيجيات التأدب السلبي في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس، والثالث باستراتيجيات الإنجاز غير المباشر في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس. فبالاعتماد على هذا التقسيم يتم استعراض الاستراتيجيات المختلفة وتحليلها بصورة خاصة في كل قسم يختص بها من الأقسام الثلاثة.

فمن شأن هذه الطريقة أن تعرّف المتلقي والقارئ بالطرق والوسائل والاستراتيجيات التي استعملها أبو فراس لمحاولة إبقاء خطابه متأدبًا، كما وستكشف هذا التحليل عن نوع التأدب الذي ركّز عليه أبو فراس في خطابه، ومدى نجاح هذه الاستراتيجيات في حجب التهديدات التي وردت في خطاب الشكوى

^١ للاطلاع على ملخص الاستراتيجيات وأقسامها راجع الجدول ص ٢٥-٢٦.

والعتاب أو تقليدها، وكل ذلك سيعطي نظرة فاحصة ودقيقة لخطاب الشكوى والعتاب، مما يسهم في بيان خصائصه وسماته الخاصة، ويكشف عن مكنون معانيه ومرامييه.

فخطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس يعد بيئة خصبة لدراسة الاستراتيجيات التأدبية، فحالة الخطاب الخاصة التي تقتضي كمًا كبيرًا من الأفعال المهددة للوجه، تدفع منتج الخطاب لانتهاج نهج خاص في منع وقوع هذه الأفعال المهددة للوجه، وكذلك تبرز عوامل التأدب التي ذكرت سابقًا كعنصر ضاغط يدفع المتكلم لمزيد من التأدب في خطابه، وهذه الحالة الخاصة التي تتمثل في صراع من جهات متعددة بين صراحة الخطاب ومحاولة تحقيق الغرض منه، وبين هذه العوامل المذكورة التي تستلزم مستويات عالية من التأدب؛ لذلك نجد أنّ الخطاب يتأرجح بين تلك حالتَي التأدب واللا تأدب، مع التزام حد دقيق من التأدب لا يخرج عنه الخطاب. هذه الحالة الفريدة المبنية على عملية موازنة تتكشف تفاصيلها من خلال دراسة كل عمل مؤثر في تأدب الخطاب.

كما جرى استعراض ودراسة الأفعال المهددة للوجه في ما مر ، فإنّ هذا الأمر ذاته يدفع كذلك لدراسة كل استراتيجية استعملت في سياق منع وتقليل تلك الأفعال المهددة للوجه، ومحاولة معرفة أثر هذه الاستراتيجية ومفعولها في الخطاب، وهذا قد يقدم لنا صورة أكثر دقة ووضوحًا لجانب التأدب في خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس.

المبحث الأول: استراتيجيات التأدب الإيجابي في خطاب الشكوى والعتاب

تقوم استراتيجيات التأدب الإيجابي على إشباع رغبات الوجه الإيجابي للمخاطب ومنع حصول التهديد لها، وذلك من خلال مراعاة رغبات المخاطب في ألا يعوق المتكلم أفعاله ورغباته^١، ولذلك كانت الاستراتيجيات المتعلقة بالتأدب الإيجابي تقوم بهذا الدور، فتقي المخاطب من تأثير الفعل المهدد للوجه الإيجابي، وهذا ما يبقي الخطاب في مستويات تأدبية عالية. كما يتجاوز أثر استعمال استراتيجيات التأدب الإيجابي في منع حصول الفعل المهدد للوجه الإيجابي أو تأثيراته، فهو يقوم بإضفاء طابع إيجابي على الخطاب، ذلك أنّ الخطاب الذي يتوفر على أكبر قدر ممكن من هذه الاستراتيجيات يتوافق مع حالة التأدب اللازمة. يقول براون ولفنسن: "والتأدب الإيجابي، بخلاف التأدب السلبي، ليس بالضرورة تعويضاً عن رغبة الوجه المعينة التي انتهكت ب(الفموى)^٢؛ أي في الوقت الذي يتحدد مجال التعويض المناسب بالفرض أو الإجبار نفسه في التأدب السلبي، فإنّ مجال التعويض في التأدب الإيجابي يتسع ليشمل إدراك قدر رغبات الآخر على نحو عام والتعبير عن التشابه بين رغبات الأنا والآخر"^٣.

إنّ استعمال أساليب وصيغ التأدب بصورة عامة تجعل للخطاب مقبولية عالية لدى المخاطب، وهذا يشمل استراتيجيات التأدب الإيجابي أيضاً؛ لأنّ الحالة التي يكون عليها الخطاب مع استعمال هذه الاستراتيجيات والالتزام بها دون وقوع التهديد للوجه قد تكون أكثر تأدياً من الخطاب الذي يكون في حالة الحياد التأديبي، هذا الحياد الناتج عن عدم حصول أفعال مهددة للوجه في الخطاب، فيكون الخطاب خالياً مما يقلل من تأديبه، ولكنّه مع ذلك قد لا يحتوي على بعض مقتضيات التأدب، كبعض صيغ التأدب والاحترام والتبجيل، تلك الصيغ التي تقوم بدور تحقيق رغبات وجه المخاطب الإيجابي؛ من هنا تأتي ضرورة وأهمية استعمال هذه الاستراتيجيات والأساليب المتعلقة بالتأدب في هذا السياق، لا مجرد محاولة تخفيف أو إلغاء أو تعويض التهديد الحاصل لوجه المخاطب، فتلك أحد ثمرات استعمال أساليب التأدب الإيجابي لا كلها، فإنّ لهذه الأساليب والاستراتيجيات فوائد أبعد من تعويض الأفعال المهددة للوجه.

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ٨١.

^٢ إشارة ل(الفعل المهدد للوجه).

^٣ المصدر نفسه، ص ٢٢٠.

فالقيام بتعزيز وجه المخاطب الإيجابي بتلبية رغبات المخاطب وتقوية علاقة التضامن والتقبل معه من أهم نتائج استعمال استراتيجيات التأدب الإيجابي، فلا بد للمتكلم من استعمال بعض هذه الاستراتيجيات لتحقيق غرضين مهمين في الخطاب، أولهما تخفيف أو إلغاء أو تعويض الفعل المهدد للوجه الإيجابي للمخاطب؛ وبالتالي تقليل الضرر المتوجه لوجه المخاطب إلى أقل مستوى. والثاني تعزيز الوجه الإيجابي للمخاطب بتبجيله وتحقيق رغباته. فكل من هذين الهدفين له أهميته في الخطاب؛ لذلك يسعى المتكلم عادة إلى تحقيقهما باستعمال هذه الأساليب والاستراتيجيات الخاصة التي تطلع بهذا الدور في الخطاب.

في خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس نراه لا يتعدى هذين الهدفين فيه، فهو يسعى بشكل واضح لعدم تهديد وجه مخاطبه بشتى الطرق التي يتمكن من استعمالها، ويحاول كذلك أن يخفف من التهديدات الحتمية لوجه مخاطبه، كما لا تخفى أهمية تعزيز وجه المخاطب بصورة خاصة؛ فتلك العوامل والأسباب التي ذكرت في الفصل الأول لها الفضل في دفع أبي فراس نحو هذا المسار في الخطاب؛ فهو يجد نفسه مجبراً على السير وفق ما تقتضيه غايات الخطاب وأغراضه، وإلا خرج الخطاب عما ينبغي أن يكون عليه.

وبالاهتداء بنظرية براون ولفنسن نستخلص الكثير من هذه الاستراتيجيات التي استعملها أبو فراس في خطاب الشكوى والعتاب، وهذا يؤكد أنّ تلك النظرية التي أتى بها براون ولفنسن هي نظرية واقعية مأخوذة من واقع التبادلات الكلامية بين المتكلمين، وهذا الأمر لا يعني أننا نحتاج لتفاعل طرفي الخطاب معاً لتطبيق هذه الاستراتيجيات؛ فمع كون خطاب الشكوى والعتاب من طرف مرسل إلى طرف آخر متلقٍ، وبذلك لا يمكن قياس رد فعل الطرف المتلقي للخطاب من مجرد دراسة ذلك الخطاب، إلا أنّ ذلك لم يمنع من تطبيق هذه الاستراتيجيات تطبيقاً فعالاً.

أورد براون ولفنسن خمس عشرة استراتيجية للتأدب الإيجابي في كتابهما^١، كل هذه الاستراتيجيات تقوم بتحقيق الأهداف والأغراض التي ذكرت للتأدب الإيجابي، ويحتوي خطاب الشكوى والعتاب على عدد من هذه الاستراتيجيات التي أوردها براون ولفنسن. وسيكون استخراج هذه الاستراتيجيات ودراستها وتحليلها فيما يأتي على ضوء ما أورده العالمان في كتابهما؛ وذلك للخروج بما احتواه خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس من خصائص تدعم التأدب الإيجابي.

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ٢٢٠-٢٦٦.

١ - استراتيجيات الأرضية المشتركة

أول الاستراتيجيات التي يذكرها براون ولفنسن لتحقيق التأدب الإيجابي هي الاستراتيجيات التي تعتمد مبدأ (الأرضية المشتركة)، فهي تقوم على وضع أرضية مشتركة بين طرفي الخطاب، وذلك بالتصريح بانتماء كلٍّ من المتكلم والمخاطب إلى مجموعة من الأشخاص الذين يشتركون في رغبات محددة ومشاركة؛ هذا الأمر من شأنه أن يزيد التضامن بين المتكلم والمخاطب؛ لأنّ المتكلم يظهر نفسه متشابهًا في رغباته مع المخاطب؛ وذلك ما يدفع لتقوية العلاقة بينها ويقود للتأدب الإيجابي في الخطاب.

وعند النظر في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس الحمداني نجد عدّة أساليب مستخدمة لخدمة هذا الغرض، وهذا ما يجعل من السهل تصنيفها كاستراتيجيات للتأدب الإيجابي، فإنّ مبدأ الأرضية المشتركة حاضر بشكل ما في خطاب أبو فراس؛ ولذلك يقوم هذا الحضور بدوره في تخفيف حدة الخطاب وتهديده لوجه المخاطب، كما يقوم بتعزيز التوافق بين الطرفين بصورة ملحوظة.

الاستراتيجية الأولى: الالتفات إلى رغبات المخاطب

تقوم الاستراتيجية الأولى على أن يلاحظ المتكلم جوانب المخاطب المختلفة التي يرغب المخاطب من المتكلم أن يلاحظها ويبيدي استحسانه تجاهها^١، فالمتكلم هنا يلتزم بالالتفات لرغبات المخاطب وتحقيقها ما أمكنه، بحيث يحدث ذلك الأمر نوعًا من التضامن معه؛ فيحصل التعويض عن الفعل المهدد للوجه إن وجد، ويقوي ويعزز وجه المخاطب إن لم يكن هناك تهديد له يحتاج لتعويض.

ويحتوي شعر أبي فراس المنتمي لخطاب الشكوى والعتاب على بعض الأمثلة لاستعمال هذه الاستراتيجية مع سيف الدولة، ويمكن أن نمثل على ذلك بالمدائح الكثيرة التي يوجهها أبو فراس لمخاطبه سيف الدولة بصورة مستمرة، وذلك كقوله:

وَإِنَّكَ لَلْجَبَلِ الْمُشْمَخِ رُ لِي بَلْ لِقَوْمِكَ بَلْ لِلْعَرَبِ

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ٢٢٢.

^٢ انظر المصدر نفسه، ص ٢٢٣.

عَلَى تَسْتَفَادُ وَمَالَ يُفَادُ وَعَزٌّ يُشَادُ وَنُعْمَى تُرَبُّ^١

إنَّ الملوك كما مرَّ تحب أن توصف بالقوة والعزة والكرم، وهذه الجوانب التي كان يراها العرب مدعاة للمفاخر والعلو؛ لذلك نجد أبا فراس يقوم باستعمال هذه الصفات في مدحه لسيف الدولة كما في هذه الأبيات، فوصف الشاعر لسيف الدولة بـ(الجبل المشمخر) هو إشارة إلى صفات القوة والعزة التي يمتلكها الرجل الذي يلجأ إليه الآخرون، فإنَّ وجود القوة وحدها يعد مفخرة، لكنَّ هذه القوة إن لم ينتفع بها من هم حول هذا الرجل القوي لن تكون هناك فائدة من هذه القوة؛ فتقل مدعاة المفخرة بالنسبة له؛ لذلك استدرك الشاعر هذا الجانب بالشرط الثاني الذي جعل هذه القوة في خدمة جميع العرب. فإنَّ هذا التعبير قد زاد فضيلة إلى فضيلة.

ثم ذكر أنواعاً مما يمتلكه سيف الدولة من قدرات ومميزات يغدق بها على قومه، وهي العلو والمال العز والنعمى، كل ذلك مما ينسبه أبو فراس إلى سيف الدولة يحقق رغبته في أن تمتدَّ قوته وعزه وماله وإعانتته بهذه الأمور لقومه وغير ذلك من مقتضيات الملك؛ ولذلك كانت هذه الأبيات محققة لرغبات المخاطب، فقد التفت أبو فراس لرغبات سيف الدولة في النظر في هذه الصفات، وأظهر استحسانه وإكباره لها؛ ذلك يؤدي لتحقيق هذه الاستراتيجية المهمة، كما لو نظرنا لبقية الأبيات التي ورد ضمنها هذان البيتان نجدها لا تخلو من تهديد لوجه المخاطب، وهذا ما يشير لكون هذين البيتين وغيرهما من أبيات المدح في هذه القصيدة قد قاموا بدور التعويض لهذه التهديدات لوجه المخاطب، فقد قال أبو فراس في ذات القصيدة:

أَتُنَكِّرُ أَنِّي شَكَوْتُ الزَّمَانَ وَأَنِّي عَتَبْتُكَ فِيمَنْ عَتَبَ

فَأَلَّا رَجَعْتَ فَأَعْتَبْتَنِي وَصَيَّرْتَ لِي وَلِقَوْلِي الْعَلَبَ

فَلَا تَنْسِبَنَّ إِلَيَّ الْخُمُولَ عَلَيْكَ أَقَمْتُ فَلَمْ أَغْتَرِبْ^٢

واضح تهديد هذه الأبيات لوجه المخاطب، حيث استعمل أساليب وصيغ ربما لا يليق استعمالها مع الملوك وذوي المكانة، كالنهي الصريح والاستفهام التقريري، وقد مرَّ بيان هذا الأمر سابقاً. إلا أنَّه يمكننا أن نعد البيتين الأخيرين من الأبيات التي تسببت بتعويض هذا التهديد للوجه في هذه الأبيات.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٥.

^٢ المصدر نفسه: ج ٢ ص ٢٦.

وهكذا يكثر استعمال هذه الاستراتيجية عندي أبي فراس، فهو كثيرًا ما يولي أهمية لمكانة المخاطب ورغباته التي تتناسب هذه المكانة أثناء خطابه، وكمثال آخر في إحدى قصائد الشكوى والعتاب عند أبي فراس قد أتى بهذا البيت في سياق الدعاء لله تعالى فقال:

قَرَبَهُ مِنْ سَيْفِ الْهُدَى فِي ظِلِّ دَوْلَتِهِ الظَّلِيلِ^١

يدعو أبو فراس ربّه في هذا البيت أن يقربه من سيف الدولة، وقد أطلق عليه اسم (سيف الهدى)، وهذا التغيير في الاسم يدل على مدح وإجلال للمخاطب وتأكيد على صفات الخير التي يتصف بها المخاطب. كما نجده يصف دولته بأن لها ظلًا ظليلًا، وهذا الأسلوب يعطي معنى الرعاية والحماية التي يوفرها سيف الدولة لمن هم تحت سلطة دولته، وتعبير أبو فراس برغبته أن يكون تحت ظل هذه الدولة يوحي بكونها دولة قوية منيعة طيبة المعيشة، وهذه الأوصاف كلها تعطي المخاطب مكانته التي يريدها ويرغب فيها؛ لأن حاكم الدولة يرى نجاحه بازدهار دولته وقوتها ورفعته، ويقاس ذلك برغبة الناس في العيش فيها، وهذا ما حققه تعبیر أبي فراس في هذا البيت.

وهناك استراتيجية أخرى يوردها براون ولفنسن تعتمد على التأكيد على الاهتمام برغبات المخاطب، وهذه الاستراتيجية يمكن عدّها تبعًا لهذه الاستراتيجية، فهي ترى التأكيد على الاهتمام برغبات الآخر باستعمال النبر والتنغيم والعوامل الصوتية في التبادلات القولية، أو باستعمال صيغ التوكيد والمبالغة مثل (بالتأكيد/حتمًا/حقًا/بالضبط)^٢، فهي تصبّ في ذات مصبّ الاستراتيجية الأولى؛ حيث لا تختلفان إلّا في استعمال المؤكّدات، وهذا ما يدفع لإلحاقها بها. وقد رود استعمال هذه الاستراتيجية في بعض أبيات الشكوى والعتاب لأبي فراس، فقد قال في ذات القصيدة السابقة:

وَلَيْنَ حَنَنْتُ إِلَى ذُرَا هُ لَقَدْ حَنَنْتُ إِلَى وُصُولِ^٣

فقد حقق أبو فراس الاستراتيجية الأولى بمدح مخاطبه وبيان الرغبة في وصاله، وحقق الاستراتيجية الأخرى التي ألحقناها بها من خلال التأكيد على ذلك باستعمال (لقد) التي تعيد التوكيد والجزم؛ فقد جزم أبو فراس بوصوله إلى مبتغاه عندما يحن إلى مخاطبه، وهذا تطبيق لكلا الاستراتيجيتين.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣٢١.

^٢ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ٢٢٧-٢٢٩.

^٣ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣٢١.

هاتان الاستراتيجيتان من أكثر الاستراتيجيات استعمالاً لدى أبي فراس في خطاب الشكوى والعتاب، وللمطلع الرجوع إلى قصائد الروميات وغيرها من أبيات الشكوى والعتاب ليرصد مدى تكرار استعمال هاتين الاستراتيجيتين، ولا يتسع المقام لذكر كل الأمثلة والحالات الموجودة في المدونة المدروسة لهذه الاستراتيجية والأخرى الملحق بها، فما ذُكر يتحقق به الغرض وفيه الكفاية.

الاستراتيجية الثانية: التطابق بين الطرفين^١

تعتمد هذه الاستراتيجية على افتراض وجود أرضية مشتركة بين طرفي الخطاب؛ وذلك من خلال استعمال بعض الصيغ والأساليب التي تدل على وجود توافق خطابي بين المتكلم والمخاطب، وهذه الصيغ تشمل صيغ التحبب والتضامن مع الآخر والتصغير؛ ذلك أنها تؤدي دوراً مهماً في تلطيف الخطاب وإشاعة جو التفاهم والتضامن، فالمتكلم يوحى من خلال هذه الصيغ لمخاطبه بأنهما متفقان ومتفاهمان ومشاركان في فئة اجتماعية مشتركة؛ ومن ثمّ متطابقان بصورة ما في نظرتيهما للموضوع المطروح، وهذا ما يعدّ تأدياً إيجابياً في الخطاب^٢.

وتركز هذه الاستراتيجية على المشتركات بين المتكلم والمخاطب، حيث يدخل المتكلم نفسه مع مخاطبه في فئة خاصة تجعهما، من خلال بعض العبارات والصيغ التي يفهم منها هذا المعنى؛ وبالتالي يكون هذا الأمر مدعاة لتلطيف الخطاب وتعويض الفعل المهدد للوجه في حال وقوعه. وهذا الأثر الإيجابي الذي تحدثه هذه الاستراتيجية يدخل ضمن التأديب الإيجابي.

وفي خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس نجده يستعمل بعض العبارات مع مخاطبه سيف الدولة بهذا الأسلوب، حيث يقوم باستعمال عبارات وصيغ تدل على علاقة خاصة بينه وبين سيف الدولة؛ هذا ما يزيد مستوى تأديب الخطاب، وذلك كمخاطبة سيف الدولة باستعمال عبارات تناسب سياق العلاقات النسبية بدلاً عن أسلوب مخاطبة الملوك والحكام، وذلك كما في هذه الأبيات:

بَنِي عَمَنَا مَا يَصْنَعُ السَّيْفُ فِي الْوَعَى إِذَا قُلَّ مِنْهُ مَضْرِبٌ وَذُبَابُ

^١ يصطلح عليها براون ولفنسن بـ(مؤشرات التطابق في المجموعة التفصيلية). انظر براون ولفنسن: نظرية التأديب، ص ٢٢٩.

^٢ انظر المصدر نفسه، ص ٢٢٩-٢٣٨.

بَنِي عَمَنَا لَا تُنْكِرُوا الْحَقَّ إِنَّنَا شِدَادٌ عَلَى غَيْرِ الْهَوَانِ صِلَابٌ

بَنِي عَمَنَا نَحْنُ السَّوَاعِدُ وَالطُّبَى وَيُوشِكُ يَوْمًا أَنْ يَكُونَ ضِرَابٌ^١

فاستعمال عبارات تدل على اشتراك المتكلم مع المخاطب في فئة مشتركة هي القبيلة أو العائلة يخفف بصورة ما من تهديد الوجه الحاصل بسبب الشكوى والعتاب في هذه الأبيات، فقد استعمل أبو فراس بعض أساليب النهي الصريح واللوم الشديد في هذه الأبيات مما أدى لتهديد وجه المخاطب، لكن هذا التهديد قد جرى تعويضه من خلال تكرار عبارة (بني عمنّا) التي تمثل الجامع بين طرفي الخطاب؛ فنتيجةً لذلك تجعل هذه الإشارة إلى علاقة النسب الخاصة الفعل المهدد للوجه بلا تأثير؛ والسبب في ذلك أنّ هذه العلاقة الخاصة تعيد تفسير الفعل المهدد للوجه، فتتفي عنه معاني التعالي والتكبر والعداوة وغيرها من المعاني التي تسبب حصول التهديد لوجه المخاطب.

الاستراتيجية الثالثة: التماس التوافق

لكي يقوم المتكلم بوضع أرضية مشتركة للخطاب بينه وبين المخاطب عليه أن يكثر من إظهار جوانب الاتفاق مع مخاطبه، وهذا يمكن تحقيقه بهذه الاستراتيجية التي تعتمد على اختيار موضوعات اتفاقية بين طرفي الخطاب؛ مما يسهم في بناء أرضية مشتركة بينهما^٢، وهذه الموضوعات التي يختارها المتكلم لتكون أساساً لهذه الأرضية المشتركة يجب أن تكون موضوعات يعلم المتكلم بأنّ المخاطب يوافقها، أو قد تكون موضوعات لا يكثر الخلاف فيها عادة بين الناس، أو موضوعات يمكن التنازل فيها للطرف الآخر بسهولة لعدم أهميتها أو لغموضها.

فوجود هذه الموضوعات في الخطاب تجعل المخاطب في حالة توافق مع المتكلم؛ وهذا الأمر يبني الأرضية المشتركة التي يمكن أن تعد تمهيداً لحصول أفعال مهددة للوجه يمكن تعويضها بتقليل تأثيرها من خلال البناء على التوافق في الأرضية المشتركة الذي تم بناؤها؛ وبالتالي يتحقق التأدّب الإيجابي في الخطاب.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٣.

^٢ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ٢٣٨-٢٣٩.

في خطاب الشكوى والعتاب لدى أبي فراس يُلاحظ أنّ الموضوعات المطروحة عادةً هي موضوعات خلافية، فالحديث عن تحرير أبي فراس من الأسر وضرورته هو الموضوع الرئيس في خطاب أبي فراس، وكما هو معلوم إنّ موضوعاً كهذا يعدّ موضوعاً خلافياً بين أبي فراس وسيف الدولة؛ مما يخالف بشكل واضح استراتيجية التوافق. ولذا يمكن تفسير قلة استعمال هذه الاستراتيجية في خطاب الشكوى والعتاب بطبيعة الخطاب والموضوعات التي يحتويها، ولكن هذا الأمر لا يعني عدم استعمال هذه الاستراتيجية مطلقاً؛ فبالنظر لبعض أبيات أبي فراس نجده يحاول أن يأتي أحياناً ببعض الموضوعات التي يتفق فيها أبو فراس من مخاطبه سيف الدولة، وهذا كقصيدته التي يذكر فيها صفات الروم وزعيمهم الدمستق، فقد قال فيها:

أما من أعجب الأشياءِ علجٌ يُعرّفني الحلال من الحرام
وتكنفهُ بطارقةٌ نُبوسٌ تُبارى بالعنانين الضخام
لهم خلق الحميرِ فليست تلقى فتى منهم يسير بلا حزام
يُريغون الغيوبَ وأعجزتهم وأيُّ الغيبِ يوجدُ في الحسام
وأصعبُ خطّةٍ وأجلُّ أمرٍ مُجالسةُ اللئامِ على الكرام^١

من الواضح أنّ أبا فراس هنا يعيب الروم وقائدهم وينهمم بأبشع الصفات، وهو في هذه الأبيات يخاطب الدمستق ظاهراً، إلّا أنّ هناك بعض الأبيات في هذه القصيدة يبعث من خلالها تحيته إلى سيف الدولة في الشام ويشكو له عن مأساته في الأسر، وهذا ما يوحي له مطلع القصيدة أيضاً:

يَعُزُّ عَلَى الْأَحَبَّةِ بِالشَّامِ حَبِيبٌ بَاتَ مَمْنُوعَ الْمَنَامِ^٢

فهذا يدل على أنّ الكلام السابق وإن كان موجهاً للدمستق إلّا أنّ أبا فراس يريد أن يظهره لسيف الدولة، والموضوع الذي يتحدث فيه أبو فراس هو موضوع يتفق فيه مع سيف الدولة؛ لأن الروم الذين أسروا الشاعر هم أعداء سيف الدولة كما هم أعداء الشاعر، فالمتكلم والمخاطب يتفقان في عداوتهما للروم وذمهم، وهذا يبني الأرضية المشتركة التي جرى الكلام عنها من خلال هذا الموضوع الاتفاقي الذي يورده أبو فراس هنا.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣٧١.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٣٧١.

فذكر هذا الموضوع وبيان الاتفاق فيه مع سيف الدولة يمكن أن يستفيد منه أبو فراس كأرضية مشتركة لمطالبته بتحريره من أسر الروم؛ ذلك أنّ الطرفين متفقان على عداوة هؤلاء القوم؛ وبالتالي على سيف الدولة أن يتفهم طلب أبو فراس في تحريره منهم بأسرع وقت، فالأرضية المشتركة التي صنعها هذا الموضوع لم تعزز التأدّب الإيجابي في الخطاب فحسب، بل كان لها دور في تقوية حجة أبي فراس وجعل طلبه منطقيًا بنظر المخاطب.

الاستراتيجية الرابعة: تجنّب الخلاف

هذه الاستراتيجية تتبع الاستراتيجية التي قبلها في محاولة إظهار التوافق ونبذ الخلاف في المخاطبات، ولكنّ التركيز في هذه الاستراتيجية على أن يقوم المتكلّم بإظهار التوافق الظاهري غير الحقيقي من خلال بعض الأساليب التي تجعل المتكلّم متوافقًا بصورة ظاهرية مع المخاطب، ويكون ذلك حتى في أشد الموضوعات الخلافية؛ فالمتكلّم لا يبتعد عن الموضوعات الخلافية، فيختار موضوعات أخرى لا تؤدي لحصول الخلاف، بل يخوض في موضوع خلافي يُظهر للمخاطب فيه أنّه يتوافق معه في بعض جوانبه، يقول براون ولفنسن: "إنّ الرغبة في التوافق أو الظهور بمظهر التوافق مع (مخ)^١ تؤدي أيضًا إلى آليات للتظاهر بالتوافق، أي حالات التوافق الظاهري"^٢.

ولإيضاح هذه الاستراتيجية نأتي بمثال افتراضي عليها، فعندما يسأل شخص آخر عن قوّته قائلاً: (ألا تراني قويًا؟) ويكون الآخر المسؤول لا يراه كذلك في الواقع ولكنّه مع ذلك يريد أن يعبر عن رأيه بأكثر صورة مؤدبة تجنبًا للخلاف معه، فإنّه قد يجيبه بـ(بلى)، تمتلك قوة كبيرة ولكنك تحتاج أن تتمرن أكثر)، بهذا الأسلوب استطاع الطرف الآخر أن يجيب بإجابة توحى لمخاطبه أنّه يوافقه مع أنّ الحاصل هو العكس، فبمثل هذا الأسلوب يمكن تطبيق هذه الاستراتيجية بالابتعاد عن مواطن الخلاف أو سترها وتخفيفها قدر الإمكان.

^١ اختصارًا لـ(المخاطب).

^٢ براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ٢٤١.

يمكن أن نرصد حصول هذه الاستراتيجية في خطاب الشكوى والعتاب من خلال التعبيرات التي يوردها أبو فراس موهماً مخاطبه بأنه يوافقه في آرائه حتى يتقرب منه ويصنع أرضية مشتركة معه في خصوص ذلك الموضوع، يمكننا التمثيل لهذا بقول أبي فراس مخاطباً سيف الدولة:

أُنَادِيكَ لَا أَنِّي أَخَافُ مِنَ الرَّدَى وَلَا أَرْتَجِي تَأْخِيرَ يَوْمٍ إِلَى غَدٍ

وَقَدْ حُطِّمَ الْخَطِيئُ وَإِخْتَرَمَ الْعِدَى وَقُلَّ حَدُّ الْمَشْرِفِيِّ الْمُهَنْدِ

وَلَكِنْ أَنْفُتُ الْمَوْتَ فِي دَارِ غُرْبَةٍ بِأَيْدِي النَّصَارَى الْغُلْفُ مِيتَةٌ أَكْمَدُ^١

في هذه الأبيات التي يخاطب بها أبو فراس سيف الدولة يحاول أن يبلغه بأنه لا يخشى الموت ولا يرجو الحياة ولا يطلبها، ولكن بعد التمعّن في خطاب أبي فراس يتضح أن هذا المعنى غير صحيح؛ فأبو فراس قد جاء بخطابه كله لطلب النجدة والخلاص من الأسر بواسطة أبي فراس، وهذا يعني أنه قد يكون خائفاً من الموت، وهذا ما صرّح به في البيت الثالث حين قال (ولكن أنفت الموت في دار غربة)، فقد كان عدم الخوف مطلقاً في العبارة الأولى، ثم قيّده في البيت الثالث، فلو أردنا إعادة تركيب كلامه يصبح (أُنَادِيكَ لَا أَنِّي أَخَافُ مِنَ الرَّدَى وَلَكِنْ أَنْفُتُ الْمَوْتَ فِي دَارِ غُرْبَةٍ)، فهو إذاً لا يريد الموت لكنّه لا يصرح بذلك مباشرة؛ بل يظهر لمخاطبه أنه لا يخاف الموت ولا يرفضه ثم يعقب ذلك بأنه لا يريد الموت في الغربة، وهو في زمن صدور هذه الأبيات كان في الغربة، فالنتيجة النهائية لذلك أنه يخشى الموت، وهذا خلاف المعنى الذي أظهره في البيت الأول.

فاستعمال هذه الطريقة أدّى لأن يخفي أبو فراس رأيه الذي قد يخالف به رأي ونظرة سيف الدولة، فسيف الدولة قد يرى -كما هو سائد- أنّ الرجل المجاهد والمقاتل عليه أن يصبر على الظروف الصعبة وألاّ يخشى الموت، وأمّا أبو فراس فيريد الخلاص من الموت، ولكنّه لا يريد أن يخالف هذه النظرة السائدة التي قد يحملها سيف الدولة عن أبي فراس كونه ذلك الرجل المقاتل، فلجأ إلى إظهار عدم خوفه من الموت ظاهرياً، وإبداء كونه غير راغب في تحقيقه بصورة مخفية أو غير مباشرة؛ هذا الأمر قد ساهم في الحفاظ على الأرضية المشتركة التي يسعى أبو فراس للاعتماد عليها في الخطاب؛ وبالتالي لا يكون لسيف الدولة حجة على أبي فراس في رفضه، وكذلك يكون طلب التحرير من الأسر

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٧٦.

أكثر مقبولة وأقل تهديدًا لوجه سيف الدولة، فهو غير صادر عن خوف أبي فراس من الموت كما هو ظاهر كلامه.

الاستراتيجية الخامسة: افتراض الأرضية المشتركة مسبقًا

تقوم هذه الاستراتيجية على تعزيز وتأكيد الأرضية المشتركة بين طرفي الخطاب من خلال استعمال الافتراض المسبق الذي يعرف بأنه "شيء يفترضه المتكلم يسبق التفوه بالكلام"^١، فالمتكلم "يفترض مسبقًا شيئًا ما عندما يفترض أنه مسلم تبادليًا"^٢. فالافتراض المسبق من أكثر الظواهر شيوعًا في التبادلات القولية بين المتكلمين، فهي وسيلة لتثبيت معلومة كونها حقيقة متفق عليها دون أن يصرح الطرف الآخر بذلك.

كمثال على الافتراض المسبق يمكن أن يستعمل المتكلم عبارات تفترض أن المخاطب يبحث عن سيارة جديدة دون معرفة بأن هذا الأمر حقيقي أم هو مجرد معلومة خاطئة افترضها المتكلم، وذلك قد يتحقق من خلال عبارة يعرض فيها سيارة للبيع على المخاطب فيقول: (هذه هي السيارة التي تبحث عنها)، فالمتكلم قد افترض أن المخاطب يبحث عن سيارة، وهذا الأمر مجرد افتراض يحتمل الصدق والكذب، ولكن المخاطب في كثير من الأحيان قد يتقبل هذا الافتراض من المتكلم لأنه جاء بهذه الصورة الخفية، خلافًا لحالة سؤال المتكلم المخاطب عن ذلك، مثل (هل تبحث عن سيارة جديدة؟)، فإن المخاطب قد يجيب بالنفي مباشرة إن لم يكن يبحث عن سيارة جديدة، لكنه في حالة الافتراض المسبق قد يتقبل ذلك الافتراض المسبق لكونه جاء بصورة خفية وغير مباشرة في كلام المتكلم. مثل هذا الأسلوب مستعمل بشكل كبير في الإعلانات التجارية والحملات الترويجية، كما نجده أيضًا في المحاورات اليومية بين أفراد المجتمع مع اختلافهم، فهذا الافتراض المسبق من شأنه أن يجعل المخاطب يتقبل مضمون ذلك الافتراض ويعمل بما يلائمه من دون التفات منه.

يمكن استعمال تقنية الافتراض المسبق تأديبيًا من خلال افتراض الأرضية المشتركة بين المتخاطبين، فيقوم المتكلم بإنشاء هذا الافتراض المسبق في كلامه؛ مما يؤدي لتحقيق أرضية مشتركة مفترضة بين المتكلم والمخاطب، هذه الأرضية المفترضة تعزز التقارب والتقبل بين الطرفين، وهذا ما

^١ يول: التداولية، ص ٥١.

^٢ براون ولفنسن: نظرية التأديب، ص ٣٥٦.

عمد أبو فراس إليه في خطاب الشكوى والعتاب، فقد افترض أموراً بينه وبين مخاطبه سيف الدولة، هذه الأمور التي يفترضها تصب بالطبع في صالح أبي فراس؛ فهي داعمة لموقفه أمام سيف الدولة، وذلك مثل قوله:

أَيِّنَ الْمَحَبَّةِ وَالذِّمِّ مُ وَمَا وَعَدْتَ مِنَ الْجَمِيلِ
أَجْمِلْ عَلَى النَّفْسِ الْكَرِيمِ مَمَّةً فِي الْقَلْبِ الْحَمُولِ
أَمَّا الْمُحِبُّ فَلَيْسَ يُصَدِّ غِي فِي هَوَاهُ إِلَى عَذُولِ
يَمْضِي بِحَالٍ وَفَائِهِ وَيَصُدُّ عَنْ قَالٍ وَقِيلِ^١

عندما يسأل أبو فراس عن المحبة التي يحملها مخاطبه سيف الدولة له وعن الذمام الذي بينهما وعن الوعد الذي وعده سيف الدولة له، فهو يفترض مسبقاً أنَّ هذه الأمور قد تحققت بينهما، فهذه الأمور يفترضها أبو فراس لمخاطبه لكي يحقق الأرضية المشتركة التي تؤدي لتوافق الطرفين؛ فالمحبة التي في قلب سيف الدولة عندما يفترضها أبو فراس تكون مدعاة للتعاون والتضامن بين الطرفين، كما أنَّ العهد والوعد الذي افترض أبو فراس أنَّ سيف الدولة قد أصدره وألزم نفسه به هو وعد يصب في صالح العلاقة الإيجابية بين الطرفين؛ لكونه وعداً بالجميل. وكذلك في الأبيات الأخرى يؤكد أبو فراس على افتراض المحبة في مخاطبه بوصفه بالمحب. وكل تلك الافتراضات المسبقة تساهم في بناء أرضية مشتركة تعتمد على العلاقة المقتضية لهذه الصفات والأفعال التي يفترض أبو فراس نسبتها لمخاطبه سيف الدولة.

٢ - استراتيجيات التعاون

هذه الفئة من استراتيجيات التأدب الإيجابي تعتمد على إبراز طابع التعاون بين المتكلم والمخاطب، وتظهر أنهما يقومان بمراعاة بعضهما بعضاً بعملية تعاونية في فعالية التخاطب^٢، ويتم إظهار هذا التعاون من خلال بيان المتكلم لمعرفته بالمخاطب ورغباته ومسايرته لها^٣. وهذا الأمر يؤدي في نهاية المطاف

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣٢٣.

^٢ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ٢٦٠.

^٣ انظر المصدر نفسه، ص ٢٦٠.

إلى إشاعة فكرة التعاون في الخطاب؛ وبالتالي يزيد من التأدّب الإيجابي في الخطاب، يقول براون ولفنسن: "إذا كان (م) ^١ و(مخ) ^٢ متعاونين، فهما إذن يشتركان في الأهداف في مجال ما؛ وبالتالي فإنّ التعبير عن تعاونهما يمكن أن يفيد في تعويض رغبات الوجه الإيجابي لـ(مخ) ^٣".

يكون استعمال استراتيجيات التعاون في خطاب الشكوى والعتاب بعدة صور، كإبراز حالة المخاطب ورغباته كمعطى من معطيات مضمون الخطاب، أو كمحاولة تلبية رغبات وجه المخاطب وإعطائها الأولوية ومراعاتها في الخطاب، والتصريح بحالة التعاون بين الطرفين في الخطاب تسهم في تخفيف الوقع السلبي لطلب أبي فراس الفكّك من الأسر.

الاستراتيجية السادسة: تقديم العروض

إنّ تقديم العروض والوعود للمخاطب هو من المقولات التّعديّة التي يلتزم فيها المتكلم مسار فعل معيّن ^٤، وهو كذلك من أهم استراتيجيات التأدّب الإيجابي، فالعروض والوعود توحى للمخاطب أنّ المتكلم عارف بما يريد ومستعد لتحقيق رغبات المخاطب ^٥، فهو أسلوب ينم عن وجود تفاهم وتعاون بين طرفي الخطاب؛ لأنّ كلّاً من المتكلم والمخاطب يفهم ما يريده الآخر ويتفاعل معه. وتكون هذه العروض محققة لرغبات وجه المخاطب الإيجابي؛ وبالتالي قد تصلح للتعويض عن حدوث التهديد للوجه الإيجابي للمخاطب إن وقع، وكذلك تعزز تحقيق رغباته.

قد تجلّى حضور هذه الاستراتيجية في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس في وعوده التي يعدها لسيف الدولة بأنّه سيبقى معه ولن يرغب عنه، فهذه الوعود والعروض التي يقدمها لسيف الدولة تسهم في إشاعة جو التعاون بين الطرفين؛ فالمتكلم يقدم هذه الوعود والعروض كونه عارفاً بما يريد ويرغب مخاطبه، وذلك يبيّن مدى معرفة المتكلم برغبات مخاطبه، بل ويعطي للمتكلم دور الملبّي والمحقّق

^١ اختصاراً لـ(المتكلم).

^٢ اختصاراً لـ(المخاطب).

^٣ براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ٢٦٠.

^٤ انظر أوستن، جون لانغشو: الفعل بالكلمات، تحقيق: جابمس أوبي أورمن ومارينا سيبسا، ترجمة: طلال وهبه، ط١، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، ٢٠١٩م، ص ٢٠٤.

^٥ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ٢٦٠.

لرغبات المخاطب. فإنّ هذا التعاون الذي تشير إليه هذه الوعود التي يطلقها أبو فراس من شأنهما أن تخفف من الأفعال المهددة للوجه التي تصدر في بقية خطابه، وذلك كالوعد الذي يقدمه في هذا البيت:

فَلَا تَخْشَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْقَرَمَ أَنْتَنِي سِوَاكَ إِلَى خَلْقٍ مِّنَ النَّاسِ رَاغِبٌ^١

هذا البيت يرد في قصيدة من أطول قصائد الشكوى والعتاب، هذه القصيدة التي تحتوي على الكثير من الأفعال المهددة للوجه الإيجابي للمخاطب، يقوم المتكلم فيها بمحاولة تخفيف هذا التهديد وتعويضه من خلال عرض هذا الالتزام أو الوعد على مخاطبه سيف الدولة، فهو يعده ألا يلجأ إلى غيره تحت أي ظرف. هذا العرض يسهم في تقوية التأدب الإيجابي في القصيدة، ويوحى بأنّ أبا فراس مدرك لخوف سيف الدولة من أن يكون وقوعه في الأسر وعدم المبادرة من سيف الدولة لنجدته قد غير مشاعر أبي فراس تجاهه، فيجعله ذلك يلجأ لغيره. لكنّ هذا البيت قد نفى وقوع هذا الأمر الذي لا يرغب فيه سيف الدولة وأثبت نقيضه الذي يرغب فيه.

كما يقدّم أبو فراس عرضاً آخر أكثر وضوحاً في قصيدة أخرى، فيقول:

فَإِنْ تَقْتَدُونِي تَقْتَدُوا شَرَفَ الْعُلَا وَأَسْرَعَ عَوَادٍ إِلَيْهَا مُعَوِّدٍ

وَإِنْ تَقْتَدُونِي تَقْتَدُوا لِعُلَاكُمْ فَتَى غَيْرَ مَرْدُودِ اللِّسَانِ أَوْ الْيَدِ

يُدَافِعُ عَن أَعْرَاضِكُمْ بِلِسَانِهِ وَيَضْرِبُ عَنْكُمْ بِالْحُسَامِ الْمُهَنْدِ^٢

هذا العرض مفاده أنّ سيف الدولة إن قام بتحرير أبي فراس من أسره بواسطة الفداء فسيقوم أبو فراس في المقابل بالدفاع عنه بلسانه وسيفه، فيريد أبو فراس أن يعرف قيمته أمام مخاطبه سيف الدولة حتى لا يبخسه ويهمله دون تحريره، ولكن لهذا العرض قيمته من جهة التأدب، فهو يشير إلى معرفة أبي فراس بحاجة سيف الدولة التي يمكن أن يساعده في تحقيقها، وذلك ما سيحقق التعاون بين الطرفين بتحقيق المتكلم لرغبات وجه المخاطب. وإنّ هذه الأبيات تعدّ عرضاً يقوم بدور إظهار معرفة المتكلم برغبات المخاطب، ثم التعاون بينهما لتحقيق هذه الرغبات. وكما في البيت السابق فهي تشير لحقيقة الوفاء لسيف الدولة رغم ما حصل له من وقوعه في الأسر وإبطاء سيف الدولة في تحريره، وذلك أنّ

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣٢.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٧٧.

الأسر لم يغير في حقيقة أن يكون أبو فراس وفياً لسيف الدولة ومسارعاً لتحقيق رغباته؛ فكل ذلك يخدم تحقيق التأدب الإيجابي في الخطاب.

الاستراتيجية السابعة: التفاؤل

تعد استراتيجية التفاؤل من الاستراتيجيات التعاونية لتحقيق التأدب الإيجابي، تقوم هذه الاستراتيجية على أن يفترض المتكلم أن المخاطب يرغب في ذات رغباته، وهذا يعني أن يتفاءل المتكلم بقيام المخاطب بتحقيق رغباته^١؛ حيث يتكلم بصورة تدل على أن المخاطب سيقوم بهذه الأفعال التي يرغب بها المتكلم، وأنه حريص على تحقيق رغبات المتكلم، فهذه الافتراضات التي يأتي بها المتكلم قد تجعل هذه الرغبات التي يريد المتكلم من المخاطب فعلها أكثر تأدباً وأقل تهديداً لوجه المخاطب، حيث لا توجه هذه الرغبات للمخاطب كطلبات، وإنما يتم افتراض أن المخاطب يريد لها أيضاً؛ فلا يحتاج المتكلم حينئذٍ لصياغتها كطلبات يطلبها المتكلم من المخاطب؛ لأن المخاطب هو من يرغب بها.

بالنظر إلى خطاب أبي فراس يمكن ملاحظة حضور هذه الاستراتيجية ضمن الاستراتيجيات التي ينفذها أبو فراس لتحقيق غرضه من خطاب الشكوى والعتاب، فهو يريد من مخاطبه سيف الدولة أن يحرره من أسره، فيقوم بجعل هذا الطلب منسوباً للمخاطب بغية حمله على تلبية؛ وهذا الأمر يخفف من تهديد الطلب ويعوّضه، وهذا في مثل قوله:

لَكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ المَوْلى الَّذِي لَمْ أَنْسَهُ وَأَرَاهُ لَا يَنْسَانِي
أَيُضِيعُنِي مَنْ لَمْ يَزَلْ لِي حَافِظًا كَرَمًا وَيَخْفِضُنِي الَّذِي أَعْلَانِي^٢

وكذلك قوله:

وَتَأْبَى وَأَبَى أَنْ أَمُوتَ مُوسِّدًا بِأَيْدِي النَّصَارَى مَوْتٌ أَكْمَدُ أَكْبَدِ^٣

يتفاءل أبو فراس بأن سيف الدولة لن ينساه في الأسر، ويستعمل الاستهزام الإنكاري بالهمزة الذي يفيد النفي المؤكّد ليبين أن سيف الدولة لن يضيعه ولن ينزل من مكانته بإبقائه في الأسر. هذا المعنى

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ٢٦١.

^٢ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٤٠٧.

^٣ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٨١.

يظهر كيف يحوّل أبو فراس طلباته التي يريد من سيف الدولة تحقيقها إلى صفات ينسبها مباشرة له؛ حيث يقتضي ذلك أن يكون سيف الدولة راغباً في تحرير أبي فراس من أسرهِ، فهو لم ينسَ قط، وإنما هو راغب في تحريره وخلاصه من كربته.

يعطي هذا الأسلوب الطلبات والرغبات التي يرغب بها أبو فراس طابعاً غير مهدد لوجه المخاطب سيف الدولة؛ ذلك أنّ هذه الرغبات مشتركة بين أبي فراس وسيف الدولة، وإنّما قد يذكرها أبو فراس من باب التبيين والتذكير لا أكثر؛ فأبو فراس أظهر بأنّ سيف الدولة لم ولن ينساه، فذكر هذه الأمور ما هو إلاّ تثبيت وتذكير بعمق هذه العلاقة والتشارك في الرغبات بين الطرفين في ظاهرها، أمّا في حقيقتها وباطنها فهي طلبات تمت صياغتها بصورة خبرية تدل على التفاضل بتحقيقها حتى تكون أكثر تأدّباً.

الاستراتيجية الثامنة: التعليل

إنّ من أبرز وسائل تخفيف وتعويض الفعل المهدد للوجه هو تعليل وتبرير وقوع ذلك الفعل المهدد للوجه، فإنّ استراتيجية التعليل تعد من أنجح الاستراتيجيات وأبسطها وأكثرها موافقة لبديهة الإنسان؛ فعندما يرغب المتكلّم في تعويض الفعل المهدد للوجه الذي أتى أو سيأتي به يقوم ببيان الأسباب التي دفعت لأن يقوم المتكلّم بالإتيان به. فهذه الأسباب -إن كانت عقلانية- تؤدي لتبرير الفعل المهدد للوجه وجعله عقلانياً ومسوّغاً بنظر المخاطب^١؛ وبالتالي يؤدي ذلك لفهم صدور مثل هذا الفعل المهدد للوجه ومحو أثره السلبي على وجه المخاطب؛ ذلك أنّ التبريرات المقنعة للمخاطب تجعله متعاوناً مع المتكلّم في أساليب الخطاب، فتتوحد لديهما الرغبات التي يعتقد كلّ طرف بعقلانيّتها.

وبالنظر للأفعال المهددة لوجه سيف الدولة في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس لا يخفى أنّ أسلوب التعليل والتبرير كان من أبرز الاستراتيجيات التي حاول بها أبو فراس أن يعوّض تلك التهديدات لوجه سيف الدولة؛ فالتهديدات التي وردت في هذا الخطاب كان غرضها الأساس إثارة سيف الدولة ودفعه للمبادرة بتحرير أبي فراس من الأسر؛ لذلك يقوم أبو فراس بتبيين هذا الغرض وفائدة تحقيقه وأهميته، فهذا من شأنه أن يضع سيف الدولة أمام هذا الطلب المبرر الذي له أسبابه التي تدعو لتحقيقه

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ٢٦٤.

وتتفيذه؛ وبالتالي تكون تلك الأفعال المهددة لوجه سيف الدولة مبررة، فتفقد تأثيرها على وجه سيف الدولة أو تخففه. ويمكن أن نمثل لذلك بقوله:

وَمَا الْأَسْرُ مِمَّا ضِيقَتْ ذَرْعًا بِحِمْلِهِ وَمَا الْخَطْبُ مِمَّا أَنْ أَقُولَ لَهُ قَدِي
وَمَا زَلَّ عَنِّي أَنَّ شَخْصًا مُعَرَّضًا لِنَبْلِ الْعَدَى إِنْ لَمْ يُصَبْ فَكَأَنَّ قَدْ
وَلَكِنِّي أَخْتَارُ مَوْتَ بَنِي أَبِي عَلَى صَهَوَاتِ الْخَيْلِ غَيْرِ مُؤَسَّدٍ^١

يحاول أبو فراس في هذه الأبيات أن يبرر طلبه من سيف الدولة أن يحرره من أسره، وهذا التبرير يتركز على أنه لا يرغب في الموت في السجن، وإنما يريد أن تكون موته بنفس طريقة موت أبطال قبيلته وإخوانه الذي ماتوا في ساحات القتال على صهوات خيولهم؛ فالشاعر هنا يبرر طلبه بهذا السبب حتى يجعل الأمر منطقيًا لدى سيف الدولة؛ فلا يكون طلبه هذا ناشئًا عن الجبن والخوف الذي قد يدفع سيف الدولة لعدم تقبل الطلب وتلبية. هنا تكمن أهمية استعمال هذا الأسلوب في عقلنة الطلب المهدد للوجه ليكون تهديده أقل.

وفي بيتين آخرين يذكر أبو فراس أسبابًا أخرى تدفعه لطلب الفكاك من الأسر من سيف الدولة، وهذه الأسباب تتوافق مع الأبيات السابقة، يقول:

إِنِّي أَغَارُ عَلَى مَكَانِي أَنْ أَرَى فِيهِ رِجَالًا لَا تَسُدُّ مَكَانِي
أَوْ أَنْ تَكُونَ وَقِيعَةً أَوْ غَارَةً مَالِي بِهَا أَثَرٌ مَعَ الْفَتَيَانِ^٢

حيث يوضح أبو فراس غيرته من غيره الذين يقربهم سيف الدولة منه ويضعهم بموضع أبي فراس ولكنهم لا يليقون بهذا الموضع الذي وضعهم فيه، فإنَّ أبا فراس يرى أنَّ هذا المكان الذي كان يحتله عند سيف الدولة يجب ألا يأخذه غيره. أمَّا السبب الآخر فهو رفض أبي فراس وتحسره لعدم مشاركته مع الرجال المقاتلين في الحروب والمعارك الجارية؛ فهو متلهف لخوض المعارك مع رجال الحرب الذين تعود أن يقاتل معهم. كلَّ هذه الأمور تدفع أبا فراس لأن يعبر عن هذه الرغبات الملحة بشكل أفعال قد تهدد وجه المخاطب في خطاب الشكوى والعتاب، ويريد من سيف الدولة أن يتقبل هذا الخطاب

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٥٧.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٤٠٧.

لوجود هذه الأسباب والتبريرات التي ذكرها. وقد ذكر أبو فراس تبريرات في مواضع أخرى من خطابه لا يتسع المقام لذكرها.

الاستراتيجية التاسعة: افتراض التبادلية

من أبرز الأساليب التي يستطيع بها المتكلم أن يعوّض عن تهديد شكواه أو طلبه لوجه المخاطب الإيجابي هو أسلوب افتراض وجود حقوق وواجبات متبادلة بين المتكلم والمخاطب^١، فالتكلم يحاول أن يظهر للمخاطب أنّ هناك حقوقاً وواجباتٍ لصالح المخاطب قد أداها المتكلم له، وبالمقابل فهناك حقوقٌ وواجباتٌ أخرى للمتكلم على المخاطب يجب أن يؤديها له كما فعل المتكلم. وهذا الأسلوب ينتج عنه تقليل التهديد الذي يصدر جرّاء الفعل المهدد للوجه الإيجابي؛ حيث يجعل هذا الأسلوب المخاطب في وضعية المدين للمتكلم باستجابة الفعل المهدد لوجهه وتقبله، كون هذا الفعل قد صدر من المتكلم مقابل أمور أخرى قد أداها هذا المتكلم لصالح المخاطب.

إنّ هذه الاستراتيجية مستعملة في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس بصورة كبيرة، فأبو فراس دائماً ما يذكر سيف الدولة بالخدمات التي قد قدمها له، بل ويعبر بصورة صريحة أحياناً عن هذه التبادلية التي يراها بينه وبين مخاطبه سيف الدولة، فقد قال:

أَمِنْ بَعْدِ بَذْلِ النَّفْسِ فِيمَا تُرِيدُهُ أَثَابُ بِمَرِّ الْعَتَبِ حِينَ أَثَابُ^٢

وقال في موضع آخر:

أَلَمْ تَرَ أَنِّي فِيكَ صَافَحْتُ حَدَّهَا وَفِيكَ شَرِبْتُ الْمَوْتُ غَيْرَ مُصَرَّدٍ^٣

يؤكد أبو فراس هذه التبادلية في هذين البيتين من خلال الاستفهام الإنكاري، فهو قد بذل نفسه من أجل مخاطبه سيف الدولة ولتحقيق رغباته، فلا يجدر بسيف الدولة أن يقوم بمعاملة أبي فراس وتكريعه، بل لا يجدر به إلا أن يعامل أبا فراس بمعاملة تليق بما قدّمه أبو فراس له، وذلك لا يتم إلا بالمبادرة بتحريره من الأسر. فتأثير هذه التبادلية التي يعبر عنها هذان البيتان يعوّض عن التهديد الشديد للوجه

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ٢٦٦.

^٢ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٣.

^٣ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٧٧.

الذي ينشأ من خلال أسلوب الشكوى والعتاب الذي يطغى على هذين البيتين، بل والقصيدتين بأكملهما؛ وبالتالي يمكن أن يؤدي تأكيد هذا المعنى في زيادة مقدار التأدب الإيجابي في الخطاب.

٣- استراتيجيات تنفيذ رغبات المخاطب

هناك فئة أخيرة من استراتيجيات التأدب الإيجابي تقوم على إرضاء المخاطب بصورة مباشرة بتلبية رغباته، وهذه الفئة تحتوي على استراتيجية واحدة فقط يمكن تطبيقها لتعويض التهديد للوجه الإيجابي ولتحقيق التأدب الإيجابي في الخطاب بهذا الأسلوب.

الاستراتيجية العاشرة: منح الهدايا

هذه الاستراتيجية البسيطة تقوم على أن يرضي المتكلم رغبات وجه المخاطب الإيجابي من خلال إرضاء الرغبات الفعلية للمخاطب، فللمخاطب رغبات إن قام المتكلم بإشباعها في الخطاب سيكون لذلك أثر كبير في تأدب ذلك الخطاب. ويدخل ضمن هذه الاستراتيجية منح الهدايا المادية، كأن يقوم المتكلم بإهداء بعض الهدايا الثمينة التي تجعل المخاطب راضياً، ولكن الصورة الأبرز والأهم لهذه الاستراتيجية هي منح الهدايا المعنوية التي تترجم كإظهار المشاعر الإيجابية تجاه الطرف الآخر ومدحه وإطرائه وتشجيعه بالكلام؛ كل ذلك يقوم بدور تحقيق رغبات المخاطب، ويعزز بذلك التأدب الإيجابي، ويعوّض أيّ فعل مهدد للوجه قد ورد في الخطاب^١.

منح هذه الهدايا المعنوية يتحقق في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس من خلال إرضاء مخاطبه سيف الدولة، ويكون ذلك من خلال إشباع رغباته كملك، فالملك له رغباته الخاصة التي ينبغي مراعاتها عند مخاطبته^٢، والتي من أهمها أن يمدح المتكلم الملك ويثني عليه ويعظمه بعبارات الإجلال والتعظيم والموّدة. فهذا هو الأسلوب الأنسب لمخاطبة سيف الدولة؛ لذلك نجد أنّ أبا فراس قد أكثر منه في ثنايا خطابه الذي خاطب به سيف الدولة؛ مما ساهم بالتزام خطابه بمقدار جيد من التأدب الإيجابي. قال في بعض قصائده:

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ٢٦٧.

^٢ راجع المبحث الأول من الفصل الأول.

بَقِيَتْ إِبْنُ عَبْدِ اللَّهِ تُحْمَى مِنَ الرَّدَى وَيَقْدِيكَ مِنَّا سَيِّدٌ بَعْدَ سَيِّدٍ

بِعِيشَةٍ مَسْعُودٍ وَأَيَّامٍ سَالِمٍ وَنِعْمَةٍ مَغْبُوطٍ وَحَالٍ مُحَسَّدٍ

وَلَا يَحْرَمَنِي اللَّهُ قُرْبَكَ إِنَّهُ مُرَادِي مِنَ الدُّنْيَا وَحَظِّي وَسُودْدِي^١

وقال أيضًا:

إِذَا كَانَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْمَلِكُ كَافِلِي فَلَا الْحَزْمُ مَغْلُوبٌ وَلَا الْخَصْمُ غَالِبٌ

إِذَا اللَّهُ لَمْ يَحْزُزْكَ مِمَّا تَخَافُهُ فَلَا الدُّرْعُ مَنَاعٌ وَلَا السَّيْفُ قَاضِبٌ

وَلَا سَابِقٌ مِمَّا تَخَيَّلْتَ سَابِقٌ وَلَا صَاحِبٌ مِمَّا تَخَيَّرْتَ صَاحِبٌ

عَلَيَّ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْقَرَمِ أَنْعَمَ أَوَانِسُ لَمْ يَنْفِرَنَّ عَنِّي رَبَائِبُ

أَأَجِدُهُ إِحْسَانُهُ فِيَّ إِنَّنِي لَكَافِرٌ نُعْمَى إِنْ فَعَلْتُ مُوَارِبُ^٢

كل هذه تعد من عبارات الثناء والمودة والاعتراف بأفضال سيف الدولة على أبي فراس، ولا يخفى ما لهذه العبارات من أثر في تلطيف الخطاب تجاه المخاطب، بل وتعويض تهديدات الوجه التي وردت في هذه القصائد التي تنتمي لخطاب الشكوى والعتاب؛ فإنّ هذا المدح والتودد يوازن بين التهديد للوجه وإشباع رغباته، وهذا يجعل هذا الخطاب يراوح بين التأدّب واللا تأدّب. ولكن للطبيعة الخاصة لأساليب واستراتيجيات التأدّب الإيجابي التي استعملها أبو فراس يمكن أن ترجّح كفة التأدّب في الخطاب على اللا تأدّب بالنظر إلى القدرة التعويضية لهذه الاستراتيجيات المستعملة.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٧٧.

^٢ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٦٧.

المبحث الثاني: استراتيجيات التأدب السلبي في خطاب الشكوى والعتاب

إنَّ استراتيجيات التأدب السلبي هي الاستراتيجيات التي تتعلق بالوجه السلبي للمخاطب؛ فتقوم هذه الاستراتيجيات على منع وتقليل وتعويض التهديد الموجّه للوجه السلبي للمخاطب، فقد عرّف براون ولفنسن التأدب السلبي بأبسط تعريف حين قالاً: "التأدب السلبي هو فعل تعويضي موجّه إلى وجه المخاطب السلبي"^١، وكما هو معلوم إنَّ وجه المخاطب السلبي يتعلّق بـ"رغبته في أن لا يعوّق أحدٌ حريته في التصرف أو يشتت انتباهه"^٢، فإنَّ الإنسان بطبعه يكره التقييد ويميل للتحرر، فعندما يقوم الطرف الآخر بتقييده وإكراهه يعدّ ذلك انتهاكاً له ولوجهه السلبي.

فالاستراتيجيات المتعلقة بالتأدب السلبي تقوم على إفساح الحرية للمخاطب بأن يتخذ الخيارات التي يراها مناسبة دون إكراه أو إجبار، فيختار المتكلّم الأساليب والصيغ المناسبة التي لا تولّد قيوداً على المخاطب، حيث لا تجبره أو تكرهه على فعل أو ترك فعل. وقد ارتبط هذا التأدب السلبي بمصطلح (الحرم) الذي يتعلق بالمساحة الخاصة بالفرد والتي لا يحق للآخر تجاوزها أو اختراقها^٣؛ ولذلك يعدّ إجبار المخاطب على أمر ما تجاوزاً لهذا الحرم الخاص به، ومن هنا حضرت أهمية استعمال استراتيجيات التأدب السلبي التي تصون هذا الحرم من التجاوز عليه.

على النقيض من استراتيجيات التأدب الإيجابي تعمل استراتيجيات التأدب السلبي على وضع حدود بين المتكلّم والمخاطب^٤؛ حيث تعمل هذه الاستراتيجيات على حفظ المسافة الاجتماعية بين الطرفين وليس تقليلها كما في استراتيجيات التأدب الإيجابي؛ ونتيجة لهذا تكون رغبات الوجه السلبي للمخاطب محفوظة ومحقة في الخطاب، ويتم مراعاتها بشكل خاص من قبل منتج ذلك الخطاب. فالأفعال المهددة للوجه التي يمكن أن تصدر في الخطاب يقوم المتكلّم بإضعاف تأثيرها أو تعويضه من خلال بعض الاستراتيجيات التي تمنح المتكلّم أدوات لتغيير الأسلوب والطريقة التي يؤدي بها عبارات خطابه التي تحتوي على الأفعال المهددة للوجه السلبي للمخاطب.

^١ براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ٢٦٧.

^٢ المصدر نفسه، ص ٢٦٧.

^٣ انظر المصدر نفسه، ص ٦٥.

^٤ انظر المصدر نفسه، ص ٢٦٧.

يذكر براون ولفنسن عشرَ استراتيجيات للتأدب السلبي في كتابهما^١، هذه الاستراتيجيات مقسمة إلى خمس فئات، وبين هذه الفئات نوع من التداخل، وكل فئة تسيّر استراتيجياتها بطريق معيّن خاص بها لتحقيق التأدب السلبي، ولكنّ بعض هذه الاستراتيجيات قد تعتمد أكثر من طريق، وهذا ما قد يدعو لتصنيفها ضمن أكثر من فئة واحدة، إلّا أنّ المعتمد عند تصنيفها هو الطريق السائد في تلك الاستراتيجيات. وكما كان في استراتيجيات التأدب الإيجابي ربما تحتوي بعض فئات التأدب السلبي هذه على استراتيجية واحدة فقط خاصة بها؛ لذلك اعتمد في هذا البحث اختصار هذه الفئات الخمس في ثلاثٍ فقط، بناءً على التداخل الحاصل بين هذه الاستراتيجيات وإمكان تصنيفها وفق أكثر من فئة. وخطاب الشكوى والعتاب قد احتوى على بعض تلك الاستراتيجيات لا كلّها؛ لأنّ بعض الاستراتيجيات التي يذكرها براون ولفنسن لا يتناسب تطبيقها إلّا في حالة التبادلات القولية المباشرة، وهذا ما لا ينطبق على شعر أبي فراس.

١ - استراتيجيات عدم الإجبار

أول الطرق لتقليل الإكراه والإلزام الناشئين من الفعل المهدد للوجه هو أن يأتي المتكلم بكلامه بصورة لا يجبر فيها المخاطب على الاستجابة الإيجابية^٢، حيث يطرح المتكلم الطلب مع إفصاح المجال للمخاطب لرفضه؛ لأن عدم ترك هذه الفسحة للمخاطب قد تؤدي لإزعاج المخاطب والضغط عليه. ويتحقق هذا الأمر باستعمال صيغ تعطي للمخاطب الخيار؛ فهذه الصيغ تعتمد على أساليب مختلفة تترك فيها للمخاطب الخيار، كجعل الكلام لا قطعية فيه للقصد مثلاً؛ وبالتالي يمتلك المخاطب مجالاً لرفض المعنى أو الطلب الصادر من المخاطب بناءً على أنّ الأسلوب المستعمل غير قطعي القصد كما في المثال.

وقد أورد براون ولفنسن في هذه الفئة عدة استراتيجيات، قد أفرد بعضها في فئات أخرى لوحدها، لكنّ المنهج الذي يسير عليه البحث يستلزم أن تدرج كل الاستراتيجيات التي تقوم على عدم الإجبار في هذه الفئة. وأخيراً علينا أن نعلم أنّ التأدب السلبي يمكن تحقيقه من خلال أساليب عدم إجبار

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ٢٦٧-٣٩٧.

^٢ انظر المصدر نفسه، ص ٣٣٤-٣٣٥.

المخاطب، وذلك من خلال صيغ قد تكون غير مباشرة لكنها ذات كفاءة تواصلية عالية، توصل المعنى المراد بأقل تهديد للوجه السلبي.

الاستراتيجية الأولى: اللا مباشرة العرفية

تقوم استراتيجية اللا مباشرة العرفية على استعمال الصيغ غير المباشرة التي تؤدي عرفياً إلى معانٍ قد تكون مهددة لوجه المخاطب السلبي، ولكنّ الميزة في هذه الصيغ أنّها تمنح المخاطب مساحة لعدم قبول ذلك المعنى والتجاوب معه؛ ذلك أنّ هذه الصيغ اللا مباشرة تمكّن المخاطب من تجاهل المعنى الذي قد يهدد وجهه السلبي، فينظر للعبارة باعتبار صيغتها الظاهرية لا معناها الذي تحمله؛ مما يمنح الحرية في التجاوب معها بأي طريقة شاء^١.

يمكن تطبيق هذه الاستراتيجية من خلال عدة طرق مختلفة، أبرزها استعمال صيغ الاستفهام للطلب، فعندما يريد المتكلم أن يطلب أمراً من المخاطب عليه أن يختار صيغةً تمكنه من الطلب دون إجبار مخاطبه على الامتثال له، وهذا يمكن تحقيقه بالاستفهام، فبدلاً من استعمال الطلب الصريح المباشر كـ(استمع إليّ)، يمكن استعمال صيغة استفهامية كـ(هل يمكنك أن تعريني سمعك قليلاً؟)^٢، صيغة الاستفهام هذه جعلت في الطلب نوعاً من الحرية للمخاطب؛ فيمكنه أن يتفاعل بالقبول أو الرفض؛ لأن الطلب قد ورد في صورة السؤال الذي يحتمل كلتا الإجابتين.

وهكذا هناك أساليب متعددة أخرى يقوم من خلالها المتكلم بإيراد كلامه أو طلبه بصورة غير مباشرة بحيث لا يكون المخاطب ملزماً بالاستجابة له^٣. وقد استعمل أبو فراس في خطاب الشكوى والعتاب هذه الأساليب غير المباشرة في الطلب؛ حتى يترك لسيف الدولة المجال ولا يقيد به هذا الطلب الذي يريده، والذي هو بطبيعة الحال الفكاك من الأسر. كما يستعمل هذا الأسلوب أيضاً في معاتبة سيف الدولة على عدم تحقيق مراده، وذلك كما في قوله:

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ٢٧٠-٢٧١.
^٢ هناك درجات متفاوتة لاستعمال الأفعال الكلامية غير المباشرة، وقد اكتفينا بذكر مثال واحد للتبسيط. لمزيد من التفصيل انظر المصدر نفسه، ص ٢٨٦-٢٨٧.
^٣ انظر المصدر نفسه، ص ٢٧٠-٢٨٦.

إلى كم ذا العقاب وليس جرمٌ وكم ذا الاعتذار وليس ذنبٌ^١

وكذلك في قوله:

أأضحوا على أسراهم بي عودًا وأنتم على أسراكم غير عودٍ^٢

وقوله:

تلك المودات كيف تهملها تلك المواعيد كيف تغفلها

تلك العقود التي عقدت لنا كيف وقد أحكمت تحللها

أرحامنا منك لم تقطعها ولم تزل دائبًا توصلها

أين المعالي التي عرفت بها تقولها دائميًا وتغفلها^٣

يستنكر أبو فراس في البيت الأول صد سيف الدولة عنه، وهنا هو يطلب منه أن يحرره ويترك هذا العقاب الذي يعاقبه به بلا جرم أو ذنب، ذلك العقاب المتمثل في إبقائه في أسر الأعداء دون فداء، فالبيت يأتي بصورة الاستفهام للإشارة لطلب أبي فراس للمبادرة إلى تحريره من الأسر، فهو قد استعمل صيغة غير مباشرة لإدلاء المعنى المراد المهديد لوجه سيف الدولة السلبي؛ ففي ظاهر العبارة هو يسأل عن مدة العقاب والاعتذار الذي يلزم أن يقدمه أبو فراس حتى يرضى عنه سيف الدولة ويقوم بتحريره من أسره، ولكن الفعل الكلامي الذي تؤديه العبارة يتمثل في العتاب وطلب الفكاك من الأسر بأسرع ما يمكن.

كذلك في البيت الثاني يحول أبو فراس طلبه من سيف الدولة وعتابه له إلى استفهام ومقارنة، هذا الاستفهام يقوم بدور الطلب والعتاب أيضًا؛ حيث يسأل أبو فراس عن تركه في الأسر وعدم تحريره بينما الأعداء لا يتركون أسراهم، وهذا الاستفهام يحمل مقارنة بين سيف الدولة وأعدائه، تكون الكفة فيها لصالح الأعداء، وهذا لدفع سيف الدولة للمبادرة لتحريره، ولكن لعدم إرادة التهديد لوجه سيف الدولة جرت صياغة هذه المقارنة بشكل الاستفهام، وذلك لتخفيف التهديد للوجه بصورة كبيرة، كما جرى إعطاء المجال للمخاطب للاختيار وتبرير ذلك الاختيار.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٨.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٧٦.

^٣ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٣٣٠.

أما الأبيات الخمسة المذكورة فقد تنوّعت أساليب الاستفهام فيها بشكل كبير؛ فقد استعمل أبو فراس فيها (كيف) و(لم) و(أين)، وهذه كلها من أساليب الاستفهام، لكنّها وفق نظرية الأفعال الكلامية تدل على غير الاستفهام الحقيقي، إنّما دلالتها الكلامية تشير إلى العتاب واللوم والطلب. وهذا الأسلوب هو الذي خفف شدة هذه الأفعال التي هي بطبيعتها مهددة لوجه المخاطب. كما أن هناك الكثير من الأفعال الكلامية غير المباشرة التي وردت في ذات القصيدة بهذا الأسلوب نفسه^١.

ولأنّ العتاب والطلب مهّدان قويّان للوجه السلبي، يكون استعمال الاستفهام هنا لجعلهما غير ظاهرين في ألفاظ وعبارات المتكلّم، إلّا أنّ المخاطب يفهم هذه المعاني لوجودها ضمن ما يفهمه المخاطب من السياق عن طريق الأفعال الكلامية التي استعملها المتكلّم؛ فيتمكن المخاطب من التعامل مع العتاب والطلب الواردين كأنهما لم يردا أصلاً؛ ذلك أن الذي أمامه هو استفهام قابل لعدة إجابات وليس طلباً أو عتاباً؛ وبالتالي له حرية الإجابة بما يريد، فإن أراد القبول فسيتعامل مع هذا الطلب بمقتضى معناه السياقي، وإن أراد الرفض فسيتعامل مع الطلب كاستفهام بمقتضى صورته اللفظية الظاهرة.

الاستراتيجية الثانية: الاحتراس

يعرّف الاحتراس hedge بأنه "أداة أو كلمة أو عبارة تعدّل درجة عضوية المحمول"^٢ أو "عبارة اسمية في مجموعة؛ فهي تصف تلك العضوية بأنها جزئية، أو صادقة في بعض الوجوه فقط، أو أنّها أكثر صدقاً وأكثر كمالاً مما كان متوقعاً"^٣، وببساطة يتعلق استعمال الاحتراس في سياق التأدّب السلبي بالألفاظ والكلمات التي يوردها المتكلّم في عبارته لتدل على درجة صدق هذه العبارة، وتأثير هذا الاحتراس هو أنّه يمنح المخاطب الحرية في تقييم صحة العبارة؛ ذلك أنّ المتكلّم باحتراسه قد أعطى تقييماً يدل على إمكانية خطأ العبارة، فهذا الاحتمال مهما جعله المتكلّم ضئيلاً باحتراسه إلّا أنّه يفتح باب خطأ أو كذب العبارة؛ مما يعطي المخاطب حرية أكبر في التعامل معها والبناء عليها.

^١ انظر أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣٢٩-٣٣٠.

^٢ براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ٢٩١.

^٣ المصدر نفسه، ص ٢٩١.

وهذا الأسلوب وإن كان أكثر تناسبًا واستعمالًا في المحاورات اليومية والعلمية، إلا أننا نجد في خطاب أبي فراس بعض تلك الاحتراسات المستعملة التي يمكن أن تدعم التأدب السلبي بالكيفية التي ذُكرت، من ذلك قوله:

أَرَى الْغِلَّ مِنْ تَحْتِ الْنِفَاقِ وَأَجْتَنِّي مِنْ الْعَسَلِ الْمَازِي سُمْ الْأَسَاوِدِ^١

وقوله:

أَرَانِي وَقَوْمِي فَرَقْنَا مَذَاهِبُ وَإِنْ جَمَعْنَا فِي الْأُصُولِ الْمَنَاسِبُ^٢

إن كلمة (أرى) التي لا يقصد بها المتكلم الرؤية البصرية يمكن أن تقوم بدور الاحتراس في هذين البيتين، فهي تعطي تقييماً للعبارتين المذكورتين بأنهما صادقتان بوجهة نظر المتكلم، فأبو فراس يرجح صحتها باستعمال هذه الكلمة، ولكن ترجيح الصدق لا يعني كونها حقيقة مطلقة لا تقبل الشك أو التكذيب، إنما للمخاطب أو المتلقي الخيار بالتصديق أو التكذيب.

الاستراتيجية الثالثة: التشاؤم

يعد التشاؤم بشأن قبول الطلب وتلبية من الأمور التي يمكن أن تخفف تهديد الوجه السلبي^٣؛ حيث يقوم هذا الأسلوب على أن يتشاءم المتكلم في قبول المخاطب لطلبه؛ وبالتالي يكون هذا التشاؤم قد خفف الإلزام والإجبار الحاصل عن طريق الطلب. هذا الأمر يتيح للمخاطب حرية أكبر في التجاوب مع الطلب؛ لأنه يرى صاحب الطلب غير متوقع لتحقيقه، فلا يجد أن هناك ضغوطاً تدفعه لتلبية هذا الطلب وتنفيذه من هذه الجهة.

كان أبو فراس شديد التفاؤل بقضاء حاجته وتحقيق مطلبه في كثير من أبياته، إلا أن ذلك لا يعني عدم استعمال أبي فراس للتشاؤم أحياناً؛ فقد ورد استعمال أبي فراس لهذه الاستراتيجية في خطاب الشكوى والعتاب؛ فهو يأتي أحياناً بأبيات وعبارات تدل على تشاؤمه من أن طلب تحريره من الأسر

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٨١.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٠.

^٣ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ٣٣٥.

لن يتم تحقيقه، وهذا التشاؤم يزيد كما اتضح من حرية مخاطبه سيف الدولة ويخفف الضغط عليه، وهذا كقوله بعد أن طلب تحريره:

إِنْ كُنْتُ لَمْ تَبْدِلِ الْفِدَاءَ لَهَا فَلَمْ أَزَلْ فِي رِضَاكَ أَبَدُهَا^١

وقوله:

وَمَا زِلْتُ أَرْضَى بِالْقَلِيلِ مَحَبَّةً لَدَيْكَ وَمَا دُونَ الْكَثِيرِ حِجَابُ

وَأَطْلُبُ إِبْقَاءَ عَلَى الْوُدِّ أَرْضُهُ وَذِكْرِي مُنَى فِي غَيْرِهَا وَطِلَابُ^٢

بعد أن انتهى أبو فراس من طلبه أراد أن يخفف تهديد ذلك الطلب لوجه سيف الدولة، فجاء بتلك الأبيات التي يفهم منها تراجع أبي فراس عن مطلبه إلى مطلب آخر أقل منه، وهو في واقع الأمر لم يتراجع، ولكن هذا المعنى الذي أورده يعطي دلالة على أنه يائس ومتشائم من أن يقوم سيف الدولة بتحريره، فطلب بدلاً من ذلك المحبة والمودة فقط دون الحرية، وهذا التنازل يدل على تشاؤم منه. يقوم هذا التشاؤم بتقليل الضغط الذي يمارسه الطلب السابق على المخاطب؛ ذلك أن أبا فراس قد بين أنه لا يتوقع أن يقوم سيف الدولة بتحريره، بل هو يطلب الود والمحبة فقط ويرضى بهما كما صرح، فلا يجد سيف الدولة حرجاً في رفض الطلب السابق إذا أبقى على المودة والمحبة مع أبي فراس.

الاستراتيجية الرابعة: الاحترام

يُقصد بالاحترام في هذه الاستراتيجية أمران، يقول براون ولفنسن: "هناك وجهان لتحقيق الاحترام: في أحدهما يذل (م) نفسه ويحط من قدره، وفي الآخر يرفع (م) قدر (مخ)^٤ (يعطيه وجهًا إيجابيًا من نوع خاص، أي، وجه يرضي رغبات (مخ) في أن يعامله بوصفه أعلى قدرًا). وفي الحالتين ما يتم توصيله هو أن منزلة (مخ) الاجتماعية أعلى من منزلة (م)^٥، وهذه الإشارة لعلو منزلة المخاطب على المتكلم تكون لها دلالتها وتأثيرها على الأفعال المهددة للوجه السلبي في الخطاب؛ حيث يضيف هذا

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣٣٠.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٢.

^٣ اختصارًا لـ (المتكلم).

^٤ اختصارًا لـ (المخاطب).

^٥ براون ولفنسن: نظرية التأذب، ص ٣٤٤.

الاحترام على الأفعال المهددة لوجه المخاطب السلبي طابعاً لا إجبارياً، فهذا الفعل المهدد يكون صادراً من الأقل مرتبة إلى الأعلى؛ وبالتالي لا سلطة للأقل مرتبة يمكن أن يمارسها من خلال هذه الأفعال المهددة للضغط على من هو أعلى منه أو إجباره.

هذه الفكرة البديهية يؤدي تطبيقها إلى صياغة سياق خاص للخطاب يمكن المتكلم من استعمال بعض الصيغ والعبارات المهددة للوجه السلبي للمخاطب بطبعها دون خوف من وقوع ذلك التهديد؛ حيث إن مثل هذه التهديدات تقوم بدورها عادة في سياقات لا يكون المتكلم قد صرح فيها بأنه أقل مرتبة من المخاطب؛ ولذلك فإنه بهذا الإجراء يقلل من فرص حدوث التهديد لوجه المخاطب السلبي أو اشتداده، حتى مع صدور تلك الأفعال المهددة للوجه السلبي للمخاطب، وهذا ما يسعى له من يريد أن يكسب خطابه سمة التأدب السلبي.

لقد احتوى خطاب الشكوى والعتاب على الكثير من عبارات الاحترام والتواضع وتبجيل الآخر؛ مما يدل أن هذه الاستراتيجية قد كانت استراتيجية أساسية عند أبي فراس، فقد اعتمد عليها بصورة كبيرة لكي يتيح المجال لنفسه بأن يأتي بما يريد من عبارات العتاب واللوم والشكوى والطلب دون وقوع تأثير سلبي كبير تجاه وجه المخاطب، فمن خصائص هذه الاستراتيجية أنها تمنح الطرفين معاً الحرية؛ فالمخاطب بعبارات الاحترام التي تدل على علو منزلته على المتكلم يتخفف عنه الإلزام، والمتكلم يجد نفسه بعد أن بين أن المخاطب أعلى منه أكثر حرية في استعمال الأساليب التي يريدها دون أن يكون لها تهديد لوجه مخاطبه. ويمكن لنا أن نمثل لذلك ببعض أبيات التبجيل، كقوله متحدثاً عن سيف الدولة:

لَمْ أَرَوْ مِنْهُ وَلَا شَفِيحَ ثُ بِطُولِ خِدْمَتِهِ غَلِيلِي

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ أَمَلِي مِنَ الدُّنْيَا وَسُولِي

وَلَيْنَ حَنَنْتُ إِلَى دُرَا هُ لَقَدْ حَنَنْتُ إِلَى وُصُولِ^١

وقوله:

وَفَضْلِي تَعَجُّزُ الْفُضْلَاءِ عَنْهُ لِأَنَّكَ أَصْلُهُ وَالْمَجْدُ تَرِبُ

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣٢٢.

فَدَتْ نَفْسِي الْأَمِيرَ كَأَنَّ حَظِّي وَقُرْبِي عِنْدَهُ مَا دَامَ قُرْبُ^١

بعد هذه الأبيات وأمثالها من أبيات الاحترام والتبجيل التي وردت في شعر أبي فراس لا يبقى إيجاب ولا إلزام لأي طلب أو عتاب ورد أو قد يرد في الخطاب؛ فكلّ هذه الأفعال المهددة للوجه السلبي لسيف الدولة تتحوّل إلى ما هو أشبه بوظيفة التوسّل والاستجداء، وهذه الأساليب لا إيجاب فيها للمخاطب؛ لذلك يتوسع أبو فراس في أساليب الشكوى والعتاب والمطالبة بالتحرر من الأسر في بعض هذه القصائد التي تنتمي لخطاب الشكوى والعتاب مستعيناً بهذه الاستراتيجية التي سمحت له بأن يزيد من جرعة الشكوى والعتاب والطلب دون الإخلال بالتأدّب السلبي.

٢- استراتيجيات عدم الرغبة بالتهديد

هذه الفئة من استراتيجيات التأدّب السلبي تقوم على إبراز رغبة المتكلّم في ألا يهدد وجه المخاطب في خطابه، وذلك لإرضاء رغبات وجهه السلبي. ويكون هذا بطريقتين أساسيتين: "الأولى هي الاعتذار بنحو مباشر عن الانتهاك... والطريقة الأخرى الأقل وضوحاً هي التوصيل غير المباشر للتقاعس من جانب المتكلّم عن فرض الأشياء على المخاطب. ويمكن القيام بذلك عن طريق فصل إمّا المتكلّم أو المخاطب أو كليهما عن الفعل المهدد للوجه"^٢.

الطريقة الثانية هي الأكثر شيوعاً في هذه الفئة من الاستراتيجيات، فإنّ المتكلّم الذي يريد الالتزام بالتأدّب السلبي يحاول دائماً أن يشير لعدم رغبته في حصول التهديد لوجه المخاطب من خلال ادّعاء أنّ ذلك الفعل المهدد للوجه لم يصدر برغبة منه، أو عن طريق تعميم هذا الفعل المهدد للوجه بحيث يكون غير موجّه للمخاطب بصورة خاصة؛ فهذه الأساليب تعمل على إبعاد المتكلّم أو المخاطب عن الانتساب لهذا الفعل المهدد للوجه؛ وبالتالي يقلل تهديده للوجه السلبي للمخاطب.

الاستراتيجية الخامسة: عدم الشخصية

إنّ الطريق الأقصر لفصل المتكلّم أو المخاطب عن الفعل المهدد للوجه هو ألا يقوم المتكلّم بالإشارة لهما أثناء تأدية الفعل المهدد للوجه، فعندما يريد المتكلّم أن يأتي بفعل ما قد يهدد وجهه

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٩.

^٢ بتصرف: براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ٣٥٧.

المخاطب به، عليه ألاّ يشخّص ذلك الفعل بنسبته لنفسه، أو بتوجيهه للمخاطب، فيجعل للفعل المهدد فاعلاً آخر غير المتكلّم نفسه، أو يجعل له مفعولاً افتراضياً آخر غير المخاطب^١.

وقد استعمل أبو فراس هذه الاستراتيجية بمهارة عالية في خطاب الشكوى والعتاب، فعادة ما يقوم بإخفاء المقصود بالفعل المهدد للوجه، مما أتاح له مجالاً أكبر لتجنبه التهديد الذي قد يقع لوجهه جرّاء ذلك الفعل المهدد. فمن أمثلة ذلك قوله:

أَفِي كُلِّ دَارٍ لِي صَدِيقٌ أَوْدُهُ إِذَا مَا نَفَرَقْنَا حَفِظْتُ وَضِيْعَا
أَقَمْتُ بِأَرْضِ الرُّومِ عَامِينَ لَا أَرَى مِنْ النَّاسِ مَحْزُونًا وَلَا مُتَصَنِّعَا
إِذَا خِفْتُ مِنْ أَخَوَالِي الرُّومِ خُطَّةً تَخَوَّفْتُ مِنْ أَعْمَامِي الْعَرَبِ أَرْبَعَا
وَإِنْ أَوْجَعْتَنِي مِنْ أَعَادِي شِمَةً لَقِيتُ مِنَ الْأَحْبَابِ أَدْهَى وَأَوْجَعَا^٢

الملاحظ أنّ أبا فراس قد أتى بعبارات الذم والعتاب هنا عامة بلا تشخيص، فقد نسب تضييع المودة والصداقة لكل صديق قابله، وهذا حكم عام لم يخصّه بمخاطبه في القصيدة سيف الدولة، كما أنّه يقول إنّ بقي في الأسر عامين ولم يحزن أو يتصنّع بالحزن عليه أحد من أهله وأصدقائه، فكذلك هذا الحكم عام المقصود منه خاص وهو سيف الدولة. وفي بقية الأبيات يبيّن خوفه من أعمامه وأهله من العرب أكثر من الروم الذين أسروه، ويصرّح بأنّ أوجاعه من أحبابه أقوى وأعظم مما لاقاه من الأعداء؛ كل هذه الأحكام هي أحكام عامة لم يخصصها أبو فراس بشخص محدد، بل جعلها في حق أصدقائه تارة، وفي حق أهمله وبني عمومته أخرى، وفي حق أحبابه ثالثة، إلّا أنّ القرائن تدل بصورة تكاد تكون قاطعة على أن المقصود بكل هذا هو سيف الدولة الذي يدخل ضمن كل هذه الفئات العامة المذكورة، وذلك لأنّه لم يبادر إلى تحرير أبي فراس وأهمله في أسره.

هذا الأسلوب يقلل من تأثير هذا العتاب على وجهي سيف الدولة الإيجابي والسلبي معاً، فهو يمنحه حرية واستقلالية أكبر كون هذا العتاب لم يصرّح فيه بأنّه هو المقصود به عيئاً، وهذا ما يسمح للمخاطب بإمكانية تجاهل هذا التهديد وكأن لم يكن مع علمه بأنّه المقصود. كما وهناك أسلوب آخر

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ٣٦٢.

^٢ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٤٦.

يستعمله أبو فراس أيضًا يقوم على عدم نسبة الفعل المهدد للوجه له، بل جعل صدوره لأسباب ومقتضيات أخرى لا علاقة مباشرة له بها، وهذا كقوله:

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَدَّ قَدِيمٌ نَعْدُهُ وَلَا نَسَبَ بَيْنَ الرِّجَالِ قُرَابُ

فَأَحَوطُ لِلْإِسْلَامِ أَنْ لَا يُضِيعَنِي وَلِي عَنْكَ فِيهِ حَوَاطَةٌ وَمَنَابُ^١

ففي هذين البيتين جعل طلب تحريره من أسر الأعداء أمرًا تقتضيه ثلاثة أمور، المودة والصداقة التي بين أبي فراس وسيف الدولة، والنسب الذي بينهما، وأهمهم الإسلام. هذه الأمور الثلاثة هي التي تستدعي أن يحرر سيف الدولة ابن عمه أبي فراس، فهو لم يجعل الطلب منه مباشرة، بل أبعد نفسه عن الأمر وأسندته إلى هذه الأمور الثلاثة، وهذا فيه تحية المتكلم نفسه عن الانتساب لهذا الطلب المهدد لوجه المخاطب السلبي؛ فهذا الأسلوب في الطلب وإن كان يزيد من التهديد للوجه السلبي من جهة أنه نسب هذا الطلب لأمر قد تبدو أعظم من المتكلم نفسه، كالإسلام الذي تعد مخالفته منقصة كبيرة للإنسان، إلا أنه من جهة استعماله هذا الأسلوب قد أبعد شخصية المتكلم من أن يكون هذا الطلب صادرًا عنها؛ وبالتالي قد خفف من التهديد لوجه المخاطب الذي قد يأتي من جهة نسبة الطلب للمتكم بصورة خاصة.

الاستراتيجية السادسة: القاعدة العامة

من طرائق إخفاء فاعل الفعل المهدد للوجه ومفعوله المقصود به جعل هذا الفعل المهدد للوجه قاعدة عامة^٢؛ حيث يكون ذلك بإدلاء الطلب أو غيره من الأفعال المهددة للوجه في صيغة قاعدة عامة تشمل فئة كبيرة يدخل ضمنها الطرف المقصود؛ فلا يكون المخاطب هو المقصود الوحيد بهذه القاعدة، وبذلك لا يكون ذلك الفعل مهددًا لوجهه السلبي، فمن هذه الجهة يمكن مراعاة الوجه السلبي للمخاطب دون الامتناع عن إدلاء الفعل المهدد للوجه، فيتحقق الغرض من ذلك الفعل بأقل الخسائر في وجه المخاطب السلبي.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٢.

^٢ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ٣٩٠-٣٩١.

ففي خطاب الشكوى والعتاب يورد أبو فراس أحكامًا وقواعد عامة يخفي بها عتابه وطلباته التي يطلبها من سيف الدولة، مثل قوله:

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ بِالنَّفْسِ دُونَ حَبِيبِهِ فَمَا هُوَ إِلَّا مَا ذِيقُ الْوَدِّ كَاذِبٌ^١

هذه قاعدة عامة تشمل جميع الأصدقاء المحبين، تدل على وجوب التضحية بالنفس من أجل الحبيب، وإلا كان مدّعي هذا الحب كاذبًا في حبه ومودته لحبيبه. وهذه القاعدة جاء بها أبو فراس ليطالب من سيف الدولة أن يهتّب لإنقاذه والتضحية من أجله، ولم يصرّح بذلك؛ وهذا ما يمنح هذه العبارة ميزتها التأديبية التي تمنع تهديد وجه سيف الدولة بصورة مباشرة. ومثله قوله:

أَمَّا الْمُحِبُّ فَلَيْسَ يُصَدِّ غِي فِي هَوَاهُ إِلَى عَذُولٍ

يَمْضِي بِحَالٍ وَفَائِهِ وَيَصُدُّ عَنْ قَالٍ وَقِيلٍ^٢

المعنى هنا كسابقه، أعطى قاعدة عامة يريد منها فردًا بعينه. وهذه الاستراتيجية المستعملة تدخل ضمن أسلوب التعريض الذي يؤدي فيه المتكلم كلامه دون توجيهه إلى مقصوده، ولكن يفهم من القرائن التي تحيط بهذا الكلام أنه موجه إلى مقصود معين بذاته؛ وبذلك يتمكن المتكلم من التعبير عن الكلام بحرية أكبر من حالة التصريح المباشر بالمقصود بهذا الكلام.

٣- استراتيجيات تعويض التهديد

الفئة الأخيرة من استراتيجيات التأدب السلبي تحتوي على استراتيجية واحدة تقوم على تعويض جزئي عن تهديد الوجه المترتب عن الفعل المهدد للوجه، وذلك من خلال تعويض بعض رغبات المخاطب الأخرى التي تتعلق بوجهه السلبي، وذلك كالاهتمام برغبة المخاطب في سلامة حرمه، أو مراعاة مكانته وحقه في تقرير مصيره واتخاذ قراراته^٣؛ فيباعد المتكلم عن العبارات والأساليب التي يظهر فيها المتكلم منتهكًا لمكانة المخاطب وحرمة قدر المستطاع، واستبدالها بعبارات تعزز احترام حرم الآخر ومكانته وخياراته التي يتخذها.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣١.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٣٢٣.

^٣ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ٣٩٦.

فكل ذلك يقوم مقام التعويض عن أيّ ضرر قد لحق بوجه المخاطب السلبي جزاء فعل مهدد له صدر من المتكلم في خطابه^١؛ فالمخاطب عندما يشعر بأنّ المتكلم يولي أهمية كبيرة لحرم المخاطب ويحترمه، يجبر هذا الأمر أثر ذلك التهديد الذي قد توجّه إليه مسبقاً، ويكون ذلك بمنح المخاطب الإشارة بأنّ حقوقه لا زالت محترمة، وحرمة ما زال مصوناً رغم وقوع أيّ تهديدات.

الاستراتيجية السابعة: المديونية للآخر

يمكن للمتكلم أن يعوّض الأفعال المهددة للوجه السلبي للمخاطب من خلال عبارات تدل على مديونيته للمخاطب، أو إنكار مديونية المخاطب للمتكلم بشيء^٢، هذا الأسلوب يقوم على طمأنة المخاطب بشأن إمكان إلزامه وتقييده بأيّ طلب أو فعل يهدد وجهه السلبي؛ فعندما يصرح المتكلم بأنّ المخاطب ليس مديوناً للمتكلم بشيء، أو أنّ المتكلم هو المديون للمخاطب، فإنّ هذا الأمر يجعل من الطلبات والمعاتبات التي وردت في الخطاب غير ملزمة للمخاطب؛ وبالتالي يتحقق التعويض بهذه الطريقة عن تلك الأفعال التي هدّدت وجه المخاطب السلبي في عبارات أخرى.

وعند النظر في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس يظهر استعمال أبي فراس لهذه الاستراتيجية في عدد لا بأس به من أبياته، وقد بيّن هذا الاستعمال المتكرر أنّ أبا فراس يريد نفي المديونية عن مخاطبه سيف الدولة، وإشاعة مديونيته له بصورة أو بأخرى. فاستعمال هذا الأسلوب يتناسب وطبيعة الشكوى والعتاب التي يسير وفقها خطاب أبي فراس؛ لأنّ خطاباً كهذا قد يكرّس فكرة أنّ المخاطب سيف الدولة يدين بالكثير تجاه أبو فراس، ولهذا يعاتبه أبو فراس ويشكو إليه؛ لذلك هذا الأمر هو ما يحاول يعوّضه أبو فراس استعمال هذه الاستراتيجية، ليبني سياقاً آخر لا يقوم على فكرة أنّ سيف الدولة مديون لأبي فراس؛ مما يؤدي لتخفيف التهديد الحاصل في الخطاب.

قد أكّد أبو فراس مديونيته لسيف الدولة من خلال عدة أبيات، منها قوله:

عَلَيَّ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْقَرَمُ أَنْعَمَ أَوَانِسُ لَمْ يَنْفِرَنَّ عَنِّي رَبَائِبُ

^١ انظر كاترين كيربرات وأوريكيوني: المضمّر، ترجمة: ريتا خاطر، ط١، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٨م، ص٣٧١.

^٢ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص٣٩٦-٣٩٧.

أَجَحْدُهُ إِحْسَانُهُ فِيَّ إِنَّنِي لَكَافِرٌ نُعْمَى إِنْ فَعَلْتُ مُوَارِبُ

لَعَلَّ الْقَوَافِي عُقْنَ عَمَّا أَرَدْتُهُ فَلَا الْقَوْلُ مَرْدُودٌ وَلَا الْعُذْرُ نَاضِبٌ^١

وقوله مخاطبًا سيف الدولة:

فَكَمْ لَكَ عِنْدِي مِنْ إِيَادٍ وَأَنْعَمٍ رَفَعْتَ بِهَا قَدْرِي وَأَكْثَرْتَ حُسْدِي^٢

ويذكر بعض تلك الأنعم التي أنعمها عليه سيف الدولة بقوله:

وَأَنْتَ الَّذِي عَرَفْتَنِي طُرُقَ الْعُلَا وَأَنْتَ الَّذِي أَهْدَيْتَنِي كُلَّ مَقْصَدٍ

وَأَنْتَ الَّذِي بَلَّغْتَنِي كُلَّ رُتَبَةٍ مَشَيْتُ إِلَيْهَا فَوْقَ أَعْنَاقِ حُسْدِي

فَيَا مُلْبِسِي النُّعْمَى الَّتِي جَلَّ قَدْرُهَا لَقَدْ أَخْلَقْتَ تِلْكَ الثِّيَابَ فَجَدَّدِ^٣

يقر أبو فراس أن سيف الدولة قد أنعم عليه بنعم كثيرة وعظيمة، منها أنه عرفه طرق العلا، وهده إلى سبل الكرامة والخير، وبلغه كل رتبة وصل إليها، فكل ما حصل عليه أبو فراس من مكارم هو من أفضال سيف الدولة عليه، فحتى حساده الذين حسدوه لم يحسدوه إلا بما أنعم عليه سيف الدولة من النعم. بعد كل هذا الكلام الذي ينسب فيه أبو فراس الفضل لسيف الدولة في كل شيء يطرح بعدها طلباته التي حاول ألا تهدد وجه سيف الدولة السلبي، فنلاحظ في البيت الأخير قوله (فجدد) الذي هو طلب، ولكن هذا الطلب قد تم تخفيف ضرره بعد هذه الأبيات التي جعل فيها أبو فراس سيف الدولة دائمًا وليس مدينًا؛ فلا يجد سيف الدولة حرجًا من رفض هذا الطلب؛ لأنه لا يدين لأبي فراس بأي شيء، بل العكس هو الصحيح.

إن هذه الأبيات تدل بشكل قاطع على أن المديون للطرف الآخر في العلاقة التي تربط أبا فراس بسيف الدولة هو أبو فراس، وهذا المعنى هو ما يحاول أن يشيعه أبو فراس في قصائد الشكوى والعتاب؛ لأنها قد احتوت على أفعال كثيرة مهددة لوجه المخاطب السلبي، فاقترضى هذا الأمر أن ينفي أبو فراس فكرة أن يكون سيف الدولة مدينًا له بتحريره، وأن يقر حقيقة أنه هو المديون لسيف الدولة؛ حتى يجعل

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣١.

^٢ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٧٦.

^٣ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٧٦.

من خطابه خطابًا متأدبًا ومقبولًا، وذلك من خلال تخفيف وتعويض التهديد الحاصل في الخطاب تجاه الوجه السلبي لسيف الدولة.

المبحث الثالث: الاستراتيجيات لا قطعية القصد في خطاب الشكوى والعتاب

إنّ من أبرز سبل التزام التأدّب في الخطاب وتجنب وقوع التهديد من الفعل المهدد لوجه المخاطب هو أن يقوم المتكلّم بإخفاء القصد الفعلي لكلامه المهدد للوجه من خلال جعله قابلاً لأن يُفهم ويُفسّر بعدّة معانٍ مختلفة، يشرح براون ولفنسن هذا الأمر بقولهما: "يكون إنجاز الفعل التواصلية بصورة لا قطعية القصد إذا أُنجِزَ بطريقة بحيث لا يمكن نسبة قصد تواصلية واضح واحد إلى الفعل. وبتعبير آخر، فإنّ الفاعل المنفّذ يُبقي لنفسه مخرجاً عن طريق تزويد نفسه بعدد من التفسيرات القابلة للدفاع عنها؛ إذ لا يمكن أن يعزى إليه أنّه ألزم نفسه بتفسير معيّن واحد فقط لفعله التواصلية. لذلك إذا أراد المتكلّم أن ينجز (فمواً)^١، لكنّه أراد أن يتجنّب المسؤولية عن إنجازها، فيمكنه أن ينجز بصورة لا قطعية القصد ويترك الخيار للمخاطب ليقرر كيفية تفسيره"^٢.

ويمكن للمتكلّم من خلال هذه الطريقة أن ينجز كلامه بصورة غير مباشرة؛ فيخفي المعنى المقصود الذي يهدد وجه المخاطب بإيراده كاحتمال بين عدة احتمالات يصلح تفسير الكلام بها جميعاً، وهذا الأمر يزيد من تأدّب هذا الكلام ويعززه؛ ذلك أنّ التهديد لوجه المخاطب لا يظهر بصورة واضحة فيه، فلا يمكن تأكيد حصول ذلك التهديد في الكلام لمجرد احتماله له. تنفع هذه الطريقة للتهرب من وقوع التهديد لكلا الوجهين الإيجابي والسلبي، فهي لا ترتبط بنوع خاص من التأدّب؛ لأنها تقوم على إخفاء التهديد مهما كان نوعه، فإن كان التهديد الذي استعملت الاستراتيجيات لا قطعية القصد لتجنبه تهديداً للوجه الإيجابي كان ذلك من التأدّب الإيجابي، وإن كان التهديد الذي استعملت هذه الاستراتيجيات لتجنبه تهديداً للوجه السلبي كان ذلك من التأدّب السلبي.

يمكن تقسيم هذا المبحث إلى قسمين، الأول يتعلّق بالتلويحات الحوارية التي تنشأ بخرق إحدى القواعد الثلاث الأولى لمبدأ التعاون الغرايسي، والثاني يتعلّق بإيهام الكلام وجعله ملتبساً بحيث لا يُفهم مقصوده، وهو ما يتعلّق بخرق قاعدة الأسلوب بصورة خاصة. كلا الطريقتين تؤديان لحدوث ظاهرة لا قطعية القصد في الكلام؛ وبالتالي يتحقق المطلوب من الاستراتيجيات، وعلى هذا الأساس جرى تقسيم

^١ اختصاراً لـ (الفعل المهدد للوجه).

^٢ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ٣٩٨-٣٩٩.

هذه الاستراتيجيات عند براون ولفنسن^١، وعلى ذات الأساس يسير هذا المبحث في التقسيم؛ ليتم رصد هذه الاستراتيجيات في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس وفق الفئتين المذكورتين.

١- استراتيجيات التلويحات الحوارية

عندما يقوم المتكلم بإنجاز الفعل الكلامي المهدد للوجه بصورة غير مباشرة، عليه أن يترك للمخاطب بعض الإشارات التي تدل على مقصوده الفعلي؛ حتى تكون لهذا الفعل الكلامي فائدة عند إنجازهِ، وإلاّ كان مجرد كلام لا معنى ولا فائدة له، والطريقة المثلى لعمل هذا الأمر هي "استدعاء التلويحات الحوارية عن طريق خرق القواعد الغرائسية للتواصل الكفوء، بشكل من الأشكال"^٢.

قواعد مبدأ التعاون التي أتى بها غرايس هي أربع قواعد^٣:

- قاعدة الكم.
- قاعدة الكيف.
- قاعدة الصلة.
- قاعدة الجهة أو الأسلوب.

إنّ خرق أحد هذه القواعد الغرائسية يؤدي لحصول الفعل غير المباشر؛ لأنّ الكلام يعتمد حينها على ما وراء اللفظ المؤدّى بالكلام، فيحتاج المتلقي للكلام إلى بعض الدلائل الخارجية التي يفسر بها خرق القاعدة في الكلام؛ وهذا ما يولّد المعنى المراد دون التصريح به^٤. هذه الفئة من الاستراتيجيات تقوم على خرق إحدى القواعد الثلاثة الأولى من قواعد غرايس، أمّا خرق قاعدة الجهة أو الأسلوب فقد جعلت استراتيجياته في فئة خاصة سيأتي ذكرها.

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ٤٠٢.

^٢ المصدر نفسه، ص ٤٠١-٤٠٢.

^٣ انظر عبد الرحمن: اللسان والميزان، ص ٢٣٨.

^٤ لتفصيل أكثر راجع المهاد النظري.

الاستراتيجية الأولى: الإشارات الخفيفة

تقوم هذه الاستراتيجية على خرق قاعدة الصلة؛ حيث يقوم المتكلم بإنجاز كلام لا يبدو أن له صلة بما يريده المتكلم فعلاً، لكنّه في واقع الأمر يعطي ضمن كلامه إشارات خفيفة تدل على المقصود الفعلي، يحتاج المخاطب لأن يحلل كلام المتكلم لاستخراج هذا المقصود الفعلي من خلال تلك الإشارات التي ترد في الكلام، وبهذا يتمكن من الوصول للمعنى دون أن يكون ذلك التفسير منطوقاً من قبل المتكلم بصورة واضحة وصريحة.

يمكن رصد مثل هذا الأسلوب عند أبي فراس في خطاب الشكوى والعتاب، حيث استعمل خرق قاعدة الصلة لإبلاغ معانٍ مهددة لوجه المخاطب بصورة غير مباشرة، وذلك مثل قوله:

صَبُورٌ وَلَوْ لَمْ تَبَقْ مِنِّي بَقِيَّةٌ قَوْلٌ وَلَوْ أَنَّ السُّيُوفَ جَوَابُ

وَقُورٌ وَأَحْدَاثُ الزَّمَانِ تَتَوَشَّنِي وَلِلْمَوْتِ حَوْلِي جِيئَةٌ وَذَهَابُ^١

يعبر أبو فراس عما يشعر به من خلال هذين البيتين اللذين لا يبدو أن يطلب فيهما أي شيء من أحد، فلا صلة ظاهرة بين هذه الأبيات وبين التحرر من الأسر الذي يريده من سيف الدولة في خطابه، إلا أن الكلام هنا فيه إشارات واضحة إلى وجوده في الأسر وطلبه الحرية، فأولاً يشير قوله: (لم تبق مني بقية) و(للموت حولي جيئة وذهاب) أنه يعاني هذه المعاناة بسبب أسره، وهو يريد قطعاً أن يتخلص من هذه المعاناة، كما يتضح بأنه يحذر سيف الدولة من أنه قد يموت في الأسر في أي لحظة، وهذا بطبيعة الحال ما قد يعاب على سيف الدولة إن لم يبادر لتحرير أبي فراس، فقد صرح بهذا المعنى في أبيات أخرى. إذا فالبيتان يحملان معنى العتاب والطلب بصورة غير مباشرة.

هذا الأسلوب سمح لأبي فراس أن يبلغ هذه المعاني الحساسة بأقل صورة يمكن أن تنتهك وجه سيف الدولة، وهذا ما تفيد هذه الاستراتيجية؛ فهي تنفي وتقلل الضرر للوجه من خلال إخفاءه بهذه الصورة التي أخفى بها أبو فراس مقصوده ثم أشار إليه بإشارات بسيطة تدل عليه.

^١ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٣.

الاستراتيجية الثانية: الافتراض المسبق

يعرّف الافتراض المسبق بأنه "شيء يفترضه المتكلم يسبق التفوّه بالكلام، أي أنّ الافتراض المسبق موجود عند المتكلمين، وليس في الجمل"^١، وبعبارة أبسط يمكن تعريفه بأنه "علاقة بين افتراضين"^٢، أحدهما مصرّح به في العبارة، والآخر يلازمه عقلياً يكون في ذهن المتلقي، فعندما ينجز المتكلم كلامه قد يبطن بعض المعلومات في كلامه، لا تظهر هذه المعلومات بصورة صريحة في الكلام، إلّا أن كلاً من المتكلم والمخاطب يستطيعان أن يصلا إلى تلك المعلومات التي وضعها المتكلم كافتراض مسبق. كمثال على ذلك لو سأل شخص آخر: (هل تخرّجت من الجامعة؟)، يحمل هذا السؤال افتراضاً مسبقاً بأنّ المخاطب كان طالباً في الجامعة، وهذه المعلومة لم يصرّح بها في العبارة، بل ضُمّنت كافتراض مسبق يمكن استخراجه منها.

هذا الافتراض المسبق يمكن استعماله في سياق التأدّب لإخفاء التهديد للوجه كافتراض مسبق غير مصرّح به في الخطاب^٣؛ فبدلاً من إنجاز الفعل المهدد للوجه بصورة مباشرة، يمكن للمتكلم أن يخفي هذا الفعل المهدد للوجه ضمن عبارة أخرى باستعمال الافتراض المسبق؛ وذلك قائم على خرق قاعدة الصلة أيضاً؛ وهذا من شأنه أن يخفف تأثير هذا الفعل المهدد للوجه. وقد استعمل أبو فراس هذه الاستراتيجية في عدد من عبارات خطاب الشكوى والعتاب، منها قوله:

تِلْكَ الْمَوَدَّاتُ كَيْفَ تُهْمِلُهَا تِلْكَ الْمَوَاعِيدُ كَيْفَ تُغْفِلُهَا

تِلْكَ الْعُقُودُ الَّتِي عَقَدْتَ لَنَا كَيْفَ وَقَدَ أَحْكِمْتَ نُحْلِلُهَا^٤

يفترض أبو فراس مسبقاً أنّ سيف الدولة قد وعده بمواعيد وأغفلها، وأنّ له عقوداً عقدها له ثم حلّها، هذه الأمور كلها افتراضات مسبقة في الكلام، فسؤاله عن كيفية حصول هذا الأمر ليس إلّا أسلوباً ظاهرياً يخفي خلفه المعنى الحقيقي، فالمقصود الفعلي هو العتاب بسبب هذه الأمور التي افترض مسبقاً أنها قد وقعت، وطلب الإيفاء بالوعود من خلال تحريره من أسرهِ أحد هذه المعاني المرادة أيضاً.

^١ يول: التداولية، ص ٥١.

^٢ المصدر نفسه، ص ٥٢.

^٣ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ٤٠٦-٤٠٧.

^٤ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣٣٠.

كل هذه الأساليب الفعلية التي يمكن استنتاجها من الافتراض المسبق من شأنها أن تهدد وجه سيف الدولة، فجعلها كافتراض مسبق يمكن أن يسهم بتخفيف التهديد الصادر لوجه المخاطب بسببها.

الاستراتيجية الثالثة: تقليل القول

هذه الاستراتيجية قائمة على خرق قاعدة الكم من قواعد مبدأ التعاون، هذه القاعدة تقتضي أن يتكلم المتكلم بكم من المعلومات مناسب مع مقتضى الموضوع؛ لذلك يكون خرق هذه القاعدة إما بالكلام بأقل من ذلك الكم، أو بأكثر منه، والاستراتيجية التي نحن بصددتها تقتضي خرق قاعدة الكم بالإقلال من كم المعلومات المدلى بها في القول؛ وذلك تجنباً لحدوث التهديد لوجه المخاطب^١؛ فإنّ الفعل المهدد للوجه إن جرى إهماله في الكلام يمكن التعويض عنه بما يشير إليه، وهنا الإشارة إليه تكون من خلال ذكر بعض المعلومات المرتبطة به فقط؛ مما يسهم في الدلالة على ذلك المعنى المهدد للوجه دون ذكره في الكلام.

يمكن أن يكون لهذه الاستراتيجية حضور في بعض أبيات أبي فراس في الشكوى والعتاب، ولكنه قد لا يكون كبيراً؛ نظراً لكون هذا الأسلوب مناسباً بصورة أكبر للحوارات التبادلية بين الأفراد، ولكن ذلك لا يمنع ورود بعض الحالات من استعمال هذه الاستراتيجية في خطاب أبي فراس، كقوله:

فَلَمَّا بَعْدْتُ بَدَتْ جَفْوَةٌ وَلَا حَ مِنْ الْأَمْرِ مَا لَا أُحِبُّ^٢

فقد أشار للمشكلة التي بينه وبين سيف الدولة بأنهما مجرد بعدٍ وَلَدَ جَفْوَةٌ، أدّت هذه الجفوة لظهور أمر لا يحبه أبو فراس؛ فكأنما بسّط أبو فراس المشكلة تبسيطاً كبيراً، واختصرها اختصاراً قد يبدو مخلاً بالمعنى الحقيقي الذي يتضح من أبيات أخرى، فإنّ الأمر في الواقع هو خرق لقاعدة الكم؛ فلم يورد أبو فراس تفاصيل المآخذ التي يأخذها على سيف الدولة، بل اكتفى بوصف المشكلة بصورة عامة مما لا يهدد وجه سيف الدولة، كما لم يبين ما هو الأمر الذي قال بأنّه لا يحبه، فهو أتى بكلام ناقص؛ الغرض منه تقليل التهديد لوجه مخاطبه.

^١ انظر براون ولفنس: نظرية التأدب، ص ٤٠٨.

^٢ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣٣٠.

الاستراتيجية الرابعة: الإكثار من القول

ينعكس الأمر في هذه الاستراتيجية عن الاستراتيجية التي قبلها، وتشارك معها في أنها تعتمد على خرق قاعدة الكم أيضًا، إلا أن الخرق يحصل في هذه الاستراتيجية جرّاء الإكثار من المعلومات التي قد تبدو أنها زائدة على مقتضى الموضوع، ولكن في حقيقة الأمر هذه المعلومات الزائدة التي يدلى بها تكون موصلة لمعاني غير مباشرة. هذه الطريقة تمنح طريقًا غير مباشر لإيراد المعنى المهدد للوجه بأقل الخسائر^١.

يستعمل أبو فراس هذه الاستراتيجية في إيصال عتابه وطلباته لسيف الدولة من خلال إطالة الكلام في أمور قد لا تبدو مركزية في الموضوع الذي يتكلم فيه أبو فراس، ولكنها تحمل مضامين مهددة للوجه يريد أبو فراس الإدلاء بها في الخطاب، ذلك كقوله في جوابه على تنكّر سيف الدولة له:

فَلَا تَغْتَرِرِ بِالنَّاسِ مَا كُلُّ مَنْ تَرَى أَخُوكَ إِذَا أَوْضَعْتَ فِي الْأَمْرِ أَوْضَعًا

وَلَا تَتَّقِلْ مَا يَرَوْعُكَ حَلِيَّةُ تَقْلُدْ إِذَا حَارَبْتَ مَا كَانَ أَقْطَعًا

وَلَا تَقْبَلَنَّ الْقَوْلَ مِنْ كُلِّ قَائِلٍ سَأَرْضِيكَ مَرَأًى لَسْتُ أَرْضِيكَ مَسْمَعًا^٢

أخذ أبو فراس في التفصيل وبيان بعض الحكم والنصائح لسيف الدولة بدل أن يجيبه بأنه يعاني في الأسر ويريد منه أن يبادر بتحريره، هذه النصائح والحكم يريد بها أبو فراس أن يبين أن سيف الدولة قد أخطأ في حقه عندما لم يجبه ولم ينقذه، وهذا المعنى مهدد لوجه سيف الدولة، فاختر أبو فراس الزيادات المذكورة لكي يوصل هذا المعنى بصورة غير مباشرة؛ فعندما يقول: (ما كل ترى أخوك...) يريد أن سيف الدولة قد سمع لكلام من لا أمانة لديه فأوقعه في الخطأ، ويريد بالبيت الثاني وجوب أن يختار الرجل الأصحاب بناءً على بواطنهم لا ظواهرهم فقط، أما البيت الثالث فينصح بعدم قبول القول من كل أحد. هذه النصائح التي تبدو زائدة على الموضوع تشير إلى أن من الأجدر بسيف الدولة أن يفعلها، ولكنّه لم يقم بذلك؛ فتمثل انتقادًا وعتابًا لسيف الدولة من جهة، وتمثل طلبًا بأن يبادر سيف الدولة بتحرير أبي فراس من جهة أخرى.

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ٤١١.

^٢ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٤٦.

الاستراتيجية الخامسة: الاستعارة

يمكن من خلال استعمال الاستعارة أن يخفف المتكلم من شدة التهديد لوجه المخاطب، والاستعارة هي "مجاز تكون علاقته المشابهة"^١، أو بعبارة أكثر تفصيلاً "هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي"^٢، ويكون استعمالها كاستراتيجية تأديبية بإخفاء المعنى الحقيقي المهدد للوجه خلف الاستعمال المجازي للاستعارة؛ وهذا من خروقات قاعدة الكيف الغرايسية التي تسهم في تقليل شدة ذلك التهديد ويخفف منه^٣.

وهذه الاستراتيجية مستعملة في عدد كبير من أبيات خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس، نذكر منها قوله:

لَا نَتَيْمَّمُ وَالْمَاءُ تُدْرِكُهُ غَيْرُكَ يَرْضَى الصُّغْرَى وَيَقْبَلُهَا^٤

شبه أبو فراس سعي سيف الدولة لاكتساب المحامد والأمجاد مع ترك تحريره من أسرهِ بالتيمم مع وجود الماء، وكما هو معلوم في الفقه الإسلامي إنّ التيمم مشروع كبدل عن الوضوء أو الغسل حال فقد الماء فقط^٥، أما مع إدراكه فإنّ التيمم لا مشروعية له، فكذا كل عمل يقوم به سيف الدولة لا مشروعية له مع وجود عمل أهم منه متروك، هو تخليص أبو فراس من أسر الأعداء. بهذه الاستعارة تمكّن أبو فراس من إيراد طلبه بصورة مجازية تقلل من تهديده لوجه سيف الدولة.

الاستراتيجية السادسة: الأسئلة البلاغية

يمكن لمخالفة بند صدق النية في قاعدة الكيف عند غرايس أن تحوّل الفعل المهدد للوجه إلى فعل غير مصرّح به في الكلام؛ مما يخفف منه بصورة كبيرة، وذلك يكون من خلال عدة طرق، أبرزها

^١ التفتازاني، مسعود بن عمر: مختصر المعاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، انتشارات سيد الشهداء، قم، ١٤٠٩هـ، ص ٥٣٥.

^٢ الهاشمي، أحمد: تهذيب جواهر البلاغة، تهذيب: أمير الأميني، ط١، مركز المصطفى (ص) العالمي للترجمة والنشر، قم، ١٤٤١هـ، ص ١٦٧.

^٣ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدّب، ص ٤١٦.

^٤ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣٣٠.

^٥ لقوله تعالى: { فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا } النساء: ٤٣.

استعمال الأسئلة البلاغية، حيث يأتي المتكلم بسؤال لا يقصد به الاستفهام الحقيقي، بل تكون إجابة ذلك السؤال مقررة ومعروفة، إلا أن المتكلم يريد أن يوصل مضمون هذه الإجابة المقررة من خلال الإدلاء بالسؤال فحسب، وهذا ما يجعل هذه الإجابة مخفية على شكل سؤال، فيقل تأثيرها؛ لعدم قطعية القصد الذي يظهر باستعمال هذا الأسلوب^١.

قد أورد أبو فراس عددًا من الأسئلة البلاغية التي أدت هذا الدور في خطاب الشكوى والعتاب، وهذا ما أعطى لهذه الأسئلة مضامين مهددة لوجه المخاطب، ولكن هذا التهديد قلله إيراد هذا المضمون المهدد على شكل سؤال، مثل قوله:

بِأَيِّ عُذْرٍ رَدَدْتَ وَالْهَيْهَ عَلَيَّكَ دُونَ الْوَرَى مُعَوْلُهَا^٢

يسأل أبو فراس عن العذر من رد سيف الدولة لوالدته حين أتت تطلب نجدة ابنها، ولكن الغرض من السؤال ليس هو السؤال عن العذر، بل هو العتاب لسيف الدولة لقيام بذلك الفعل دون عذر؛ فهو يقرر حقيقة عدم وجود عذر لدى سيف الدولة، وهذا المعنى المهدد يكون أخف حين صياغته كسؤال من إirاده بصورة مباشرة وصريحة. وكذا الحال في قوله:

أَتُنْكِرُ أَنِّي شَكُوْتُ الزَّمَانَ وَأَنِّي عَتَبْتُكَ فِيمَنْ عَتَبَ^٣

فهو لا يسأل عن حدوث إنكار أنه قد شكاه وعاتبه، بل يريد أنه حاصل فعلاً.

٢ - استراتيجيات الإبهام

الفئة الثانية من استراتيجيات الإنجاز غير المباشر تتعلق بخرق قاعدة الأسلوب؛ وذلك يتحقق بجعل الكلام مبهمًا وغامضًا وملتبسًا، بحيث لا يظهر القصد الفعلي الحقيقي من خلاله، وهذا ما يجعل إنجاز الفعل المهدد للوجه يصاغ بصورة لا قطعية القصد؛ مما يخفف من شدة التهديد للوجه في هذا الفعل^٤. فاستعمال أسلوب كهذا يمكن أن يكون ذا فائدة كبيرة في جعل خطاب الشكوى والعتاب أكثر

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ٤١٧-٤١٩.

^٢ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٣٣٢.

^٣ المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢٦.

^٤ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ٤٢٠.

التزاماً بما يقتضيه التأدّب بنوعيه الإيجابي والسلبي، من خلال عدّة استراتيجيات تقوم على خرق قاعدة الأسلوب الغريسية.

الاستراتيجية السابعة: إبهام المُستهدف بالتهديد

تقوم هذه الاستراتيجية على إخفاء الطرف المستهدف من الفعل المهدد للوجه، بأن لا يوجّه المتكلّم الفعل المهدد للوجه تجاه الطرف المقصود أو المستهدف في كلامه^١. هذه الاستراتيجية من شأنها أن تخفف من شدة ذلك الفعل المهدد للوجه؛ ذلك أنّ المقصود بذلك الفعل ليس ظاهراً، فيمكن للمخاطب أن يتعامل مع هذا التهديد كتهديد موجه لغيره طالما لم يصرّح بفاعله بصورة واضحة؛ من هنا يكون تأثير هذه الاستراتيجية على قوة ذلك الفعل ومدى تهديده لوجه المخاطب.

قد استعمل أبو فراس هذه الاستراتيجية في خطاب الشكوى والعتاب في مواضع متعددة، ويهدف بهذا الاستعمال لإخفاء هوية المخاطب المقصود من كلامه؛ حتى لا يقوم بتهديد وجهه بصورة كبيرة، يمكن التمثيل لذلك بقوله:

وَرُبَّ كَلَامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسَامِعِي كَمَا طَنَّ فِي لَوْحِ الْهَجِيرِ دُبَابُ

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو أَنَّنَا بِمَنَازِلٍ تَحَكَّمُ فِي آسَادِهِنَّ كِلَابُ^٢

يتضح من البيتين السابقين حجم التهديد للوجه الذي يمكن أن يؤديانه، فالبيت الأول يذكر أنّ هناك كلاماً يعده أبو فراس كطنين الذباب، وهذا دَمٌّ للكلام وصاحبه، ولكنّه لا يذكر ما هو هذا الكلام المذكور ولا من هو صاحبه، وهذا إخفاءً للطرف المقصود بهذا التعبير. أمّا البيت الثاني فهو أشدّ تهديداً للوجه من البيت الأول؛ فقد وصف أبو فراس مقصوده فيه بالـ(كلاب)، هذه الكلمة من أشنع الذم الذي يمكن أن ينسب لأحد، ولذلك اختار أبو فراس عدم التصريح بهوية المقصود منها؛ مما قد يجعل العبارة مع شدة تهديدها لا تتوجّه لمقصود بعينه؛ وبالتالي يخفف ذلك من تأثيرها على وجه المخاطب أو المقصود الفعلي منها.

^١ انظر براون ولفنس: نظرية التأدّب، ص ٤٢١.

^٢ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢٢.

الاستراتيجية الثامنة: التعميم

إنّ لتعميم الخطاب تأثيرًا كبيرًا في إخفاء هوية المقصود منه، وهذه الطريقة تؤدي دورًا مهمًا في جعل الكلام مؤدبًا؛ حيث يبتعد المتكلم عن تحديد مقصود لكلامه، وإنّما يجعله عامًا ينطبق على الجميع، مع كونه قاصدًا لشخص بعينه يشمله التعميم^١، وهذا ما تختلف فيه هذه الاستراتيجية عن سابقتها، فهي لا تخفي هوية المقصود فحسب، بل تجعل الخطاب شاملاً لهذا المقصود وغيره، وذلك من خلال تعميم العبارة، فلا يقع التهديد عليه مباشرة، بل يقع عليه من جهة انطباق الكلام العام عليه، وهو انطباق الكلي على أفرادها كما في علم المنطق^٢.

وتتداخل هذه الاستراتيجية مع استراتيجية القاعدة العامة، وهي الاستراتيجية السادسة من استراتيجيات التأدب السلبي في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس^٣، التي تلتقي مع هذه الاستراتيجية في تعميم الفعل المهدد للوجه بحيث لا يكون المقصود منه واضحًا، فالأمثلة والشواهد في تلك الاستراتيجية تنطبق هنا أيضًا لوجود التعميم المقتضي لتخفيف التهديد للوجه. مع ذلك يمكن ذكر شواهد أخرى لهذه الاستراتيجية من شعر أبي فراس، كقوله:

وَمَا الذَّنْبُ إِلَّا الْعَجْزُ يَرْكَبُهُ الْفَتَى وَمَا ذَنْبُهُ إِلَّا حَارِبَتُهُ الْمَطَالِبُ

وَمَنْ كَانَ غَيْرَ السَّيْفِ كَافِلُ رِزْقِهِ فَلِلذِّلِّ مِنْهُ لَا مَحَالَةَ جَانِبُ^٤

يرمي أبو فراس من يركب العجز بأنّه قد وقع بالذنب، ثم يرمي من لا يستعين بالسيف لرزقه بأنّه ذليل، هذه الأوصاف مهددة لوجه المقصود منها، وهنا قد عمم أبو فراس هذه الأوصاف على كل من ارتكب الأمور المذكورة، ولم يجعلها لفرد بعينه؛ وبذلك قلل من استهداف وجه ذلك المقصود منها.

^١ انظر براون ولفنسن: نظرية التأدب، ص ٤٢١-٤٢٢.

^٢ انظر المظفر، محمد رضا: المنطق، ط ١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٢٠١١م، ص ٤٥-٥٠.

^٣ راجع صفحة ١٨٠-١٨١.

^٤ أبو فراس: الديوان، ج ٢ ص ٢١.

الخاتمة

لقد تبين من خلال هذه الدراسة مدى أهمية المنهج الذي جرى انتهاجه فيها، حيث اعتمد هذا المنهج على عدد من نظريات التأدب التي جاء بها علماء وفلاسفة اللغة، وذلك بتطبيقها على شعر أبي فراس الحمداني. هذه النظريات كشفت العديد من الجوانب المهمة في خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس الحمداني؛ مما أسهم باستخلاص عدة نتائج خرج بها بعد الانتهاء من الدراسة، يمكن تلخيص هذه النتائج بالآتي:

- ظهور طبيعة خطاب الشكوى والعتاب المهددة للوجه، والتي تدفع لانتهاك حرم المخاطب؛ مما يؤدي لحساسية هذا الخطاب وشدة انحداره عن مقتضى التأدب، وهنا تبرز الحاجة لاتخاذ إجراءات خاصة لتلافي وقوع هذا الضرر بتأدب خطاب الشكوى والعتاب.
- كون التأدب في الخطاب عملية مركبة تتداخل وتتوَع فيها العوامل التي تؤثر في مقدار تأدب الخطاب، وذلك لرجوع هذه العوامل إلى عدة جهات تتعلق بالخطاب، إلى ذات المتكلم تارة، وإلى المخاطب أخرى، وإلى طبيعة العلاقة القائمة بينهما ثالثة. وكل هذه العوامل تتأثر بشكل ملحوظ بالظروف المحيطة بالخطاب، والتي أبرزها غايات الخطاب.
- بروز جانب مكانة المخاطب في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس كعامل لتأدب الخطاب أكثر تأثيراً من بقية العوامل التي أثّرت في تأدب خطاب أبي فراس؛ ويعود ذلك للمكانة العالية التي يمتلكها سيف الدولة الحمداني، الذي يعدّ المخاطب الرئيس في خطاب الشكوى والعتاب عند أبي فراس.
- تنوع الأفعال المهددة لوجه المخاطب بين الإيجابي والسلبي في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس الحمداني، مع ترجيح كفة التهديدات للوجه السلبي بمقدار قليل؛ نظراً لمراعاة المتكلم لعوامل التأدب التي كانت تقف لصالح تأدب الخطاب السلبي والبعد عن التهديد للوجه، متجاوزاً بذلك شيئاً مما تقتضيه الطبيعة المهددة للوجه لهذا النوع من الخطابات.
- تداخل الأفعال المهددة للوجهين الإيجابي والسلبي للمخاطب في خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس، وذلك بكون العبارة الواحدة حاملة لأكثر من فعل مهدد للوجه، بعضها يهدد الوجه الإيجابي للمخاطب، والبعض الآخر يهدد الوجه السلبي للمخاطب، وهذا التداخل يكشف مدى تعقيد عملية قياس تأدب الخطاب ودقتها.

- محافظة أبي فراس على حدّ معيّن من التأدّب لا تتجاوزه الأفعال المهددة لوجه المخاطب في خطاب الشكوى والعتاب لديه؛ مما يمنع من انحدار مستوى تأدّب الخطاب إلى الدرجات السفلى، فقد حافظ الخطاب على قدر من التأدّب حال دون وقوع بعض الأفعال الأكثر تهديدًا للوجه، والتي لا تتناسب مع مكانة المخاطب ولا غايات الخطاب.
- التزام خطاب الشكوى والعتاب لأبي فراس الحمداني بقواعد مبدأ التأدّب لروبين لايكوف بصورة عامة، مع وجود بعض الخروقات المؤثرة لقاعدتي التعفّف والتشكك؛ نظرًا لطبيعة خطاب الشكوى والعتاب التي تدفع نحو خرق هاتين القاعدتين. وبالمقابل كانت قاعدة التودد هي الأكثر تجليًا والتمّامًا في الخطاب، فلم يتم رصد سوى بعض الخروقات البسيطة لقاعدة التودد، والتي كانت ناشئة في غالبها من خرق القاعدتين الأوليتين؛ مما جعل الخروقات لقاعدة التودد لا تظهر بشكل واضح وملحوظ في الخطاب، بل وسمحت طبيعة هذا الخطاب لمنتجه بتعزيز هذه القاعدة بما تقتضيها من عبارات التودد دون الإخلال بوظيفة الخطاب.
- توسّل خطاب الشكوى والعتاب لدى أبي فراس باستراتيجيات التأدّب الإيجابي والسلبي بصورة قوية ومؤثرة؛ حيث ساهمت هذه الاستراتيجيات بشكل ملحوظ في تخفيف حدة الخطاب، وتعويض الأفعال المهددة للوجهين الإيجابي والسلبي الواردة فيه؛ مما زاد من التزام الخطاب بحالة التأدّب، وأفاد في زيادة احتمالية تحقيق غايات الخطاب المرجوة.
- تداخل الكثير من استراتيجيات التأدّب مع بعضها البعض بصورة ملحوظة في الخطاب، وهذا يكون من جهتين، الأولى تتداخل فيها استراتيجيات التأدّب الإيجابي مع بعضها البعض، وكذا الحال في استراتيجيات التأدّب السلبي واستراتيجيات الإنجاز غير المباشر. أمّا الجهة الثانية فتتداخل فيها استراتيجيات التأدّب الإيجابي مع استراتيجيات التأدّب السلبي مع استراتيجيات الإنجاز غير المباشر، فيحدث التداخل بين استراتيجيات الفئات الثلاثة؛ وهذا ما يؤكّد حقيقة قيام عبارات وأجزاء الخطاب بأكثر من وظيفة خطابية في آن واحد؛ مما يكشف عمق ودقة أساليب الخطاب الفعلية، ويظهر حجم الأبعاد التداولية التي يمكن أن تؤثر في عبارات خطاب الشكوى والعتاب ومدى هذا التأثير.
- حضور التأدّب الإيجابي بصورة أكبر من التأدّب السلبي في خطاب الشكوى والعتاب، نظرًا لتفوق عدد استراتيجيات التأدّب الإيجابي المستعملة في الخطاب على عدد استراتيجيات التأدّب السلبي، وهذا يتناسب مع التزام الخطاب بقاعدة التودد التأدّبية بصورة أكبر من قاعدتي التعفّف

والتشكك؛ كل ذلك يسهم في تعزيز التأدب الإيجابي بصورة تجعله يتجاوز التأدب السلبي في الخطاب؛ ويرجع ذلك لطبيعة خطاب الشكوى والعتاب التي تتيح تطبيق استراتيجيات التأدب الإيجابي بصورة تتجاوز استراتيجيات التأدب السلبي.

إنّ هذه النتائج المهمة التي ظهرت بفضل تطبيق نظريات التأدب على شعر أبي فراس الحمداني الذي ينتمي لخطاب الشكوى والعتاب أسهمت بشكل كبير في فهم أعمق لظاهرة التأدب في الخطاب المدروس، وكشفت عن جوانب خفية ومهمة في خطاب الشكوى والعتاب بصورة خاصة؛ مما يحدو لمزيد من الجهد والاهتمام تجاه هذا المجال التداولي في دراسة أيّ خطاب والتعاطي معه.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.
- ابن أبي المعتز، علي بن علي بن محمد: شرح العقيدة الطحاوية، د.ط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م.
- إسماعيل، صلاح: نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، ط١، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٧ م.
- آن روبول وجاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ط١، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٣ م.
- أوستن، جون لانغشو: الفعل بالكلمات، تحقيق: جايمس أوبي أورمسن ومارينا سبيسا، ترجمة: طلال وهبه، ط١، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، ٢٠١٩ م.
- أولمان، ستيفن: دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال محمد، د.ط، مكتبة الشباب، د.ت.
- باتريك شارودو ودومينيك منغو: معجم تحليل الخطاب، ط١، ت: عبد القادر المهيري وحمادي صمود، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، ٢٠٠٨ م.
- براون ولفنسن: نظرية التأذب، ط١، ترجمة: هشام الخليفة، دار كنوز المعرفة، عمان، ٢٠٢٣ م.
- بلانشيه، فيليب: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ٢٠٠٧ م.
- التفتازاني، مسعود بن عمر: مختصر المعاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، انتشارات سيد الشهداء، قم، ١٤٠٩ هـ.
- التفتازاني، مسعود بن عمر: المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداي، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٣ م.
- الثعالبي، عبد الملك بن محمد: الشكوى والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب، تحقيق: إلهام عبد الوهاب المفتي، ط١، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ٢٠٠٠ م.
- الثعالبي، عبد الملك بن محمد: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد محمد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣ م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر: التاج في أخلاق الملوك، تحقيق أحمد زكي باشا، ط١، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٤ م.

- الحلبي، محاسن بن إسماعيل: شرح شعر الشنفرى الأزدي، ت: خالد عبد الرؤوف الجبر، ط١، دار الينابيع للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٤م.
- الحمداني، أبو فراس: الديوان، تحقيق: سامي الدهان، ط١، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٤٤م.
- ختام، جواد: التداولية أصولها واتجاهاتها، ط١، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ٢٠١٦م.
- الخطيب التبريزي، يحيى بن علي: شرح ديوان عنتر بن شداد، تحقيق مجيد طراد، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.
- الرازي، محمد بن أبي بكر: مختار الصحاح، د.ط، تدقيق وإخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان ناشرون، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦م.
- ابن رشيق، الحسين بن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، دار الجيل، بيروت، ١٤٠١هـ، ١٩٧١م.
- الزركلي، خير الدين بن محمود، الأعلام، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م.
- السامرائي، فاضل: معاني النحو، ط٣، دار ابن كثير، بيروت، ٢٠٢٢م.
- السبزواري، هادي: شرح المنظومة، تعليق: حسن زاده آملی، تحقيق: مسعود طالبی، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، د.ت.
- السعران، محمود، علم اللغة، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٢م.
- السيوطي، جلال الدين بن أبي بكر: الجامع الصحيح، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م ١٤٢٥هـ.
- الشهري، عبد الهادي: استراتيجيات الخطاب، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٣م.
- سنقر، محمد: المعجم الأصولي، ط٣، مؤسسة السيدة المعصومة، قم، ٢٠١٣م.
- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ط١، دار صادر، بيروت، د.ت.
- عبد الرحمن، طه: اللسان والميزان، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، د.ت.
- ابن عثيمين، محمد بن صالح: شرح رياض الصالحين، ط١، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٦هـ.
- ابن عربي، محمد بن علي بن عربي: محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ط١، دار اليقظة العربية، دمشق، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م.

- عزام، عبد الوهاب: ذكرى أبي الطيب المتنبي بعد ألف عام، د.ط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.
- عزام، محفوظ: الأخلاق في الإسلام بين النظرية والتطبيق، ط١، دار الهداية للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦م.
- الفضلي، عبد الهادي: تلخيص البلاغة، ط٢، دار أطياف للنشر والتوزيع، القطيف، المملكة العربية السعودية، ٢٠١٧م.
- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، ط١، صححه: إبراهيم شمس الدين، شركة الأعلمي للطبوعات، بيروت، ٢٠١٢م ١٤٣٣هـ.
- القزويني، محمد بن عبد الرحمن: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط٣، دار الجيل، بيروت، ١٩٥٣م.
- القصاب، وليد: أثر المتلقي في التشكيل الأسلوبي في البلاغة العربية، د.ط، ندوة الدراسات البلاغية الواقع والمأمول، الرياض، ١٤٣٢هـ.
- كاترين كيربرات وأوريكيوني: المضمرة، ترجمة: ريتا خاطر، ط١، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٨م.
- كونزلن، جوتفرايد: مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا (شهادة ألمانية)، د.ط، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مدينة السادس من أكتوبر، ١٩٩٩م.
- ليتش، جوفري: مبادئ التداولية، ترجمة: عبد القادر قنيني، ط١، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٣.
- المتنبي، أحمد بن حسين: ديوان المتنبي، د.ط، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣م.
- المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٣م.
- مجيد الماشطة وأحمد الركابي: مسرد التداولية، ط١، دار الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٨م.
- مختار، أحمد: علم الدلالة، ط٥، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- المصطفوي، حسين: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ط١، مركز نشر آثار العلامة المصطفوي، طهران، ١٣٨٥ش.
- المظفر، محمد رضا: المنطق، ط١، مؤسسة الأعلمي للطبوعات، بيروت، ٢٠١١م.

- ابن منظور: لسان العرب، ط١، دار صادر، بيروت، ج١، د.ت.
- الهاشمي، أحمد: تهذيب جواهر البلاغة، تهذيب: أمير الأميني، ط١، مركز المصطفى (ص) العالمي للترجمة والنشر، قم، ١٤٤١هـ.
- يورغنسن وفيليبس: تحليل الخطاب: النظرية والتطبيق، ترجمة: شوقي بوعناني، ط١، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، ٢٠١٩م.
- يول، جورج: التداولية، ترجمة: قصي العتابي، ط١، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٠م

الدوريات والمجلات:

- حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، الكويت، الحولية الخامسة والعشرون، ٢٠٠٥م.
- مجلة أبحاث، جامعة زيان عاشور، الجزائر، مجلد ٦، العدد ٢، ٢٠٢٠م.
- المجلة الإندونيسية للدراسات العربية، IAIN Syekh Nurjati Cirebon ، إندونيسيا، المجلد ٤، العدد ١، ٢٠٢٢م.
- مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، المجلد ٢٨، العدد ٥، ٢٠١٤م.
- المجلة الجزائرية للدراسات الإنسانية، جامعة وهران، الجزائر، العدد ١، ٢٠١٩م.

style of the discourse and its various communicative mechanisms.

By using the aforementioned theoretical tools, we can look at the studied corpus (the discourse of complaint and reproach in the poetry of Abu Firas al-Hamdani) in its communicative and situational context to reveal the features of creativity in Abu Firas's poetic discourse, and to reveal the reasons and mechanisms of the influence of this discourse in terms of language and style. It will also reveal the extent to which the discourse of complaint and reproach achieves the standards of politeness according to the aforementioned theories of politeness. Through this application of this method, we aim to reveal the mechanisms of politeness in the discourse of complaint and reproach in Abu Firas Al-Hamdani, and to study the relationship between complaint and reproach on the one hand, and politeness and impoliteness on the other hand. We seek to clarify the extent of the influence of the parties to the communication process on the politeness of the discourse of complaint and reproach. We aim to study the polite strategies in the poetry of Abu Firas Al-Hamdani to reveal the different methods of polite communication in his discourse, through modern theories of politeness such as the theories of Grice, Lakoff, Levinson, and Leach. Thus, we can study the verbal threats to faces in the discourse of complaint and reproach in Abu Firas and how to avoid or compensate for them.

found that the theories of politeness are among the most effective and modern pragmatics approaches, and I also saw that the problem of the text studied cannot be solved except by applying these literary theories to it, and this is what made me settle on that.

Politeness theories view the communicative process as an arena for threatening faces according to Grice's theory. Every communicative process is a fertile environment for verbal threats. Hence, communicative strategies and methods emerged to attack opponents in different speeches. In return, special strategies and rituals were invented to protect against these threats made by the speakers during communication. Therefore, scholars of politeness were preoccupied with this verbal phenomenon and studied it in depth in different texts.

In this research, we aim to study the discourse of complaint and reproach in the poetry of Abu Firas al-Hamdani, especially his Rumiyyat, according to these theories; in order to try to uncover the pragmatics aspects of this poetry and show its pragmatics value, which will lead us to understand the phenomenon of contradiction in this poetry, and to clarify the role played by politeness in the discourse of complaint and reproach .

This is done by applying different theories of politeness, such as the theories of Grice, Lakoff, Brown, Levinson, and Leach; in order to reveal the features of Abu Firas's poetry by applying the mechanisms that these theories came with to deal with different discourses, and applying these theories contributes to revealing the consistency and balance of the communicative process, as the extent of the sender's commitment to the rules that the theories of politeness come with in the communicative process contributes to preserving the communicative process from threats that threaten faces, and this is what will be studied in the research as well .

When talking about the basic problem that this research attempts to study and solve, the problem of the research lies in revealing the characteristics, mechanisms and strategies of politeness in the discourse of complaint and reproach in the poetry of Abu Firas al-Hamdani, especially in his Rumiyyat; as this discourse requires a literary pragmatic study that reveals the influence of the communicative context on the style of the discourse and its mechanisms through modern theories of politeness. It is also necessary to study the features of communication in the discourse of complaint and reproach and the extent of the influence of the parties to the communicative process on the politeness of this discourse, and how the relationship between the speaker and the addressee affects the

Abstract:

The research starts from a pragmatic study of verbal interactions in the discourse of complaint and reproach found in the selected corpus in order to reach the communicative methods and strategies that can be used in the situation, which contributes to revealing the hidden meanings of the studied literary text, through treating the text politely at the pragmatic and situational levels with the help of modern theories of politeness such as Grice's theory of faces, Lakoff's principle of politeness, Brown and Levinson's theory of positive and negative politeness, with a focus on Brown and Levinson's theory and their book (*Politeness*); as it is the most recent and most complete theory among the aforementioned theories of politeness.

Abu Firas Al-Hamdani is one of the most prominent poets in the history of our Arabic literature; This is because his poetry was distinguished by the power of expression of the feelings that stirred the poet's soul, and what distinguished Abu Firas' soul was that it was a soul that carried contradictory feelings. This contradiction in feelings may have arisen after he was taken prisoner by the Romans, so he came out to us with his poems that he wrote in his state of captivity, which are known as the *Rumiyat*, and they are poems and fragments that carry a discourse full of pain and sorrow, the pain that produces complaint and reproach. Abu Firas complains about his condition to his cousin Sayf al-Dawla al-Hamdani and reproaches him for his failure to redeem him and free him from captivity, but in return he was careful not to sever the thread of his connection with his cousin in the hope of rescue that might come to him, and out of reverence for him as the ruling king, so his discourse was oscillating between politeness and impoliteness, and this contradictory state in the poetry of Abu Firas al-Hamdani and the *Rumiyat* in particular seemed to us worthy of being studied in light of theories of politeness that can reveal the characteristics of this discourse that includes On the thing and its opposite, which generates paradoxes that ignite poetry.

The pragmatics approach that we adopted is concerned with revealing the contextual connotations of speech, and this modern approach was a revolution in the field of linguistic analysis, as linguistic approaches did not take into account the circumstances of speech production, but rather approached the text as something isolated from its context, and this is what made the modern communicative approach raise linguistic analysis to other levels that were not revealed, and for this reason I chose to approach the texts according to this approach, but I wanted to apply the latest findings of pragmatics studies in this field, so I

UNIVERSITY OF BAHRAIN

College of Arts



Department of
Arabic Language
and Islamic Studies

The Discourse of Complaint and Reproach in the Poetry of Abu Firas Al - Hamdani in the light of theories of politeness

A dissertation to complete the requirements for obtaining a master's degree in
Arabic language and literature

Submitted by

Mohamed Jasim Mohamed Hasan

University ID number: 20140100

Supervised by

Prof. Dr. Ahmad Mohamad Wais

Professor of Literary Theory and Stylistics

University of Bahrain

Kingdom of Bahrain

2024-2025